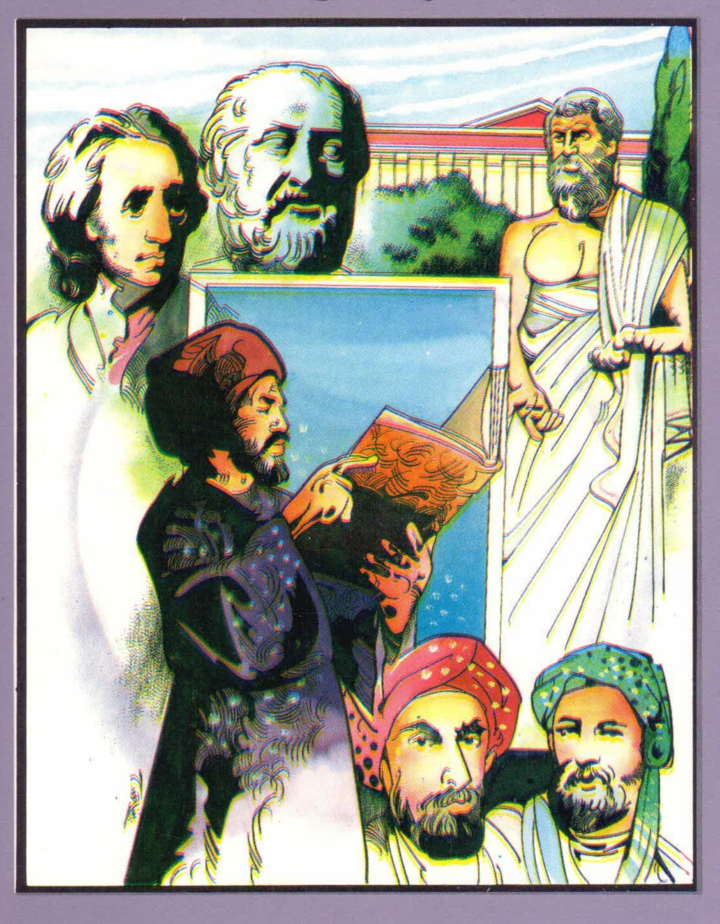
الأعلام من الفلاسفة

إعداد
الشيخ كامل محمد محمد عويضة

محمد إقبال

شاعر وفيلسوف الإسلام



دار الكتب العلمية

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ - تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس : ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٦٠٢١٣٣/٩٦١١/٠٠

الأعلام من الفلاسفة

محمد إقبال

شاعر وفيلسوف الإسلام

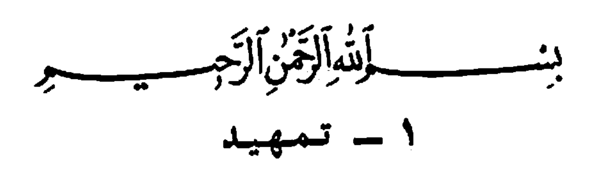
إعداد

الشيخ كامل محمد محمد عويضة

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣-٨٦٨٠٥١-٦٠٢١٣٣ - ٣٣ ٢١
فاكس: ٤٧٨١٢٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٦٠٢١٣٣/٩٦١١/٠٠



١ ـ تمهيد

(أ) مقومات الحضارة الإسلامية

في ضوء القرآن الكريم

تعددت الطروحات التي تحدد المقومات الأساسية لأي بناء حضاري عبر مراحل التاريخ، واستقر المنظرون على صياغة أغلب هذه المقومات الكفيلة بقيام أية حضارة ورأوا أن عدم توافرها ـ أو على الأقل غياب إحداها ـ كفيل بهدم أية حضارة، هذا إذا قامت هذه الحضارة من الأساس. ولعل من أبرز هذه المقومات التي استقاها المنظرون من أعتى الحضارات القديمة ضرورة توافر أسباب الاستقرار والحياة كوجود المياه والأرض الصالحة للزراعة؛ نظراً لأن ذلك كفيل بقيام نظام ثابت ومقومات للبناء وقيام الحرف وغير ذلك ـ وأضاف المنظرون الجغرافيون بعداً آخر وهو اعتدال المناخ الذي يكفل للإنسان القيام بهذا الدور.

واستقر أصحاب هذه النظريات في الغالب على مجموعة من الأسس التي تكفل قيام الحضارة، فذكروا ـ فيما ذكروا ـ أنه يصعب قيام الحضارة في المناطق الحارة الصحراوية، وأن البيئات الساحلية أكثر تقبلاً للتفاعل الحضاري من البيئات الصحراوية الداخلية وغير ذلك. ومن خلال هذه المقومات التي بدت لفترة طويلة ـ وربما حتى الآن ـ أنها ثابتة فسر الفلاسفة والمفكرون أسباب انتشار طقوس العبادات حول الوديان كما حدث في مصر القديمة وبلاد الرافدين وبلاد اليمن وغيرها.

ووسط هذه القناعات التي لم تكن وليدة العصر الحديث أراد الله سبحانه

وتعالى أن يبني بالإسلام ـ ومن خلاله ـ حضارة معجزة تخالف هذه القناعات البشرية، فكان اختيار المكان الذي ستقوم عليه وتنبعث من هذه الحضارة مغايراً لما وصل إليه العقل البشري من مقومات الحضارة، فالمنطقة الصحراوية تعيش فيها شعوب قليلة لا يربط بينها نظام موحد، كما أنها شديدة الحرارة لا يسمح مناخها إلا بعمل محدود لحياة بسيطة، ورعي أغنام ومسكن بدائي هو الخيمة وأمور لا تحتاج إلى جهد كبير.

ويشير القرآن الكريم إلى أن مكة هي المستقر الرئيس لهذه الحضارة ﴿إن أول بيت وضع للناس للّذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾[1] وتوضح الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قد اختار مكة ـ مركز حضارته والهداية إلى تعاليمه ـ في هذا المكان الذي لا تتوافر فيه مقومات الحضارة بالمفهوم البشري، ولعلم الله سبحانه وتعالى فقد هيأ مكة والمنطقة المحيطة بها ورسالتها بمقومات حضارية أخرى غير تلك التي يراها الإنسان، فالحضارة التي ستنبعث منها ستكون حضارته الخالصة التي تحمل رسالته الأخيرة للبشر والتي إن اتبعوها اهتدوا وهدوا، وإن ابتعدوا عنها ضلوا وأضلوا، فقال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾[2]. ويوضح القرآن الكريم مقومات هذه الحضارة دون أن يترك للبشر حرية الاجتهاد في تحديد أبعادها، عندما أراد الله سبحانه وتعالى التهيئة لها على يد خليله إبراهيم عليه السلام، فيقول تعالى بمنطق تأكيد عجز العقلية البشرية عن الإلهام بكل شيء في عمله: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾[3] فالآية الكريمة تشير إلى أن المكان خال من الزرع، ومن الطبيعيّ من المياه ومن ثم السكان، واختيار المكان لم يكن عشوائياً كما يتراءى لبعضهم، وهو محدد بوضوح «عند بيتك المحرم»، والذرية التي أسكنها إبراهيم

(١) آل عمران آية: ٩٦.

(٢) البقرة آية: ١٣٠.

(٣) إبراهيم آية: ٣٧.

عند البيت المحرم هي المكلفة بوضع اللبنات الأولى لهذه الحضارة حيث اصطفاها الله لهذا ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾(١).

(ب) أسس راسخة:

ثم تحدد آيات القرآن الكريم أهم مقومات حضارة الرحمن فيقول تعالى: ﴿ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾(٢)، فإقامة الصلاة التي تعني دوام الإتصال يصاحب هذه الحضارة وبين الراغبين في الإنضمام إليها هي المقوم الأول والأساسي، فإذا أخلصوا في هذا الاتصال بأفئدتهم ينضم إليهم من يدرك بفؤاده معنى حضارتهم، فالمطلوب ليس إنضمام كل الناس وإنما أصحاب الأفئدة التي تدرك بحسها أبعاد رسالتهم، فإذا تجمع أصحاب هذه الأفئدة والتزموا بمقومات هذه الحضارة فإن الله يغمرهم - على الرغم من ضحالة إمكانات المنطقة - بالرزق الموفور لعلهم يشكرون.

ويعلن إبراهيم عليه السلام التزامه ومن يهتدي من ذريته بهذه المقومات في طلب من المولى الانضمام إلى هذه الحضارة، فيؤكد أن يدرك فؤاده أبعادها ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾(٣)، ثم يؤكد التزامه وبهذا الحس بأهم مقوماتها ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء﴾(٤).

وكان هذا الإعلان بمثابة قيام أمة جديدة ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾(٥) ووجه إبراهيم الدعوة للناس جميعاً للانضمام إليها والالتزام بمقوماتها ﴿قل إن كنتم

---

(١) آل عمران آية: ٣٣.
(٢) إبراهيم آية: ٣٧.
(٣) إبراهيم آية: ٣٨.
(٤) إبراهيم آية: ٤٠
(٥) النحل آية: ١٢٠

تحبون الله واتبعوني يحببكم الله﴾(1) ثم ينفذ إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام أوامر الله سبحانه وتعالى في إرساء قواعد البيت لكي يكون قبلة هذه الأمة ومكان التقائها وتجمعها، وفور إرساء القواعد ينفذان أوامر صاحب البيت في أن يطهراه لأتباع هذه الأمة من الطائفين والعاكفين والركع السجود. ويوصي إبراهيم عليه السلام بنيه بالالتزام بهذا المنهج فذكر لهم ﴿إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾(2)، ويواصل يعقوب إبلاغ هذه الوصية لبنيه فيسألهم ﴿ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾(3). ويستمر هذا المنهج في ذرية إبراهيم فيقول تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ولا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾(4).

ومن ذرية إبراهيم يبعث محمد ﷺ، وينزل الله عليه القرآن ليثبت به فؤاده، وليكون رسالة الله الأخيرة إلى البشر أجمعين، وليكون دستور هذه الأمة. ويزداد شأن لغة العرب لكي تكون لغة الدستور الدائم لهذه الأمة، ويرتفع معها وبها شأن كل من أدرك بفؤاده فحوى الرسالة وسعى للدعوة بمقوماتها سواء من العرب أم من غيرهم، وتكون لغة الإنذار الموجه لكل من يعاديها سواء من العرب أم من غيرهم، وليكون أول إنذار ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾(5) تعبيراً عملياً عن رفض أي لون من ألوان العصبية القومية في الحضارة أو الأمة الجديدة.

---

(1) آل عمران آية: ٣١.
(2) البقرة آية: ١٣٢.
(3) البقرة آية: ١٣٣.
(4) البقرة آية: ١٣٦.
(5) الشعراء آية: ٢١٤.

ويفتح الركب الحضاري الجديد أبوابه للناس جميعاً، فلم يعلُ فيه جنس على آخر «فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»، والعصبية للجنس فيه مرفوضة «دعوها فإنها فتنة»، ويقف النبي ﷺ وخلفه بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وأبو بكر القرشي في وجه أبي لهب وأبي جهل وأبي سفيان وهم من الجنس العربي.

ولعل ذلك التحديد يؤكد أمرين مهمين، أولهما عالمية هذه الرسالة التي تمثل أساس الحضارة الإلهية، فهي لكل الأجناس والأديان والمذاهب، وليست مقصورة على جنس أو لغة، ومعيار الثواب والعقاب فيها معيار أخلاقي عادل وغير متحيز والأمر الثاني هو أنها رسالة غير متعصبة لجنس أو سلالة أو ثقافة أو موقع أو حتى لغة ما بقيت وسيلة للتعبير عن الإيمان بفحوى الرسالة التي أراد الله أن تكون أساس حضارته، فهلا سارع الناس - كل الناس - إلى الانضمام إلى هذه الحضارة التي هي السبيل الأقوم للخروج من دائرة الغابية المظلمة والصراعات الدامية الدائرة والمنشطرة وظلم الإنسان للإنسان.

٢ ـ مقدمة

(أ) توظيف التراث

في الشعر العربي الحديث

توظيف التراث هو عملية مزج بين الماضي والحاضر في محاولة لتأسيس زمن ثالث منفلت من التحديد هو زمن الحقيقة في فضاء لا يطوله التغيير.

لفظة «التوظيف» مصطلح نقدي يدل تقنيات استثمار التراث في الأعمال الشعرية بغية إمداده بالأبعاد التي تنقصه، أي بإثراء قالبه الذي جمد عنده بمعاني معاصرة طيعة تقبل السفر إلى الماضي كما تقبله إلى المستقبل، أو على العكس من ذلك: إغناء هذه الأعمال الشعرية بمواقف وشخصيات تراثية تشع بالحيوية وبالشحنة الإيحائية والرمزية.

والتوظيف نوعاً من أنواع التناص، وهو اعتماد نص على آخر أو أكثر، بل إن النص ليس إلا مركزاً لتجميع النصوص السابقة، إلا أن التناص لا يكن قصره على «المناصصات» التراثية، إذ تتسع دائرة مجاله لمعانقة نصوص معاصرة. علاوة على أن توظيف التراث يتم بطريقة قصدية واعية، بينما التناص قد يتم بطريقة لا شعورية. ثم إن التناص يقتصر على علاقته بالنصوص، بينما يتجاوز التوظيف النصوص إلى الشخصيات والأعلام والأحداث التاريخية. وعلى كل حال، فتوظيف التراث معناه «استخدام معطيات التراث استخداماً فنياً إيحائياً، وتوظيفها رمزياً لحمل الأبعاد المعاصرة للرؤية الشعرية للشاعر بحيث يسقط الشاعر على معطيات التراث ملامح معاناته الخاصة، فتصبح هذه المعطيات معطيات تراثية معاصرة تعبر عن أشد هموم الشاعر المعاصر خصوصية ومعاصرة، في الوقت الذي تحمل فيه كل عراقة التراث وكل أصالته. وبهذا تغدو عناصر التراث خيوطاً أصيلة من نسيج الرؤية الشعرية المعاصرة، وليست شيئاً مقحماً أو

مفروضاً عليها من الخارج.

(ب) المزج بين الماضي والحاضر:

ينبغي أن يتحقق شرط الاحاطة بالرموز التراثية وتبين أصولها ومصادرها قبل توظيفها في شكل جديد حتى لا يسفر جهل الشاعر بتلك الأصول عن تشنج التوظيف، ومن ثم إخفاق عمليتي التوصيل والتلقي معاً. وثمة شرط آخر يطالب به الشاعر، وهو أنه بالرغم من القاسم المشترك الموجود بين المبدع والمتلقي حول الشخصية أو الموقف التراثيين، يجب عليه أن يورد تلك الشخصية أو ذلك الموقف في السياق الذي تمليه عليه تجربته الشعورية بحسب المغزى الذي يريد أن يحققه، إذ لا بد من تناول المعطى التراثي المراد بالحرية التي تجعله يخضعها لمتغيراته ولتصوراته، فينطلق من خلاله عن شواغله الفكرية والوجدانية مع الحفاظ على الحد الأدنى من تكوين هذا المعطى في أصله التراثي.

ويعتبر عز الدين إسماعيل خطأً وعيباً أي استخدام للرمز التراثي بوصفه معادلاً ومقابلاً لعقيدة أو فكرة معينة، لأن ذلك يناقض تماماً العملية النفسية المصاحبة لاستكشاف الرمز التراثي واستخدامه. ويرى أن هذا الأمر ينطبق أيضاً على توظيف الأسطورة أو الشخوص الأسطورية باعتبارها جمعاً بين الرموز المتجاوبة، «فحيثما يظهر السندباد أو سيزيف في القصيدة ينبغي أن يكون ظهورهما نابعاً من منطق السياق الشعري للقصيدة، شأنها في ذلك شأن الرموز (الشعر العربي المعاصر)». ولذلك يلاحظ على عشري زايد أن «نجاح الشاعر يقاس بمدى توفيقه في شحن الصورة بطاقة لا تنفد من الإيحاءات من ناحية، وتوظيفها لخدمة السياق من ناحية ثانية» وهو يقترح ثلاث مراحل أساسية من أجل أن تتحقق عملية التوظيف وتؤتي ثمارها، وهي كالتالي:

١ - اختيار ما يناسب تجربة الشاعر في ملامح الشخصية التراثية.

٢ - تأويل هذه الملامح تأويلاً خاصاً يلائم طبيعة التجربة.

٣ - إضفاء الأبعاد المعاصرة لتجربة الشاعر على هذه الملامح أو التعبير

عن هذه الأبعاد من خلال هذه الملامح بعد تأويلها.

(ج) تقنية التوظيف:

إن هذه المراحل من شأنها أن تحمي تقنية التوظيف ما سقطت فيه بعض التجارب التي انحصرت في إلصاق نعوت تراثية بشخصيات تراثية، أو في المقارنة بين الماضي والحاضر، حيث نجد أنفسنا أمام السرد التسجيلي للتراث دون إيماء رامز، وحينئذ تنفلت الشخصيات التراثية وتهرب بتاريخها أمام العجز عن استغلال تراثها وقدراتها الإسقاطية. وقد يتبين لنا الفرق الكبير الموجود بين التوظيف الفني للتراث في تجربتين متعارضتين، أولاهما تجنح إلى التوظيف الخاطىء انطلاقاً من تصور فرضته مراحل زمنية معينة، تحيلنا على تجارب لشعراء قدماء رددوا معطيات التراث كما وصلتهم، وعلى تجارب لشعراء معاصرين ممن يسمون بشعراء الإحياء وشعراء النهضة كالبارودي وشوقي وحافظ وعزيز أباظة، وهؤلاء انحصرت علاقتهم بالتراث في ترديد معطياته وتسجيله دون أن يكون لذلك علاقة بتجاربهم الشعورية الخاصة. وعلى تجارب لشعراء محدثين حاولوا الدخول في الممارسة الفنية للتوظيف إلا أنهم أخفقوا في إدماج معطيات التراث في صميم ممارستهم النصية. وإذا كان للشعراء القدماء وشعراء النهضة ما يشفع لهم، خاصة أن تجاربهم ارتبطت بخصوصية الزمن الذي أبدعوا فيه، فإن الفئة الثالثة تبقى محطة لوم لأنها أساءت التصرف في الخبرات المتراكمة لديها.

وجرها انبهارها وتسرعها إلى إلصاق المعطيات التراثية بنصوصها الشعرية فلم تتحقق الغاية من تلك العملية الفنية، حيث غدت تلك المعطيات نباتاً طفيلياً أو عنصراً كيماوياً لا يقبل الامتزاج بعناصرها الخاصة فصارت النتيجة هي تكرار القديم.

وثانيهما: تجنح إلى التوظيف الفني السديد انطلاقاً من تصور واعٍ يدرك الغاية المثلى من هذه العملية، حيث يحدث التّمازج التام بين المعطيات التراثية

الرامزة وبين النصوص الشعرية، فيتم الاستنبات الداخلي لتلك الرموز، ومن ثم إبداع خطاب ثالث يستند على التراث كرمز مشع بالإيحاء ويسافر في المطلق الفني لتحقيق الرؤية المعاصرة، وقد يذهب الشاعر - من هذه الفئة - مذهباً بعيداً، كأن يخفي المادة التراثية في داخل القصيدة، ومع ذلك تستجيب المادة التراثية للعين الناقدة التي تقرأ القصيدة بإمعان «بمعنى محاولة استخراج التيمة في الأسطورة وإعادة عرضها على ضوء التجربة الخاصة للشاعر، أو بعبارة أخرى، إن الأسطورة يعاد خلقها ويعاد تحليل شياتها للتحلل في بنية اللغة الشعرية وتكسب في الوقت نفسه عقلانية فنية تتجاوز بها لا عقلانيتها المنطقية كما يرى رجاء عيد.

وكتبه،

كامل محمد محمد عويضة

مصر - المنصورة - عزبة الشال

ش. جامع نصر الإسلام

(م) الشعراء والشعر فـي اللغة الأردية الباكستانية

كانت البداية المعروفة للشعر الأردي (لغة.شبه القارة الهندية الباكستانية المشتركة) منذ ١٤٥٠م، واشتهر مئات الشعراء، نعرض هنا إجمال أسماء وحياة ونماذج من الشعر لمئة وخمسين، لنلقي الضوء الكامل على الشعر في شبه القارة التي يقطنها أكثر من ستمائة مليون من السكان. وما كانوا أبناء مقاطعة واحدة من شتات الأقاليم الشاسعة المتنائية.

ومن درس الشعر بهذه اللغة عرف أن أولئك الشعراء وإن اختلفت نحلهم ومذاهبهم وعقائدهم وأديانهم، ولكن قد كانت هنالك خصائص عامة تجمعهم جميعاً وتوحد بينهم. وكان ثمة ثقافة مشتركة من كل شبه القارة، مع أن لكل إقليم لغته الخاصة، ولكن الأردية قد كانت هي اللغة الجامعة التي تلتقي عندها الأقاليم كلها.

ولكل شاعر ديوان أو أكثر، من هذه المصنفات نقدم نماذج، نعدها كالقطرة من البحر الخضم، أو زهرة من روض حافل بالآف من الورود والأزهار.

ونحن فيما نقدم من هذه النماذج غير مرتبطين بترتيب تاريخي:

١ - ميرزا أسد الله خان غالب (١٧٩٧ - ١٨٦٩).

هو نجل عبدالله بيك خان، ولد في مدينة آكره التي فيها مقبرة تاج محل الشهيرة، وتزوج في سن ثلاث عشرة سنة من كريمة نواب آلهي‌نجش، وكان هو أيضاً شاعراً وتخلصه (معروف) وكان أصله من دهلي عاصمة الهند، وكثر تردد غالب إلى صهره هذا في دهلي بعد إتمام القرآن؛ وما زال حتى استقر به المقام فيها.

وقد تعلم الفارسية وأتقنها في سن مبكرة، وكان في حياة مرفهة أتاحت له الفراغ للتفكير والتأمل والاستغراق في أحلام العشق الذي خلق منه شاعراً مبدعاً. فنظم القصائد وهو ناشيء، ولم يكن راوية لشاعر ولا تلميذ لأديب، وإنما هي الخبرة والاطلاع اعتمد على الطريقة والفطرة الموهوبة، عاش حياة البذخ والترف، لم يخضع لسلطان الوظيفة وقيودها.

وقد كلفه «بهادر شاه ظفر» آخر امبراطور المغولي تصنيف كتاب في تاريخ تيموريين وملوكهم وآثارهم، ولم يغادر الهند ودهلي إلا إلى مدينة كلكوته في إحدى القضايا، ثم إلى مدينة دامبور.

يعد من أكبر شعراء الأردية، المشار إليهم بالبنان، وقد صنفت كتب عديدة في أدبه وتحليل قصائده وأشعاره، وله عدة كتب مطبوعة بين شعر ونثر في اللغتين الأردية والفارسية.

بعض نماذج شعره: (أ):

١ - لم يكن من حظنا أن نحظى بقرب الحبيب على طول ما قضينا من العمر، ومهما قدّر لنا من البقاء فلن نحظى بغير الانتظار.

٢ - تظن أننا عشنا على وعدك فلا تصدق ولا تتصوره، فلو أننا قد كنا وثقنا بموعدك لأماتتنا شدة الفرح والسرور.

٣ - هذه الخطرات الصوفية في روعة بيانك يا غالب، لقد كدنا نظنك وليّاً في مقام الولاية، لو لم تكن مزمناً على الراح صبوحاً وغبوقاً.

(ب) :

(١) إن الألم لم يتحمل منه الدواء، وكان حسناً أنني بقيت عليلاً.

(٢) لقد قدمت روحي ضحية لبارئها، ولم تكن إلا هبة منه، ولهذا فإني لم أقم بشيء من عندي، لأني قد أعطيته ما أعطاني.

١ - حياة القطرة فناؤها في البحر، وعندما تبلغ حدة المرض نهايتها،

فحينئذٍ يبدأ الشفاء ويصبح الداء عين الدواء.

٢ لقد صرت محروماً حتى من الجفاء، فهل صرت إلى هذا الحد عدواً لأرباب الوفاء.

(د):

١ - إن الذي تسترسل سوالفك على ساعديه فالنوم نومه، والرأس رأسه، والليالي لياليه فقط.

٢ - نحن موحدون، وعقيدتنا ترك العادات، وحين محيت الفرق والنحل صارت أجزاء للإيمان.

(هـ):

١ - تعودوا الألم يزيل الألم، لقد تزحمت علي المشكلات والمصائب، حتى سهل صعبها وهان خطبها.

(و):

١ - أيها القلب الواله ما أصابك، وما نهاية هذه المحنة.

٢ - نحن في شوق وهو ملول، آلهي ما عسى أن يكون هذا؟

٣ - نحن نرجو الوفاء ممن لا يدري قيمة الوفاء.

(ز):

١ - جاء هذا العظيم إلى دارنا هذه الصغيرة، فكان عجيباً في قدرة الله أن ننظر مرة إلى حضرة الكبير، ومرة إلى دارنا الصغيرة.

(ح):

١ - النقش يصيح بوجود من؟ وهو تحرير من؟ ولكن قميص كل صورة من الورق، فكل مخلوق هدف للفناء.

٢ - يخاف من عضة الكلب من الماء أيها الأسد (غالب) وكذلك أخاف أنا من المرآة، لأن الذي عضني هو ليس بكلب بل هو إنسان.

الشيخ محمد إبراهيم ذوق ابن الشيخ محمد رمضاني(١٧٨٩ - ١٨٥٤)
ولد في دهلي، وكان تلميذاً للشاعر «شاه نصير» ثم قامت بينهما حرب تولى الشعر فيها حمل السلاح.

وكان تلميذه المقدم «بهادر شاه ظفر» آخر أباطرة المغول الذي لقبه «خاقاني الهند» تيمناً باسم خاقان الشاعر الايراني الكبير، وقام بينه وبين الميرزا غالب مساجلات شعرية، وقد ضاعت مجموعة أشعاره في حرب الحرية سنة ١٨٥٧ ضد الاستعمار الإنكليزي.

وجمع تلميذه الوفي «محمد حسين آزاد» ديوان شعره بعد ذلك، ومن شعره:

(أ):

١ - انظر إلى البشر مع عجزه ومسكنته وضعفه، ثم انظر إلى كبريائه وغروره، من يدري ماذا كان يصنع لو أعطاه الله قدرة فوق ذلك؟

٢ - لو قتلت أيها الظالم ضعيفاً مسكيناً، فإنك لم تصنع شيئاً لأنك قتلت ميتاً.

٣ - فلو قتلت النفس الأمارة، فقد قتلت مؤذياً عدواً جباراً، ولو قتلت تمساحاً وثعباناً وأسداً، فأنك لم تصنع شيئاً أبداً.

٤ - كل قاتل يناضل بالسلاح، فما بال حبيبي يقتلني بلا سهم.

٥ - طرد الشيطان لأنه لم يسجد برفضه سجدة واحدة، ولو أنه أدى ملايين سجدات في مئات السنين، فماذا كان جدوى هذه السجدات، يعني عدم الطاعة يضيع على العاصي آلاف العبادات.

(ب) :

١ - جاءت بنا الحياة فجئنا، وذهب بنا القدر فذهبنا، فما جئنا برأينا ورضانا، وما ذهبنا برغبتنا.

(ج):

١ ـ لا غاية لنا من أهل الثراء والغنى، مهما تكن لهم من بطش وسلطان، ولست عبداً لهؤلاء، بل أنا عبد لمن يملك رأس مال المحبة.

٢ ـ لو ذهب أصحاب حرقة المحبة إلى الجنة، فهم بنار عشقهم يحولون الجنة إلى نار جهنم.

خواجه حيدر علي اتش بن خواجه علي نجش (١٧٧٦ خ١٨٤٦) ولد في مدينة «فيض آباد» ثم انتقل إلى الكناؤ وتتلمذ على الشاعر الشهير «مصحفي» وكانت أسرته متصوفة، ولم يمدح أحداً من الملوك، ولا عظيماً، فعاش طول حياته متقشفاً، ومن شعره:

(أ):

١ ـ ذكر الحبيب يُنسي ذكر العالمين، وحبه يغير جميع المشاعر.

٢ ـ هو ليس بيوسف الذي يشترى بدراهم معدودة، بل أن من عربون ثمنه يدفع ثمن الدارين.

(ب) :

١ ـ قوام الفقر ودعامته أغلى وأرفع من الملوكية، فعلى ما أبقي عرش سليمان وأدع الحصير؟

٢ ـ راحة الدنيا أذهبتها أحزان العشق، فلماذا ألتمس الورد الباسم بدلاً من الجراح الموردة؟

بهادر شاه ظفر (١٧٧٥ ـ ١٨٦٢) وكان آخر أباطرة المغول بالهند، واسم أبيه «أكبر شاه الثاني» ومنذ جده «عالم شاه» لم تبق لهم من الحكم غير السلطة الاسمية، وكانت مظاهر الحكم في القلعة الحمراء بدهلي، تقام فيها الحفلات العلمية وندوات الشعر، ويختصر الأمر في الحكم على هذه المظاهر، حيث كان الإنكليز هم مسيطرين، تتملذ بهادر شاه على الشاعر «شاه نصير» أولاً، ثم تتلمذ على الشاعر «ذوق» وكان سهل الأسلوب واضح العبارة، كتب في جميع أنواع

الغزل، وكان يختار البحور الطويلة (التفاعيل) وله ديوان مطبوع، واختير قائداً عاماً لحرب الحرية من عام ١٨٥٧، ثم نفي إلى مدينة ربخون عاصمة بورما. ومات هنالك وحيداً وقبره معروف ومن شعره:

(أ):

١ - ليتك إذا لم تجعلني في عرش ملك جدير بالمجد، كنت خلقتني في متربة الفقر والمسكنة.

٢ - ليتني صورتني مجنوناً لك، ولم جعلتني أسيراً في عذاب بالعقل.

٣ - إذا كنت خلقتني للتواضع فليتني خلقتني تراب عتبة المحبوب.

٤ - إذا لم يكن بد من الاحتراق من البعد عن الساقي فليتني خلقتني سراجاً على باب الحانه.

(ب) :

١ - قلبي لا يطمئن ولا يهدأ في هذه الديار الخربة، من استطاع أن يكون بينه وبين العالم الفاني الزائل وئام وانسجام

(فتى يستقرُّ الفُؤادُ الْمعنّى وهلْ يطمئنُّ غريبُ الدِّيَار
وهل يثقُ المرءُ في عالمٍ قريب الزَّوَال سَريعُ الدَّمَار)

٢ - قد استعرنا عمراً طويلاً وكان أربعة أيام، فقد انقضى منها يومان في التمني، ويومانِ في انتظار:

حيَاتِي أيَّامُهَا أَرْبَع تَقْضِي بِهَا عُمْرِي الْمُسْتعَارِ
فَيَوْمَان قَدْ ذَهبَا في التَّمني ويومَان قد مَضِيَا في انْتظَار

٣ - ما أتعس هذا المخلوق المسمى بظفر الذي لم يكن من نصيبه ذراعان من الأرض ليدفن بها في وطنه (وبهذا تنبأ بقبر غريب في مدينة ربخون عاصمة بورما).

(وَفي غَيْر أَرْض بلادِي وقومي علَى كؤوسِ المنَايَا تُدَار

غريبُ الحيَاة، غريبُ المَمَات   بعيداً وحيداً غريب المَزار

النواب ميرزاخان داغ (١٨٣١ - ١٩٠٥) هو نجل النواب شمس الدين أحمد خان، شيخ قبيلة لوهارو، ولد في دهلي، وربي في القلعة الحمراء، حيث كانت تنشأ الأجيال الراقية من الطبقة العليا، ذهب إلى حيدر آباد الدكن سنة ١٨٨٨، حيث كان أستاذاً للنظام السادس «محبوب علي خان آصفجاه» وقد نال عدة ألقاب من الدولة على سبيل التكريم، وله عدة دواوين مطبوعة باسم «كلزر داغ، وآفتاب داغ، وفرياد داغ، ومهتاب داغ، ويادكا داغ» من شعره:

(أ) :

١ - لقد طار الوفاء من الزمن كأن لم يكن قد عرفه أحد في هذه الدنيا.

٢ - كيف أعطيك الروح، وأنا أعلم أنك ما أخذت شيئاً ورددته.

٣ - كيف أبين لك لطف الراح أيها الزاهد، لأنك بسوء حظك لم تذوقها طول عمرك، ومن ذاق عرف.

(ب) :

١ - من يضع قدمه في طريق العشق لا يبالي بارتفاع أو انحدار.

٢ - ما دام الخضر لم يستشهد فلن يعرف ما للعمر الطويل من قدر وقيمة.

٣ - سلوا الشاربين عن لطف الراح، فإن هذا لن يعرفه المتطهرون.

(ج):

١ - اشرب الخمر أيها الزاهد، فإن توبتك تقبل، لأن العذاب لا يقع الآن، والقيامة لم تأت بعد.

الشاعر أنيس:

رباعي (أ) : يجب أن يبقى ماء وجوهنا تجاه المحبوب، وعلينا أن لا نذل أمام الملوك والفقراء.

(نحنُ بالإيمانِ نَبني مَجْدَنَا ونحيلُ الأرضَ بالمجدِ سماءا
أبداً هَامَاتُنَا عَالِيَة لاَ تُبَالي سُوقَة أَوْ أمراءا)

٢ - لم أمضِ إلى القبر مقنعاً مخفياً وجهي، فقد طردت من المحفل الحاشد.

٣ - إن مشت هذه الأرجل فيكون سيرها في سبيل الله، وإن ارتفعت هذه الأكف فلا ترتفع إلا ضراعة ودعاء لله،

(إن مشت أقدامنا سارت بنا في سبيل الله سعياً ومضاءا
أو رفعنا مرة أيدينا فإلى الله رجاء ودعاء)

رباعي - أنا وجدنا هذا العالم نزلاً فانياً عجيباً، فكل ما في هذا العالم يأتي ويمضي إلى غير رجعة، والشيء الذي جاء ولا يريد الذهاب فذاك مشيب، والذي مضى ولا يريد أن يعود فذاك هو شباب.

رباعي - «ذلك الذي يعطي من الله منزلة عظيمة بين الناس يكون من شأنه أن يفسح في قلبه مكاناً للتواضع، لا يثني على نفسه إلا من كان خاوي الرأس، فالإناء الفارغ يكون كثير الرنين».

رباعي - «ما قيمة هذه الأرض أمام السماء؟ يخضع الأقوياء أمام الضعفاء أيضاً، يمكن أن تخضع باللين الجبابرة قساة القلوب، اللسان اللين اصطفت أمامه الأسنان الصلبة».

الشاعر دبير:

رباعي - «إني أتيت إليك طامعاً في رحمتك، وجئت خجلاً مخفياً وجهي بالكفن، لم يتركني عبء الذنوب لأسير على قدمي، فجئت محمولاً على أكتاف الناس في التابوت».

الشاعر حالي:

رباعي - «كل قلب تحزه شوكة من هيبتك، وفي كل أذن حلقة العبودية

معلقة، فذلك الذي لم يعترف بألوهيتك لا شك أنه عرفك برغم أنفه، فالقلب الذي ضل عن سواء السبيل لا زلت موجوداً في دقة من دقاته».

٢ ـ اعتبر هذه الدنيا على الدوام نقشاً زائلاً، واعتبر تاريخ العالم مجرد الرواية، ولكن حينئذٍ تعتزم أمراً عظيماً، فاعتبر كل نفس من أنفاسك عمراً خالداً بغير فناء».

٣ ـ سأل الكليم ربه مرة آلهي من الذي هو أكثر الناس قبولاً عندك من سواه؟ قال الله ذلك الذي في إمكانه الانتقام من خصمه ولم ينتقم».

الشاعر أكبر آله آبادي:

رباعي ـ «عليكم أن تتعلموا التزين بخير الأعمال وأن ترجوا من الله رجاء حسناً، يا أكبر: ما دام لا مفر من الموت، فيحسن بك أن تتعلم الموت وأنت جذلان».

٢ ـ إذا كان جيبك خالياً من الذهب فإنك لا تجد الراحة، وإذا انعدمت القوة من سواعدك فلن تجد لنفسك احتراماً بين الناس، وإذا لم يكن لديك علم فلا يجديك الذهب والقوة، وإذا تجردت من الدين فإنك مجرد من إنسانيتك.

٣ ـ يحسن للإنسان أن لا يعمل شيئاً من أن يعمل شيئاً يضره، قد بلغ إلى مسامع أكبر من ذوي الحمية، إذا كان في الحياة هوان وذل، فالموت خير من تلك الحياة.

٤ ـ ما أبعد وأصعب أن يكون كل عمل أمام المرء سهلاً ميسراً حتى أنه لمن الصعوبة بمكان أن يكون كل آدمي إنساناً.

٥ ـ ما أعظم ما ينشط إليه الحرص والطمع لبلوغ الأماني والآمال، ولكن لولا الموت لم يكن من قيمة ولا متعة للحياة، فإن قصر العمر يدفع إلى العمل تحقيق الرغبات.

٦ ـ حين لم يكن شيء كان الله موجوداً، وحين لا يكون شيء في المستقبل فثمة يكون الله، لقد أضاعني وجودي وقدومي إلى هذه الحياة فإذا لم

أكن قد وجدت فمن ذا الذي سيكون؟

الشاعر فاني:

قد رأينا العمران وجربنا الخرائب، ولكن القلب إذا تخرب بنيانه فلن يعود عمرانه.

من السّهل أن يخرب القلب، ومن الصعب أن يعود بنيانه.

شير حسين جوش:

من فطرة الناس أن يجعلوا من كل نفس فتنة حمراء، وفي إمكانهم أن يشوهوا وجوه الأخلاق والقيم، أولئك المعدمون الذين يحصون أمامك سيئات الأغنياء لو وجدوا هم فرصة ونالوا ثراء، لأحدثوا قيامة لم يعملوا ما يعمل المترفون.

أمجد حيدر آبادي:

١ - سواء أكان العمر يوماً أو مائة عام فإنه سيمضي،

سواء أكان على الكتف غطاء أو شال فكلاهما سواء.

٢ - إن مر عمر الأغنياء في نعيم ورفاء، فسيمضي كذلك عمر الفقراء المساكين.

٣ - في القبر سواء من كان يجلس على العرش ومن أقام في الأكواخ، وعندما أغمضت العين، فالقبيح والجميل سواء.

٤ - في البطن الطعام الدسم وخبز الشعير سواء، وإذا غلب النوم فالفراش الناعم والأرض سواء،

٥ - القلب لا يريد الموت، ولكن ما من مفر من القضاء، إن لم يتوفر خوف الله إيماناً، فلن يمر الملحد من رهبة الموت.

٦ - لا بد من أن يملأ قعر البطن ولو من حجر أو طين، ولا بد من قضاء الحياة في قصر أو كوخ.

١٣ - الأشعار المختلفة:

١ - إن كان ما أتمنى منك جرماً، فما أشد شوقي إلى عقاب هذا الجرم.

٢ - إنه ذو جمال، فيحق له الجفاء والدلال، أما أنا عبد للحسن فعلي الصبر والوفاء.

٣ - أنا الذي وجهته ليرى جمال ذاته، فماذا جنيت حين أظهرت أمنيتي فكشفت عن قيمة جماله.

٤ - قبل عشقك كان يقال: إني على قيد الحياة، والحقيقة أني منذ عرفتك فهناك بدأ عمري.

٥ - إلى الآن بقيت أمنية فقد الأمل، فكيف أصدق بأنه لا توجد لي أمنية؟

٤ ـ الشعر الأردي

كما يفخر الفرس بأن الفردوسي نظم في «الشاهنامة» ستين ألف بيت، تفخر الأردية، بأن فيها دواوين تماثل «الشاهنامة» حجماً، فهناك شعراء مثل أنيس ودبير وتعشق، قالوا مرثيات تحوي خمسمائة مسدس، أو ستمائة مسدس، وكل مسدس منها يحوي ثلاثة أبيات. واللغة الأردية بعد هذا لغة استوعبت كل المعاني والأوصاف الجميلة، وعلم الفلسفة والتصوف، وقيل فيها شعر المراثي والتشبيب والغزل، كما ألف بها القصص والروايات.

وقد ظهر من أدباء هذه اللغة رجال فحول، أمثال محمد حسين ازاد، وشبلي نعماني، وآغا شحر كشميري، والأستاذ رسوا، وعبد الحليم شدر، وأختر علي، وسبط حسن وابن حسين تونهروي، وأحمد علي أمر تسري، ونياز فتحبوى، وقيس غازبيوري وأبو الكلام أزاد، وسيروجني نأدو، وحسرت موهاني، وحسن نظامي، وجوش مليح أبادي وغيرهم.

٥ ــ بعض الشعراء في اللغة الأردية

كانت البداية المعروفة للشعر الأردي منذ سنة ١٤٥٠ م، واشتهر مئات الشعراء، نعرض أسماء بعضهم لإلقاء الضوء على الشعر في شبه القارة الباكستانية الهندية التي يقطنها (سنة ١٩٦٦) أكثر من خمسمائة وخمسين مليوناً من السكان، وهؤلاء ليسوا أبنا مقاطعة واحدة، بل من شتات الأقاليم الشاسعة المتنائية، ومن درس الشعر بهذه اللغة عرف أن أولئك الشعراء ـ وإن اختلفت عقائدهم وأديانهم ـ كانت هنالك خصائص تجمعهم جميعاً، وتوحد بينهم، وكانت ثمة ثقافة مشتركة في كل شبه القارة، ومع أن لكل أقليم لغته الخاصة، ولكن الأردية هي اللغة الجامعة التي تلتقي عندها الأقاليم كلها، ولكل شاعر ديوان أو أكثر شعرائهم.

ميرزا أسد الله خان غالب (١٧٩٧ ـ ١٨٦٩) نجل عبد الله بيك خان، ولد في مدينة أكره (التي فيها مقبرة تاج محل الشهير) وتعلم الفارسية واتقنها في سن مبكرة، وكان في حياة مرفهة. ويعد من أكبر شعراء الأردية، المشار إليهم بالبنان، وقد صنف كتب عديدة في أدبه وتحليل أشعاره، وله عدة كتب مطبوعة بين شعر ونثر، في اللغتين الأردية والفارسية.

٦ ــ بعض نماذج الشعر الأردي

١ ــ بعض نماذج شعر غالب (أسد الله خان):

(أ) تظن أننا عشنا على وعدك فلا تصدق ولا تتصوره فلو أننا قد كنا وثقنا بوعدك لأماتتنا شدة الفرح والسرور.

(ب) :«لقد قدمت روحي ضحية لبارئها، ولم تكن إلا هبة منه، ولهذا فإني لم

أقم بشيء من عندي، لأني قد أعطيته ما أعطاني».

(ج):«حياة القطرة فناؤها في البحر، وعندما تبلغ حدة المرض نهايتها، فحينئذٍ يبدأ الشفاء، ويصبح الداء عين الدواء».

(د):«لقد صرت محروماً حتى من الجفاء، فهل صرت إلى هذا الحد عدواً لأرباب الوفاء؟».

(هـ): «إن الذي تسترسل سوالفك على ساعديه، فالنوم نومه، والرأس رأسه، والليالي لياليه فقط».

(و): «نحن موحدون، وعقيدتنا ترك العادات، وحين مُحيت الفرق والنحل صارت أجزاء للإيمان».

(ز): «تعود الألم يزيل الألم، لقد تزاحمت علي المشكلات والمصائب حتى سهل صعبها وهان خطبها».

(ح): «يخاف من عضة الكلب من الماء أيها الأسد (اسم الشاعر) وكذلك أخاف أنا من المرآة، لأن الذي عضني هو ليس بكلب بل هو إنسان».

٢ ـــ بعض نماذج شعر ذوق (الشيخ محمد إبراهيم أستاذ الأمبراطور ظفر):

(أ) : «انظر إلى البشر مع عجزه ومسكنته وضعفه، ثم انظر إلى كبريائه وغروره، من يدري ماذا يصنع لو أعطاه الله قدرة فوق ذلك».

(ب) : «لو قتلت أيها الظالم ضعيفاً مسكيناً فإنك لم تصنع شيئاً، لأنك قتلت ميتاً، فلو قتلت النفس الأمارة فقد قتلت مؤذياً عدواً جباراً، ولو قتلت تمساحاً وثعباناً وأسداً فإنك لم تصنع شيئاً».

(ج): «جاءت بنا الحياة فجئنا، وذهب بنا القدر فذهبنا، فما جئنا برأينا ورضانا، وما ذهبنا برغبتنا».

(د): «لو ذهب أصحاب حرقة المحبة إلى الجنة، فهم بنار عشقهم يحولون الجنة إلى النار».

٣ ــ بعض نماذج شعر اتش (خواجه حيدر علي):

(أ) : «ذكر الحبيب يُنسي ذكر العالمين، وحبه يغير جميع المشاعر، هو ليس بيوسف الذي يشترى بدراهم معدودة، بل أن من عربون ثمنه يدفع ثمن الدارين».

(ب) : «قوام الفقر أغلى وأرفع من الملوكية، فعلى ما أبغي عرش سلمان وأدع الحصير؟».

(ج): «راحة الدنيا أذهبتها أحزان العشق، فلماذا ألتمس الورد الباسم بدلاً من الجراح الموردة؟».

٤ ــ بعض نماذج شعر ظفر (بهادر شاه آخر أباطرة المغول بالهند):

(أ) : «ليتك إذ لم تجعلني في عرش ملك جدير بالمجد، كنت خلقتني في متربة الفقر والمسكنة».

(ب) : «إذا كنت خلقتني للتواضع، فليتني خلقت تراب عتبة المحبوب».

(ج): «قد استعرنا عمراً طويلاً، فكان أربعة أيام، فقد انقضى منها يومان، في التمني، ويومان في انتظار».

٥ ــ بعض نماذج شعر داغ (النواب ميرزخان):

(أ) : «لقد طار الوفاء من الزمن، كأن لم يكن قد عرفه أحد من هذه الدنيا».

(ب) : «كيف أبين لك لطف الراح أيها الزاهد، لأنك بسوء حظك لم تتذوقها طول عمرك، ومن ذاق عرف».

(ج): «من يضع قدمه في طريق العشق لا يبالي بارتفاع أو انحدار».

(د): «ما دام الخضر لم يستشهد، فلن يعرف ما للعمر الطويل من قدر وقيمة».

هـ): «سلوا الشاربين عن لطف الراح، فإن هذا لن يعرفه المتطهرون».
(و): «إشرب الخمر أيها الزاهد، فإن توبتك تقبل، لأن العذاب لا يقع الآن، والقيامة لم تأت بعد».

٦ ــ نماذج الأشعار المختلفة:

(أ) : «إنه ذو جمال، فيحق له الجفاء والدلال، أما أنا عبد للحسن، فعلي الصبر والوفاء».

(ب) : «أنا الذي وجهته ليرى جمال ذاته، ماذا جنيت حين أظهرت أمنيتي، فكشفت عن قيمة جماله».

(ج): «قبل عشقك كان يقال: إني على قيد الحياة، والحقيقة أني منذ عرفتك فهناك بدأ عمري».

(د): «إلى الآن بقيت أمنية فقد الأمل، فكيف أصدق بأنه لا توجد لي أمنية».

٧ ــ شعر أمجد حيدر ابادي:

«سواء كان العمر يوماً أو مائة عام، فإنه سيمضي سواء أكان على الكشف غطاء أو شال، فكلاهما سواء، إن مر عمر الأغنياء في نعيم ورخاء، فسيمضي كذلك عمر الفقراء المساكين.

في القبر سواء من كان يجلس على العرش، ومن أقام في الأكواخ، وعندما أغمضت العين، فالقبيح والجميل سواء.

في البطن، الطعام الدسم وخبز الشعير سواء، وإذا غلب النوم فالفراش الناعم والأرض سواء.

القلب لا يريد الموت، ولكن ما من مفر من القضاء، إن لم يتوفر خوف الموت إيماناً، فلن يمر الملحد من رهبة الموت. لا بد من أن يملأ قعر البطن، ولو

من حجر أو طين، ولا بد من قضاء الحياة في قصر أو كوخ.

٨ ــ نماذج شعر أنيس:

(أ): «يجب أن يبقى ماء وجوهنا تجاه المحبوب، وعلينا أن لا نذل أمام الملوك والفقراء».

(ب) : «ما قيمة هذه الأرض أمام السماء، يخضع الأقوياء أمام الضعفاء أيضاً، يمكن تخضع باللين الجبابرة القساة القلوب، فاللسان اللين اصطفت أمامه الأسنان الصلبة».

٩ ــ نموذج شعر دبير:

(أ): «إني أتيت طامعاً في رحمتك، وجئت خجلاً مخفياً وجهي بالكفن، لم يتركني عبء الذنوب لأسير على قدمي، فجئت محمولاً على أكتاف الناس في التابوت».

١٠ ــ نموذج شعر حالي:

(أ) : اعتبر هذه الدنيا على الدوام نقشاً زائلاً، واعتبر تاريخ العالم مجرد الرواية ولكن حينئذٍ تعتزم أمراً عظيماً، فاعتبر كل نفس من أنفاسك عمراً خالداً بغير فناء.

(ب) : «سأل الكليم (موسى) ربه مرة آلهي من الذي هو أكثر الناس قبولاً عندك من سواه؟ قال الله: ذلك العبد الذي في إمكانه أن ينتقم لإساءة من خصمه ولكن لم ينتقم».

(ج): «إن مشت هذه الأرجل فيكون سيرها في سبيل الله، وإن ارتفعت هذه الأكف فلا ترتفع إلا ضراعة ودعاء لله».

(د): «إنا وجدنا هذا العالم نزلاً فانياً عجيباً، فكل ما في هذا العالم يأتي ويمضي إلى غير رجعة، والشيء الذي جاء ولا يريد الذهاب، فذاك مشيب، والذي مضى لا يريد أن يعود فذاك هو شباب».

١١ ــ نموذج شعر أكبر:

(أ) : «عليكم أن تتعلموا التزين بخير الأعمال، وأن ترجوا من الله رجاء حسناً».

«يا أكبر! ما دام لا مفر من الموت، فيحسن بك أن تتعلم الموت، وأنت جذلان».

(ب) : «إذا كان جيبك خالياً من الذهب، فإنك لا تجد الراحة، وإذا انعدمت القوة من سواعدك لا تجد لنفسك احتراماً بين الناس، وإذا لم يكن لديك علم، فلا يجديك الذهب والقوة، وإذا تجردت من الدين، فإنك مجرد من إنسانيتك».

(د): «يحسن بالإنسان أن يتوجع ويئن من استرسال في ضحك السفهاء، خير للإنسان أن لا يعمل شيئاً من أن يعمل شيئاً يضر، وقد بلغ إلى مسامع «أكبر» من ذوي الحمية، وإذا كان في الحياة هوان وذل، فالموت خير من تلك الحياة».

١٢ ــ نموذج شعر جوش:

«في فطرة الناس أن يجعلوا من كل نفس فتنة حمراء، وفي إمكانهم أن يشوهوا وجوه الأخلاق والقيم، أولئك الذين يحصون أمامك سيئات الأغنياء، لو وجدوا هم فرصة، ونالوا ثراء لأحدثوا قيامة وعملوا ما لم يعمل المترفون».

١٣ ــ نماذج الأشعار المختلفة:

(أ) : «ما أعظم ما ينشط إليه الحرص والطمع لبلوغ الأماني والآمال، لكن لولا الموت لم يكن من قيمة ولا متعة للحياة، فإن قصر العمر يدفع إلى العمل لتحقيق الرغبات».

(ب) : «حين لم أكن شيئاً كان الله موجوداً، وحين لا يكون شيء في المستقبل فثمة يكون الله، فلقد أضاعني وجودي وقدومي إلى هذه الحياة، فإذا لم أكن قد وجدت فمن ذا الذي سيكون».

(ج)): «عندما أقف غداً للحساب، وأسأل عن ذنوبي، أقول يا ربي، امنحني ثواباً

عن ذنوب كثيرة تمنيتها ولم ارتكبها».

«قد رأينا العمران وجربنا الخراب، ولكن القلب إذا تخرب بنيانه فلن يعود عمرانه، فمن السهل أن يخرب قلب، ومن الصعب أن يُعاد بناؤه».

١٤ ـ نماذج شعر إقبال:

(أ):قد نشرنا ترجمة أشعار إقبال في عام ١٩٥٠ باسم فلسفة إقبال الإسلامية بواسطة ناشر من القاهرة.

٧ ـ إقبال شاعر الباكستان

كان مولد الدكتور العبقري محمد إقبال سنة ١٨٧٦ من أسرة برهمية الأصل، اعتنقت الإسلام منذ ثلاثة قرون وهاجرت من كشمير أمام الحوادث إلى البنجاب، حيث استقرت بها آمنة مطمئنة، وبدأ مراحل تعليمه فبدت عليه مخايل النبوغ ودلائل الذكاء، فكان يتفوق على لذاته ويسبق أقرانه ويفوز بالجوائز العلمية في الكلية بلاهور. حيث تلقى بها الفلسفة على السير توماس أرنولد، الذي كان دائم الإعجاب والافتخار بتلميذه إقبال، ولما أكمل دراسته وقع عليه الاختيار لتدريس الفلسفة بالكلية نفسها.

أما الشعر فقد أنشد إقبال بواكيره الأولى في سن مبكرة، وكان لسان تعبيره وريشة تصويره والمنبر الذين أعلن من فوقه رسالته الأدبية والمذياع الذي أرسل منه حكمته الإسلامية. والشعر كما يحدثنا عنه الشاعر صفي اللكنوي، هو إبراز مكنونات العواطف القلبية فإن القلب إذا لم يكن عامراً بهذه العواطف كان الشعر المنظوم عديم الجدوى. فالإنسان لم يفضل الحيوان بالعقل الذي هو مصدر المعرفة بل بالوجدان الذي هو مبعث الشعور والإيمان، فإن الجذبات والمشاعر والعواطف هي النقطة الرئيسية الفاصلة الحاسمة في ميزات الإنسان،

وعندما تتمثل هذه المشاعر والعواطف ألفاظاً تكون هي الشعر. ولما انفرد به إقبال من المشاعر والأحاسيس الفياضة من نظمه ارتجى منه الأدباء شاعراً كبيراً.

وفي سنة ١٩٠٥ سافر إلى كمبردج ثم إلى ميونخ، ونال درجة الدكتوراه في الفلسفة وقد استغل زمن إقامته بأوروبا، فأدى ما رآه لزاماً عليه نحو دينه، ودافع عنه وجاهد في سبيله، مظهراً مزايا الإسلام، مُفنداً أراجيف خصومه. وألقى عن الإسلام عدة محاضرات في إنجلترا، ثم عاد إلى الهند سنة ١٩٠٨ فأحسن القوم استقباله، وقد توسموا فيه الخير لأمته ودينه، ومن ثم جرد قلمه ووقف بيانه وتفكيره وشعوره لإعلاء منار الإسلام، ولقد سأله العالم الجليل السيد سليمان الندوي تلميذه العلامة شبلي نعماني يوماً أثناء زيارة إقبال لكابل، بدعوة من جلالة نادر شاه ملك الأفغان عن سر بلاغته التي اكتشف بها أسرار الدين ومعالم الحق، ووصل بها إلى أساليب من التعبير قل أن يصل إليها أهل الفقه والعلم وغيرهم من القائمين على أمر الهداية والتوجيه؟ فقال إقبال: «يرجع الفضل في كل ما أنشأته من شعر أو نثر إلى توجيهات أبي رحمه الله، فقد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح، وكان يراني والدي فيسألني ماذا أصنع؟ فأجيبه جوابي، وفي ذات صباح قلت له بعد إجابتي، ولكن لماذا تسألني عن شيء أنت بجوابه عليم؟ فقال: «إنما أردت أن أقول لك، إقرأ القرآن كأنه نزل عليك» ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت».

هذا ولما عاد إقبال من أوروبا إلى لاهور، امتهن المحاماة وقدم العون لبني ملته في الكثير من شؤونهم العامة، فازداد مكانة في النفوس، وتمكيناً في السياسية والأدب. حتى تخطى صيته ربوع الهند. ثم والى بعد ذلك رحلاته إلى مختلف بلدان المشرق والمغرب مما سنذكر عنه شيئاً فيما بعد.

كان إقبال ينشد الشعر بالأردية والفارسية وكانت الصحف تنشر له كثيراً مما ينشده في المجامع والمحافل وقد جمع إقبال من أشعاره ديواناً أسماه

«بانك درا» صلصلة الجرس، وقد نشر غير هذا الديوان عدة كتب، منها أسرار خودي، ورموزب خودي. (أسرار الذاتية ورموز الذاتية) وكذلك بيام مشرق وزبور عجم، وجاويد نامه. وجميعها باللغة الفارسية، وبال جبريل وضرب كليم، وديوان بانك دار، باللغة الأدرية، وقد وافته منيته وهو ينظم كتابه (أرمغان حجاز) ونصفه بالفارسية والنصف الأخر بالأردية، وقد طبع هذا الكتاب بعد وفاته.

وقد ضمن منظومات مناحي كثيرة من فلسفته وتفكيره وعواطفه، تناول فيها العالم والإسلام والأخلاق، محاولاً إيقاظ الشعور وإشعال الحماسة في قلوب المسلمين خاصة والشرقيين عامة، وفي ذلك يقول أحد زعماء الهنادك:

«إن إقبالاً قد وضع المصباح على باب المسلم ولم يحجب نوره من غير المسلمين بل أمكن للجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح».

ولقد كتب منظومته جاويد نامه على صورة رحلة قابل فيها ملوك الشرق ومفكري المسلمين وقد أطلق عليها اسم أصغر أنجاله وكان يهدف بذلك إلى بناء جيل جديد. وقد أودع هذا الكتاب بيام مشرق أيضاً حقيقة آرائه ومذاهبه عن الحياة ومناحي خياله وفنه في الأدب وكان بيام مشرق هذا جواباً ورداً على ديوان الشاعر الألماني جوته وقد كتب عنوانه «ولله المشرق والمغرب» وقسمه إلى أربعة أبواب:

- القسم الأول:

شقائق الطور (لإله طور) وهو ١٦٣ رباعية.

- القسم الثاني:

أفكار وهو حوار بين آدم وإبليس أوضح فيه الكثير عن تسخير الفطرة وفضل الربيع والحياة الخالدة إلى غير ذلك من المحاورات الفنية.

- القسم الثالث:

(الخمر الباقية) (مىء باتي) وهو عبارة عن قطع متشابهات تحوي نزعة التصوف ممزوجة بفلسفة الحياة.

ـ القسم الثالث:

(نقش فرنك) أوضح فيه شيئاً عن كبار فلاسفة الأوروبيين وشعرائهم ورأيه في كل منهم.

أما منظومات أسرار خودي ورموز بي خودي فهما تبحثان في أسرار الذاتية ورموزها أو بعبارة أخرى أسرار الأنانية ورموز الإيثار، شرح فيهما أراءه جاعلاً للبحث فيها خطة واضحة فبين قوة الذاتية وضرورتها في الحياة ودعا إليها ثم أوضح كيف تلتئم الفردية القوية الكاملة في الجماعة وكيف تقوي الجماعة أو تضعف وكيف تصلح أو تفسد وقد شرح بعد مقدمتيهما موضوعات تتعلق بأصل النظام وتسلسل الحياة بأطوارها في أعيان الوجود وتخليق المقاصد وتوليدها وكيف أن الذاتية تستحكم في العشق والمحبة وكيف يضعفها السؤال وأنها تستطيع إذا استحكمت أن تسخر لنفسها قوى العالم الظاهرة والحقيقية كما بين أيضاً مراحل تربية الذاتية وحصرها في ثلاث: الطاعة وضبط النفس والخلافة الإلهية. ثم تكلم عن كيفية ظهور الأمة من اختلاط الأفراد وأن كمال التربية لا بد أن يستمد من النبوة وأوضح أن ركن الأمة الإسلامية الأول هو التوحيد وأن الحزن والخوف واليأس أمهات الشرور، والتوحيد وحده هو الذي يزيل هذه الأمراض من المجتمع.

ثم ذكر أن الركن الثاني للأمة الإسلامية هو رسالتها ومقاصدها من تأسيس الحرية وإيجاد المساواة والأخوة بين بني آدم ثم يذهب بعد ذلك إلى القول بأن رسالة سيدنا محمد ﷺ ليس لها حدود مكانية أو نهاية زمانية وأن الإسلام نفسه وطن للمسلمين قبل أوطانهم. وقد وافقت فكرة إقبال هذه ذوق مسلمي الهند فعملوا على تحقيقها ونهضوا إلى استكمالها.

وقد كان لإقبال من الآراء والفكر والتصورات العليا والأخيلة السامية ما يستعصى على الحصر وكل من درس شعره يلمس بعد نظره وصدق فراسته ويرى أنه تناول في فلسفته أحوال العالم كله وضمنها قواعد وآراء حول القوة

وهل هي قوة الفرد أو قوة الجماعة أو قوة الأخلاق أو أنها الاستقلال الذي يتحلل من التقاليد فلا يعرفها أم هي الحرية التي لا تضيق بها القيود والأصفاد وكان هدفه من كل ذلك تهذيب الإنسانية وشرح حقائق الحياة وضرب المثل العليا للفضيلة والكشف عن أسرار الإسلام ومجد المسلمين الأولين محاولاً جهد استطاعته أن يثير في أبناء الجيل قوة وحماساً وأملاً وإقداماً فيتوجهوا في معترك الحياة إلى كل غاية عندها شرف الدنيا والآخرة وعلى ضوء هذه الفلسفة العملية قال أحد الزعماء في معرض حديثه عن إقبال: «إن إقبالاً لم يفهمه المسلمون كما لم يفطن إليه الحكام الإنجليز فلو فهمه الأولون لتحرروا ولو فطن إليه الآخرون لما مات في لاهور بل منفياً في جزيرة أندمان» (الماء الأسود).

وقد نقلنا على صفحات هذاالسفر صحائف من شعر إقبال إلى اللغة العربية محققين بذلك ما تمناه الشاعر حين سأله أحدهم في بعض مجالسه أن يأذن لترجمة شعره إلى لغات أوروبا ليفهم الأوروبيون الإسلام على حقيقته فيذهب عنهم سوء ظنهم في تعاليمه فقال بالإنجليزية «إن أعمالي ستخلد وسترون أن كل معنى أرسلته في قصائدي ستعلمه اللغات بعضها إلى بعض ولكنني أريد أن يترجم كلامي إلى العربية أولاً وقبل كل شيء ليصل إلى العرب صوتي وليفهم العالم الإسلامي أسرار قلبي». وكأننا الآن به وهو ينعم في رضوان الخلود وقد تنسم روح الاطمئنان على ذلك الأمل الذي نبض به قلبه وظل ينبض به إلى اللحظة الأخيرة من حياته.

ومع ما كان عليه إقبال من استمساك بأهداب الفضيلة واتباع لمبادىء الدين فلم يخل تاريخ حياته من حساد تقولوا عليه الأقاويل لا شيء إلا للحط من قدره والتقليل من شأنه والغض من مكانته كعامل لرفعة الملة وعظيم من عظماء الأمة الإسلامية وأمثال هؤلاء كثيرون في كل دولة فقد أذاع أحدهم أن إقبالاً كان يتعاطى المسكرات ويبادر زميل دراسته وصديقه في مراحل الحياة خان بهادر محمد شفيع عميد الكلية الشرقية بلاهور سابقاً يدحض هذا الافتراء الرخيص فيقول: إنني لم أدع لإقبال لحظة من ليل أو نهار إلا كنت فيها ألزم له من ظله

وما رأيته مرة واحدة يتعاطى مسكراً وحسبك أن تعلم أنه طرد ابنه الأكبر وتبرأ منه لأنه لم يجتنب الخمر.

وإنه لمن أعظم النكبات في الأمم الشرقية أن لا يكاد المصلح يبدأ رسالته حتى تنجم له النواجم من أمته وتدب له العقارب من أبناء جنسه لعرقلة خطواته وإضاعة مجهوداته وتأخير غاياته فبينما هو يبذل من ماله وجهده ويحرق نفسه بخوراً لأمته إذا بالصيحات تعترضه من كل مكان وتخنق أنفاسه، وفي أمم الغرب لا تكاد تلمع بارقة العبقرية في نابغ منهم حتى يرفعوه إلى السماك الأعزل ويهيئوا له الأسباب ويغدقوا عليه الثروة التي تمكنه من الفراغ لأداء رسالته بينما تخفق العبقرية في الشرق من فجر مهدها وترى قبل شروق الحياة مغرب لحدها.

هذه صورة عن حياة إقبال الذي قضاها باحثاً في أصول الإسلام متفهماً فلسفته ثم ينظم أفكاره وآراءه شعراً يتغنى به الطلبة في الكليات والمدارس، وكان لقب الدكتور علماً بالغلبة عليه وكان الطلبة يصطفون لمشاهدته في أيام عطلتهم وهو عائد من المحكمة في عربته الصغيرة وبيده ذمام قيادها بوجهه الأحمر وشاربه الذهبي وطربوشه التركي.

وعلى أن نشاط إقبال لم يقتصر على هذه الجهود الدينية الخالدة بل كان له أثر كبير في توجيهات الشباب السياسية وعندما كان سكرتيراً عاماً لجمعية حماية الإسلام بلاهور وكانت تتبع الجميعة عدة كليات حدث أن أعلنت المقاطعة الإقتصادية في الهند سنة ١٩٢٠ فذهب إليه الأساتذة يعرضون عليه فكرة المساهمة بالإضراب تأييداً لهذه الحركة فقال لهم «أخشى إن أمضيتم ما تريدون أن تغلق الكليات أبوابها فتغلق عليكم أبواب الرزق فإن وفقتم إلى إتمام هذه رغبتكم فعيشوا أولاً على وجبة واحدة في اليوم والليلة فإن وفقتم إلى إتمام هذه الخطوة من جهاد نفوسكم أبديت لكم رأيي النهائي». ويدفعنا الحديث عن آرائه السياسية إلى معرفة السر فيما سجله عن بعض تقاليد اليهود وأخلاقهم مما شاهده بنفسه عن أحوالهم وعندما وصل إلى لندن سأل الدكتور آرنولد أستاذه

السابق أن يسكنه مع قوم يأكلون لحوم الذبائح بما يتفق وأحكام الشريعة الإسلامية، فتخير له الإقامة في أسرة يهودية فذهب إليهم إقبال وقال لهم إنني مسلم ومؤمن بنبيكم كما تؤمنون به وعمل على إيجاد مودة بينهم مبنية على روح التسامح ولكن هل يفقه اليهود ذلك؟ وهم الذين عبدوا من الدينار عجلاً جسداً له خوار... هو هذا المال الذي توارثوا عبادته عن العجل الذهبي الأول فلقد رأى أنهم لا يشترون له شيئاً من السوق إلا بعمولة مضافة إلى الحساب بطريقة لا يفهمها غيرهم والتاجر الذي اتفقوا معه.

وكثيراً ما كان يبدي إقبال رأيه الصريح في شيء من السخرية اللاذعة عندما يجد أن الأمر يستوجب ذلك. وكان يقرن رأيه دائماً بالمفاضلة بين دينه وما عليه الأقوام الآخرون بما يرفع شأن الإسلام ويعطي الفكرة الصحيحة عنه فلقد سأله بعض زملائه في جامعة كمبردج «لأن لم يبعث الأنبياء ومؤسسوا الأديان في آسيا دون أوروبا؟» فأجابه إقبال: «لأن العالم مقسم بين الله والشيطان، ولما كانت آسيا من نصيب الله كانت أوروبا من نصيب الشيطان»، فقال قائل منهم قد عرفنا رسل الله فأين رسل الشيطان؟ فأجابه من فوره أنهم زعماء سياسة الخداع والمكر في أوروبا.

ومما يروى عن لذعاته وسخرياته ما تحدث به المستر آرنولد حين كلفه أن يصحب أحد شيوخ الهند الكبار ليريه مشاهد لندن وفي نهاية الرحلة جلسا معاً في أحد الأندية وتقدمت إلى الشيخ الهندي إحدى الفتيات بقدح القهوة ثم أخذت زميلاتها تتقدم الواحدة تتبعها الأخرى ليقبلن لحية الرجل ووجهه كما يقبل العابد معبوده التمثال، ولما شكا الضيف ذلك إلى آرنولد التفت إليه إقبال وقال لأرنولد: كنت أريد ألا يرى ضيفكم لندن بعين واحدة فيرى منها الجانب الأبيض فقط.

وقد كان إقبال يرى أن جميع نواحي الحياة ينبغي أن تعرف على السواء ليؤخذ بصالحها ويترك الفاسد منها فلم يدرك الخير إلا بمعرفة الشر معه ورأى أن

القدماء قد أخطأوا حين تعددت مذاهبهم حول الجسم والروح حتى أن بعضهم كالأبيقوريين يرى أن الجسم وملذاته من الشر أما الإسلام فيرى أن للجسم حرمته وأن الملذات من حقوقه وإنما وضع لها النواميس والحدود فمن تمتع بمطالب الجسم في تلك الحدود الشرعية فكأنما فعل الطاعات ولقد تجاوز بعض زعماء تلك المذاهب الروحية حدود العقل حين تجاهلوا حقوق الجسم ووجوده البتة فأصبح وجود هذا الجسم في نظرهم جريمة لا يكفرها سوى إيذائه كبوذية الهند واليابان والصين.

وقد يقول أصحاب تلك المذاهب أن متع الجسم من الكبائر ولو استرسل الإنسان فيها لم يقف عند حد فلا بد من إعلان الحرب عليها وإقبال في أكثر قصائده يدعو المسلمين إلى نبذ هذه النزعة الأبيقورية وهذه الرهبانية في الإسلام.

ولقد جاء إلى لاهور سائح ألماني وعندما استكتب إقبال كلمة في مجموعة الأتوغرافية كتب له إقبال بيتاً من الشعر الفارسي يفسر الذاتية فسأله السائح عن مذهبه الفلسفي فقال إقبال: «كان آبائي براهمة في الكفر وزهاداً في الإسلام عاشوا يفكرون في ذات الله ورأيي أن تكون بداية التفكير نحو قدرة الله في ذات الإنسان فمن عرف نفسه عرف ربه».

ولما كانت اللغة الأردية أكثر اللغات شعراً وشعراء لكثرة عدد المتكلمين بها ولأنها لغة موحدة لجميع الطبقات في الهند بين المتعلمين والأميين على السواء فقد كثرت فيها حفلات المطارحات الشعرية وقد وفد ذات مرة لفيف من الطلبة يطلبون إلى أن يقبل رياسة إحدى حفلاتهم المقامة للمشاعرة فقال لهم: «إنني لا أقبل الرياسة لأي حفل وإني أنصح لكم ألا تقولوا الشعر فالهند وبخاصة المسلمون فيها لا يحتاجون إلى الشعراء وليس من المستطاع أن يكون كل إنسان شاعراً فإني أرى شعراء هذا العصر يندفعون إلى الشعر إسرافاً وارتجالاً دون أن يتجشموا محنة التأمل وتكاليف النفوذ إلى أعماق المعاني ويظنون أن قول

الشعر هو نظم الألفاظ وتقفيتها دون حاجة إلى مطالعة أو ثقافة عريقة وفهم دقيق مختلف العلوم والفنون ويريدون أن يشتروا شهرة رخيصة بنظم يسير فلست أرى إلا من القليل منهم عنصر الوجود والحيويية والبقاء، إني أشفق على شبابكم وأنهاكم أن تسلكوا هذه السبيل المضلة وعليكم أن تقرأوا النثر وتسجلوا به أبحاثكم الطريفة النافعة وتترجموا الموضوعات الجديدة القيمة فتخدموا شعبكم الحاضر ومجدكم المستقبل». وما لبث أن عاد هؤلاء الشباب وقد انطفأت نارهم الثائرة إلى منازلهم ومكاتبهم ودروسهم لا إلى المشاعرة.

ومما يؤثر عنه أنه دُعي إلى حفل بالكلية لتكريم بعض عند بلوغ سن التقاعد، فقال إقبال «إنني قدمت رغم مشاغلي لأشهد جنازة «وظيفة فلان هذا» فاستغرق القوم ضاحكين من هذه الطرفة الغريبة. وعند السمر سأله العميد وقد كان من كبار مفسري القرآن بالإنجليزية وهو العالم الشهير عبد الله يوسف علي ما رأيك في الحجاب المتبع في الهند والذي تختفي معه المرأة بجميع معالمها من الأنظار. فأجاب إقبال بأسلوب لا يدرك جماله إلا من يعرف الأردية وطرق المداواة في أساليبها «إنني أدافع عن هذا الحجاب لأنه يزيد الرغبة في الملامح ولا يحرم منها القباح».

ولما ذهب مع وفد المفاوضة إلى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن واصل رحلته إلى روما وقابل السنيور موسليني، وقال له الدوتش «إنني أعجبت بما وصل إليّ من أشعارك» وتحدث معه إقبال نحو ساعة وكان مما قال إقبال: «إنني أرى إيطاليا في حالة تشبه ما كانت عليه إيران قبل الإسلام ولكن قد كان من حسن حظ إيران أن وجد إلى جوارها العرب الأقوياء فغزوها من البادية بدم قوي جديد وأمكن لإيران أن تجدد حياتها وأن تخرج أبطالاً جعلوها في طليعة أمم المدينة العظمى وبتلك الدماء العربية قام فيها إعلام وفن وحرب وسياسة ولما سقطت الروح غزتهم الجرمان بقبائل جديدة فقدر لها أن تنشأ نشأة أخرى في القرون الوسطى والآن تحتاج إيران وإيطاليا إلى الدماء الجديدة غير أن الأولى لا زال إلى جوارها قبائل مهذبة نصف تهذيب ومن غربها قبائل العرب التي لا تزال

مستمسكة بمعنويتها القوية، أما إيطاليا فكل من حولها أمم متمدنة فقدت بداوتها القوية وفطرتها السليمة وأخشى أن تفقد إيطاليا عناصر القوة». وقد تأثر موسليني عند سماع هذه الحقائق المستمدة من التاريخ والعلم والاجتماع. ولعل موسليني كان يتأثر أكثر من هذا لو عاش حتى يلمس بعد نظر إقبال وصدق فراسته فيرى إيطاليا بعد الحرب متبلبلة في أمر مستعمراتها بل وفي أحزابها الداخلية التي تسممها المذاهب الجديدة الهدامة.

وقد واصل رحلته إلى فرنسا فإسبانيا وهناك قال لمدير أحد الفنادق الكبرى في قرطبة: «أين أحفاد العرب في هذه البلاد؟» فقال له المدير: إنني منهم، ثم جمع لديه وجوهاً من خيارهم، فقال إقبال ما ترجمته:

إلَى الْيَوْمِ تِلْكَ ظِبَاءُ الحِمَى	بأعينهنَّ المِرَاضُ الحِسَانِ
وألحَاظُهَا لَمْ تَزَلْ قَادِرَاتٌ	عَلَى صَيْدِ أسدِ الشَّرَى كُلَّ آنِ
وتِلْكَ المحَاسِنُ طبعُ الحِجَازِ	وهذَا النَّسِيمُ عَبِيرٌ يمَانِي
نحنُ الجنانُ وسُكَّانُهَا	وإنْ زالَ سكَّانُ تلكَ الجِنَانِ

وقد قابل إقبال في رحلته البروفسير أسن الذي صنف كتاباً أثبت فيه أن الكوميديا الإلهية التي وضعها دانتي الإيطالي كلها مسروقة ظاهرة من الآثار الإسلامية ولا سيما أحاديث الإسراء والمعراج وما يتعلق بالجنة والنار. وكم كان إقبال يتمنى لو أرسلت البعوث الإسلامية إلى تلك البلاد لتعرف آثارها وقراءة مخطوطاتها وخصوصاً ما كان منها بمكتبة اسكوريال.

ولقد رأى في رحلته إلى إسبانيا مسجد قرطبة وقرأ الآيات القرآنية المسطورة بالمداد الذهبي بعد أن أزيل عنها طلاء الرهبان ولقد كان تأثره بمشاهدتها وقراءتها أعظم مما كان يؤثر في نفسه عشرات المفسرين وهو يقول في ذلك: «لقد أحسست بالعطر والنسيم والجمال وفهمت لماذا اختار العرب بلاد الأندلس فهي المكان الذي لا يأسن فيه الماء ولا يتغير مع هوائه الطعام وعرفت لماذا اختار هذا الموطن الذي انبعث منه مدنيات العالم الحديث».

ولما قام الجنرال فرانكو بالحرب الإسبانية الأهلية كان جنوده الفاتحون من مراكش، فقال بعض الناس لإقبال ها هم العرب مرة أخرى قاموا يفتحون الأندلس بعد ٥٠٠ عام فقال إقبال: «هل قرأت قصيدتي عن قرطبة؟ ثم أخذ يتلو منها:

أَيُّهَا النَّهرُ الذي شاطئُهُ جنةُ الحُسْنِ الذِي تَجْلُو النظَرْ
فوقَ شطيكَ سَرَى في مُقْلَتي حُلْمُ الماضِي الذي عنكَ استَتَرْ
غيرَ أنَّ القَوْمَ مِنْ سكرتِهِمْ في حجابٍ خلف مجهُولِ القَدَرْ
وَأرَى في حُلْمِ لَيْلِيَ يقظةً قَدْ تَجَلَّى لِيَ ضُحَاهَا مِن السَّحَرْ
يزعجُ القومَ ندائِي للعلاَ لوْ كشفتُ السِّتْرَ عَنْ كَنْزِ الفِكَرْ

ولما أصدر إقبال كتابه جناح جبريل قال له قائل: إني قرأتُ تصنيف نتشه للمرة الثالثة ويخيل لي أنني أقرأه من جديد فهو طريف الفكرة عميقها قريب إلى الإسلام في بعض أصول تفكيره، ولعل أحداً لم يقدم إليه الإسلام في عرض سليم وتفكير صحيح ولجهله بمبادىء القرآن ألحد في فلسفته، ولعله نفر من المسيحية لأنه وجد فيها أن الحمل الواهن الضعيف هو ابن الله، ورأى أن الأخلاق في المسيحية تبدو في صورة الضعف. فقال إقبال: لقد أصبت اللباب وأدركت الصواب، ولهذا السبب قلت عن نتشه إن قلبه مؤمن وعقله كافر.

وفي جناح جبريل يشبه إقبال نتشه في كثير من الفكرة وقوة الأسلوب وكان لإقبال رأي خاص في إنكار بدع الموالد والإتجار بالأضرحة ومقابر الأولياء، ويقول عن مشايخ هذه الأضرحة: إنهم لو وجدوا حصير الزهراء ودلق أويس القربى وكسرة أبي ذر الغفاري لأكلوا السحت من أثمانها. ومع أن هذا كان رأيه فإن بعض جمهور المواطنين يقيمون له مولداً كل عام فيطوفون بضريحه ويضربون بالدفوف حول قبره.

ويحسن بنا قبل أن نختم هذه الكلمة عن إقبال أن نذكر الحادثة التالية:

اجتمع حول سرير إقبال قبيل وفاته بعض تلاميذه وقد وقفوا يذرفون

الدموع فصاح أحدهم يدعوا الجمع أن يبتهلوا إلى الله بقلوب خالصة أن يكشف الغمة عن إقبال وأن يطيل عمره وما كاد القوم يهمون بالتوجه إلى الله مبتهلين حتى أشار إليهم إقبال أن انتظروا قليلاً، ثم قال لهم: «إن كنتم صادقين في رغبتكم فاجعلوا إبتهالكم إلى الله أن يمد في عمر القائد الأعظم محمد علي جناح» وقد حققوا له رجاءه. ومنذ ذلك اليوم أطلق على «جناح» لقبه الذي عرف به القائد الأعظم.

٨ ـ مات الرجل العظيم محمد إقبال

(١)

قال الدكتور عبد الوهاب عزام بك في محاضرته بدار الأخوة الإسلامية بالقاهرة يوم التأبين. في اليوم الحادي والعشرين من إبريل (سنة ١٩٣٨) والساعة خمس من الصباح، في مدينة لاهور مات رجل كان على هذه الأرض عالماً روحياً سيحاول أن ينشيء الناس نشأة أخرى، ويسن لهم في الحياة سنة جديدة، وسكن فكر جوال جمع ماشاءت له قدرته من معارف الشرق والغرب، ثم نقدها غير مستأثر لما يؤثر من مذاهب الفلاسفة ولا مستكين لما يروى من أقوال العظماء ووقف قلب كبير كان يحاول أن يصوغ الأمة الإسلامية من كل ما دعى التاريخ من مآثر الأبطال وأعمال العظماء، وقرت نفس حرة لا يحدها زمان ولا مكان، ولا يأسرها ماضٍ ولا حاضر، فهي طليقة بين الأزل والأبد، خفاقة في ملكوت الله الذي لا يحد.

مات محمد إقبال الفيلسوف الشاعر الذي وهب عقله وقلبه للمسلمين وللبشر جميعاً ـ الرجل الذي كان يخيل إليّ وأنا في نشوة من شعره أنه أعظم من أن يموت، وأكبر من أن يناله حتى هذا الفناء الجثماني ـ فاضت روح الرجل الكبير المحبوب في داره بلاهور ورأسه في حجر خادمه القديم الوفي «آلهي

بخش» وهو يقول: إني لا أرهب الموت أنا مسلم أستقبل المنية راضياً مسروراً.

كنت أقرأ كلام إقبال في الحياة والموت. وأرى استهانته بالموت واستهزاءه بالذين يرهبونه ـ وما كان هذا خدعة الخيال، ولا زخرف الشعر فقد صدق إقبال دعوته في نفسه حين لقي الموت باسماً راضياً ـ جد المرض بإقبال، وكان يقترب إلى الموت وهو متقد الفكر، قوي القلب. يصوغ عقله كلمات يوقظ بها النفوس النائمة، وينثر قلبه شراراً يشعل به القلوب الهامدة ـ وكان يعنى بنظم كتابه «أرمغان حجاز» لحن الحجاز ـ وكان قلب الشاعر يهفو إلى الحجاز وقد تمنى في خاتمة كتابه «رموزبي خودي» أن يموت في الحجاز. ومما نظمه في أشهره الأخيرة:

آيـةُ الـمـؤمـن أنْ يـلـقَـى الـرَّدَى   بَـاسِـمَ الـثَّـغْـرِ سُـرُوراً وَرِضَـا

وقد أنشد هذين البيتين قبل الموت بعشر دقائق، وهما مما أنشأه أخيراً:

نـغـمـاتٌ مـضـينَ لِـي، هَـلْ تـعـودُ   ونـسـيـمٌ مِـنَ الـحـجـازِ سـعـيـدُ
أَذِنَـتْ عِـيـشَـتِـي بـوشـكِ رَحِـيـلِ   هـل لـعـلـم الأسـرار قـلـبٌ جـديـدُ

وآخر ما أنشأ من الشعر بيتان أترجمهما نثراً:

«قـد أعِـدَتْ جـنـةٌ لأربـاب الـهِـمَـمِ   وَجَـنَّـةٌ أُخْـرَى لـعـبـادِ الـحَـرَمِ
فـقـلْ لـلـمُـسْـلِـمِ الـهِـنْـدِي لا تـحـزنَـنْ   فكذلِكَ لِلْمُجَاهِدِينَ في سبيلِ الله جِنةٌ»

(٢)

كان تشييع إقبال إعراباً رائعاً عما للرجل الفذ في قلوب أهل الهند عامة ،ومسلميه خاصة ـ احتشدت عشرات الألوف تودعه بالبكاء والزفرات وشاركت النساء بالعويل والنحيب، وتنافس الحاضرون في حمل النعش فوضع على خشبتين طويلتين ليتسنى لكثير من المشيعين أن يشرفوا بحمل الرجل العظيم إلى مثواه الأخير ـ وقد بلغت الجنازة شاهي مسجد وخلفها زهاء أربعين ألفاً، فوقف الناس ساعة كاملة حتى تيسر لهم أن يصطفوا للصلاة على الفقيد الجليل ثم نقلت الجنازة إلى حديقة متصلة بالمسجد، وهنالك والساعة عشرة إلا ربعاً من

المساء غربت شمس إقبال من جدتها، وطوى الجهاد الذي ملأ الدنيا في لحده، وأدرجت الحكمة والشعر والحرية التي تأبى الحدود والقيود في جنتها - وضع محمد إقبال في قبره.

وغشي القبر الذي تضمن روضة الشعر بضروب الزهر والريحان، ثم نثرت عليه أزهار أخرى من أقوال الخطباء والشعراء الذين أطافوا بالشاعر الخالد.

وتجاوبت أرجاء الهند بأقوال الكبراء يعربون بها عما أحسّوا من لوعة، وما دهى الهند من مصيبة بموت شاعرها الأكبر - اجتمع على هذا المسلم وغير المسلم، فهذا جواهر لآل نهرو يقول:

«لقد دهتني وفاة إقبال بصدمة هائلة شرفت بلقاء إقبال ومحادثته منذ قليل، وكان مستلقياً على فراش المرض، ولكن كان لفكره العالي ونزعته الحرة في قلبي أثر بليغ - لقد فقدت الهند بفقد إقبال كوكباً لألاءً مضيئاً، ولكن شعره سيخلد في قلوب الأجيال الآتية وذكراه العظيمة لن تموت».

وهذا الدكتور محمد يقول:

«لا تستطيع أرض البنجاب أن تخرج إقبالاً ثانياً في عصور طويلة».

ويضيق المجال عن الإكثار من أقوال أعلام الهند في فقيدهم وأرخ بعض الشعراء وفاة إقبال (سنة ١٣٥٧) في قوله:

تأريخ:

«بود إقبال شاعر مشرق»

كان إقبال شاعر الشرق

وأرخ آخر بقوله:

«ذهب العلامة إقبال شطر الجنة العالية».

ترك الشاعر النابغة ابنين وبنتاً وأخاً وثلاث أخوات.

٩ ــ خواطر في حياة إقبال

١ ــ عين الشاعر:

قال الراوي وليت وجهي شطر المنزل الذي يقيم به إقبال ودار الحديث في مجلسه، فقال أحد الزائرين: إن العباقرة من الشعراء، والنابغين من الأبطال لا ينالون من الشعب تقديراً، فسكت إقبال لحظة يسيرة ثم قال: عندما تكون عين الشاعر منفتحة على الدنيا فإن الدنيا تغمض عينها، ولكن حين يغمض الشاعر عينيه تفتح الدنيا عينيها لتقرأ تاريخه وتفتح فمها بتخليد ذكراه.

٢ ــ الحياة أخطار:

كان إقبال مريضاً في بعض الأيام، وعاده طبيب ماهر، وبعد إجراء الفحص وصف له الدواء وأوصاه بالامتناع عن تناول نوع من الأطعمة، فقال إقبال: ولو لم أقم بتنفيذ أمرك فما يحدث؟ أجاب الطبيب: تتعرض حياتك ـ ولا سمح الله ـ لخطر، قال إقبال: هل توجد لحظة في حياة الإنسان ولا يكون في خطر؟.

٣ ــ راوية شعر إقبال:

كان يوجد بين موظفي السكة الحديدية رجل يدعى «شريف أحمد» وكان يحفظ جميع أشعار إقبال على وجه التقريب، وكان يروي للمستمعين بهذا الشعر ما يستغرق ثلاث ساعات ولما تعرف به مؤلف كتاب «ياد كاد فقير» سأله، إذا كان زار إقبال، فأجاب بالنفي، وقال إنها أمنية طالما تشوقت إلى تحقيقها، فاصطحبه معه إلى الدكتور إقبال بمنزله. وكم كان سروره براويته الذي ذكره «بميكاني» راوية شعر جون ملتون، فلن أستطيع بقوة ذاكرتي أن أمليها مرة أخرى، وكانت هذه الحادثة قبل وفاته بعامين، وهذا يذكرنا بقول شوقي عن حفاظ أشعاره بدمشق: رواة قصائدي فأعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق.

٤ ـ القرآن مظلوم:

شاعت في شبه القارة الهندية حركة الترجمة للقرآن الكريم وتفسيره، من أناس لا يجيدون من العربية لغتها ولا أساليبها ولا قواعدها، وهم مع ذلك مغرمون بأن يقال عنهم أنهم مفسرون أو مترجمون، وحين علم إقبال قصة بعضهم في محاولاته الخاطئة وجه نقداً مراً إلى هؤلاء، بأنهم لم يجدوا عملاً يحسنونه ويظهرون به أشخاصهم ويذيعون به شهرتهم، فلجأوا إلى وسيلة يحققون بها ما أرادوا، فترجموا القرآن وفسروه.

٥ ـ شجرة الإسلام:

كانت كريمة الأستاذ محبوب عالم، مدير جريدة بيسي أخبار بلاهور مهتمة بتأسيس مدارس وتعليم وإعداد النشىء من الفتيات في الدراسة الدينية المتقنة، تتخرج فيها الفتاة الناضجة مثقفة، في مختلف الشؤون الإسلامية، ولكنها لم تجد الإقبال المنتظر، كما تأثرت فكرتها بسبب المعارضين والحاقدين، فلما شكت إلى إقبال قال لها: لا تيأسي من نجاح فكرتك، فإن مزايا الدين تظهر بعد سن الأربعين، وعليك بتهيئة الأرض الصالحة، والقيام بحرثها والبدء بغرس البذور فإنها يوماً ما ستصير أشجاراً باسقة.

٦ ـ أقدس المصادر:

في زيارة خاصة قام بها أحد الأصدقاء، وفي أثناء الحديث قال الزائر له: إنك قد أطلعت على أهم الكتب وأغزرها علماً في الدين والإقتصاد والسياسة والتأريخ والفلسفة وغير ذلك، فما هو الكتاب الذي نرى أنه أجل هذه الكتب وأنفعها للقارئين؟ فتغيب إقبال قليلاً في إحدى غرف المنزل، وعاد وفي يده كتاب وعرضه على الرسائل والجالسين، فما كان هذا الكتاب؟ إنه قرآن كريم، دائرة معارف الكون وكنز العلوم التي علمها الله للنبي آدم أبي البشر.

٧ ـ دخول الجنة:

حدث إقبال كثيراً عن أحمد المقري، مصنف كتاب نفخ الطيب، المتعلق بتأريخ الأندلس، وأثنى على جهده العلمي، وذكر قصة اليهودي الذي بُعث رسولاً إلى قصر الخليفة المستنصر فما كاد يشهد فخامة القصر ومظاهر النعمة فيه، حتى انتابه ما يشبه السحر، وكان بواب القصر رجلاً طويلاً، مهيب الطلعة رهيب الصورة فقال للوزير:

لقد أوشكت أن أسمي هذا القصر «جنة» لولا منظر بوابه المخيف، فليت رضوان كان هو القائم في مكانه، فنقل الوزير كلمات اليهودي إلى الخليفة قال: لو كان رضوان بالباب فيكف كان لليهودي أن يدخل الجنة؟

٨ ـ خمسمائة بيت:

كان من عادة إقبال أنه إذا تحرك في نفسه الميل إلى قرض الشعر اعتزل الناس، وفي إحدى المرات كان في منزله بالدور الثاني، وأحب أن يبدأ نظم قصيدة، فلم يجد القلم والقرطاس، فنزل إلى الدور الأول ولمح شبح درويش لا عهد له به، فسأله من أنت وماذا تريد؟ فلم يجب بشيء سوى قوله، وهو رافع يديه: أعد خمسمائة شخص، وأعاد هذه الجملة، وخرج من البيت واختفى، حيث كانت الليلة حالكة الظلام، فتبعه إقبال وسأل أحد الخفراء إن كان قد رأى شخصاً على الحالة التي وصفها له. فأجاب بأنه لم ير أحداً. ولما ذهب من لاهور إلى سيالكوت وأخبره والده قال له: لعل المراد أن تنظم خمسمائة بيت، فقد نظمها بعد ذلك فكانت هي كتابه «بس جد بايد كردك أقوام شرق» (ماذا يجب أن نعمل يا أقوام الشرق؟)

٩ ـ تاريخ بأرقام الحرف:

اعتاد أهل العلم في البلاد الإسلامية أن يخلدوا أعلام الأمة عند وفاتهم بوضع تأريخ لسنة الوفاة، وحين توفي السيد أحمد خان مؤسس النهضة العلمية

الإسلامية الحديثة، وباني جماعة علي جرة بالهند، كان تأثر جميع المسلمين في شبه القارة شديداً، وتبارى الكتاب في تخليد عام وفاته، فكتب شمس العلماء مير حسن أستاذ إقبال ذلك التاريخ. فسجل تاريخ الوفاة في جملة صغيرة وهي: غفر له (١٢١٥ هـ)، أما إقبال فقد أرخ له بآية من سورة آل عمران: وهي قوله تعالى في شأن المسيح عليه السلام: إني متوفيك إليّ ومطهرك (١٢١٥ هـ) وهذا التاريخ يدل على بلوغ أقصى غايات البراعة والفطنة: فلم يسبقه إلى مثل ذلك أحد، ولم يلحقه، فقد كان السيد أحمد خان جدير بهذا التكريم، ولا يزال هذا النوع من التأريخ جارياً الآن في شبه القارة الباكستانية الهندية.

١٠ ـ أحسن شاعر:

وسأله السيد أمجد علي وزير مالية باكستان ومندوبها في هيئة الأمم عن أحسن الشعراء في نظره فقال: الروحي من حيث الخيال وبيدل من حيث مقياس البيان.

١١ ـ إخلاصه لأصدقائه

كان رأس مسعود حفيد مؤسس جامعة علي جرة أعز أصدقاء إقبال، وأحبهم إليه جميعاً وكان يؤثره بالصداقة المتينة، والوفاء الدائم مدى حياته، وقد رافقه في رحلته إلى أفغانستان لوضع المناهج الحديثة لتدريس العلوم الإسلامية وفي أثناء الرحلة جرت مطارحة شعرية بين رأس مسعود وإقبال وكان شرط المطارحة يقضي أن تكون أبياتها المتبادلة من شعر إقبال وفعلاً بدأ الحوار، ولكن بعد نصف ساعة بدأ إقبال ينضب معينه من استظهار أشعاره، بينما راويته لم يزل ناشطاً مسترسلاً في حواره، وكانت نتيجة المطارحة انتصار على إقبال لحفظ شعر إقبال، وللدكتور إقبال قصيدة في رثاء مسعود هذا، بلغت من الشهرة مداها، ودلت على عمق الوفاء من الصديق للصديق، الذي لا يألو جهداً في إغداق الخير عليه فقد كان مسعود وزير التعليم في إمارة بهوبال بالهند، وقرن لإقبال خمسمائة

روبية طوال حياته، وهذا المبلغ لا يقدر بظروفنا الحاضرة، فقد كان في تلك الأيام خيراً من ألف روبية (مائة جنيه) وكان مسعود قد اتفق أيضاً مع السموا آغا خان أن يقدم مثل هذا المبلغ لإقبال، ولكن إقبال رفض تسلم النقود، معتذراً بعدم الاحتياج إليه في نفقته، وكانت القضايا التي يترافع فيها إقبال أمام المحاكم، لا يزيد فيها أجر الدفاع على خمسمائة روبية، ولا يقبل أكثر من ذلك. تعففاً واستغناءاً عن الثراء الذي يكلف أصحاب القضايا ما يزيد على قدرتهم.

١٢ ـ محاضرات إقبال بمدارس:

إن بعض الأساتذة المعروفين أعادوا قراءة كتاب إقبال «التشكيل الجديد للفكر الإسلامي» المشتمل على محاضراته بمدارس، ولم يكتفوا بإعادته مرة بل مرات ومرات، ومن الكتب ما يهتم به المحققون، وقد يلازمهم مدى حياتهم، ويوالون تلك الكتب تكراراً بعد تكرار، ولا يملون، وهم يزدادون بها علماً ومعرفة، كلما استأنفوا الإطلاع عليها، فأبو علي ابن سينا قرأ كتاب بعد الطبيعيات لأرسطو واستعاد قراءته ثلاثين مرة، وقيل أربعين مرة. وكتاب التشكيل الجديد كان موضع الاهتمام عند إقبال، حتى قال: لو صدر هذا في عهد الخليفة المأمون العباسي لأحدث ثورة في العالم الإسلامي، وقد ترجم إلى العربية عن الإنكليزية في القاهرة، ولا تزال الحاجة الماسة إلى نقله إلى العربية، مصحوباً بتحقيقات وإيضاحات، تلقي الأضواء الكاشفة على أفكار إقبال ولازموه في سفره وإقامته على أن الذي لم يتفهم أسرار القرآن ومعانيه لن يتاح له أن يفهم كتب إقبال وفلسفته، فإن إقبال ركز حياته كلها على كتاب الله وآياته المحكمات، وهو بنفسه يقول: إذا أردت أن تحيي مسلماً فإنك بغير القرآن لن تحقق هذه الحياة.

١٢ ـ زوجات إقبال:

كان لإقبال في حياته ثلاث زوجات، فكانت الأولى من كوجرات. وكان

ثمر الزواج الأول إنجاب إقتاب إقبال المحامي الشهير: وقد توفيت في مارس ١٩٤٧م، والثانية توفيت في عام ١٩٢٤، وأنجبت الثالثة ابنه الأصغر جاويد، وشقيقته «منيرة» وقد توفيت قبل زوجها بثلاث سنوات في مايو ١٩٣٥م، وكان جاويد في الحادية عشرة من عمره، ومنيرة كانت في الخامسة: وقد حصل جاويد على الدكتوراه وشهادة المحاماة من أوروبا مثل والده.

دواوين إقبال:

(١) أسرار خودي - ١٩١٥ - ١٩٥٩ - ٦ طبعات وطبع (١٣٠٠٠) نسخة (٢) بيام مشرق - ٩ طبعات: ١٩٢٣ - ١٩٥٨ - ٩ طبعات وعدد النسخ (١٨٠٠٠) (٣) بانك دار: ١٩٢٤ - ١٩٦٢ ٢١ طبعة وطبع (١١٤٠٠٠) نسخة (٤) زبور عجم ١٩٢٧ - ١٩٥٩ = ٧ طبعات وطبع (١٦٤٠٠) نسخة (٥) جاويد نامه ١٩٣٢ - ١٩٥٩ = ٤ طبعات وطبع (٦٠٠٠) نسخة (٦) بال جبريل: ١٢ طبعة من ١٩٣٩ - إلى ١٩٦٢ = طبع (٦٢٠٠٠) نسخة (٧) يس جدبا يدكرد = ١٩٢٦ - ١٩٥٩ = ٤ طبعات وطبع (١١٠٠٠) نسخة (٨) ضرب كليم = ٧ طبعات من ١٩٣٨ إلى ١٩٥٩ (٤٣٠٠٠) نسخة. (٩) أرمغان حجاز (وقد طبع بعد وفاته) ٧ طبعات من ١٩٣٨ إلى ١٩٥٩ (٢٢٠٠٠) نسخة ومجموعها = (٣٠٥٤٠٠) نسخة وهذه الاحصائية إلى ١٩٥٩ م، وقد تجددت بعد ذلك طبعات لجميع الكتب، كما أن الناشرين بالهند وغيرها يجددون طبعها بلا استئذان ويحصلون على الأرباح، ولا يخشون فيها حساب أمن الورثة.

كان إقبال في حياته مثال البساطة بكل معانيها، فذهب مرة قصار إلى منزله، وسأل تابعه الخاص «علي نجش» أن يتيح له الفرصة برؤية إقبال الذي دوى شهرته العظيمة، وكان إقبال جالساً في فناء البيت، مرتدياً ازاراً وقميصاً من نوع الفنلة، وهو يدخن النارجيلة: فأشار به إليه، ولكن القصار ارتاب في فطنة أحد الخدم، ومضى إلى الدكتور إقبال يسأله عن الدكتور

إقبال، فقال إجلس يا أخي أنا هو، فأخذ مكانه وكانت الحيرة الصامتة هي النطق الذي أفصح به القصار عن شعوره ودهشته من بساطة العظمة، أو عظمة البساطة.

ولم يكن لدى إقبال إلا بذلة واحدة، ويلازمها حتى إذا حدث لها ما يقتضي ترميمها سلمها إلى الخادم الذي كان بنفسه يشتري القماش بلا استئذان، ويتولى إعداده للاستعمال بلا استئذان ولا مشورة، وهو الذي كان يعد له غذاءه كل يوم، وهو لا يزيد على رغيفين رقيقين، نوع من الأدام، ولم يكن يتناول العشاء إلا على قلة.

١٣ ــ برهان وجود الله:

التقى أصدقاء إقبال ومحبوه بمنزله فسأله أحدهم أن يقدم على وجود الله برهاناً من أسلوب الفلسفة التي يعد إقبال أحد أعلامها، وقال السائل: هل تستطيع أن تقدم هذا البرهان؟ قال: لا. فقال السائل: ما دمت لا تستطيع تقديم البرهان فعلامَ تؤدي هذه الشعائر والعبادات؟ قال: إني لا أحتاج في هذا إلى دليل، فإن نبيي وقد اتفق أعداؤه وأصدقاؤه على أن من مبدأ الكذب قال: إن الله يوحي إلي ويخاطبني. ومن تأمل هذه الحقيقة لن يشك في وجود الله عز وجل.

١٤ ــ خطبة إقبال في دهلي:

كان إقبال يتولى الرئاسة في مؤتمر التعاليم المحمدية في عام ١٩١٢ م بدلهي، وقد ألقى خطاباً مطولاً وكان مما قال فيه: إن الإسلام هو المنبع لجميع أصول المدنية الغربية وأهدافها الحسنة، وقد انبعث شعاع العلم والفنون في القرن الخامس عشر الميلادي من أوروبا إنطلاقاً من الجامعات الإسلامية، واقتباساً من علمائها وفلاسفتها العباقرة، فقد كانت الجامعات الإسلامية تستقبل وفوداً وبعوثاً من طلاب العلم بأوروبا. وكانوا يدرسون ويتعلمون ثم يعودون بذخائر مما تعلموا إلى بلادهم، ثم ينشرون ما استطاعوا نشره من ذلك، فمن

زعم وجود تناقض بين الإسلام والعلوم الحديثة فإنما يثبت جهله وعدم إدراك الحقائق وبعده عن الرشد.

وعلى سبيل المثال فإن الفيلسوف ديكارت، واستوارت مل، وهما من كبار فلاسفة أوروبا، قد أقاما فلسفتهما على أساس التجربة والمشاهدة. فأصول ديكارت مسبوقة بما سجله الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين. حتى قال أحد مؤرخي الإنكليز: لو كان ديكارت يعرف العربية لقلنا انه سرق فلسفته من كتاب الغزالي، وأما استوارت مل، فقد أورد اعتراض فخر الدين الرازي، وجميع أصول استوارت مل في فلسفته واردة في كتاب الشفاء لابن سينا بالعربية فكل موارد العلوم الحديثة والفنون الجديدة مردها إلى الفيض الغزير، من عبقرية المسلمين، بل أقول إن فضل الإسلام لا يقف عند العلوم الحديثة وحدها. فكل زاوية خيرة من الحياة الإنسانية قد سلط عليها الإسلام أضواءه الرائدة الهادية.

١٥ ــ التصوف عند إقبال:

لقد نشر السيد «فوق» من مجلة الطريق في أغسطس ١٩١٤ ما دار بينه وبين إقبال من أسئلة في شأن التصوف، وهو كما يلي:

(س): ماذا أفاد الإسلام من المتصوفة؟

(ج): لقد قدم المتصوفة في الهند أجل الخدمات إلى الإسلام، وأظهروا محاسن الدين المحمدي، لا بالسيف ولا الحرب، بل بحسن سياستهم ومكارم أخلاقهم، وكان من أثر ذلك أن أسلم على أيديهم ستون مليوناً من جملة المسلمين في الهند، وهم سبعون مليوناً (في عام ١٩١٤) وكل المزايا الإنسانية العالية التي تجلت في الهند كانت بفضل تعليمهم ونشاطهم. فهم الذين علموا الإنسان كيف يكون إنساناً أولاً، ثم علموه كيف يكون مسلماً بعد ذلك.

(س): هل أفادوا السياسة الإسلامية في الهند؟ وهل كان لهؤلاء المتصوفة أثر في سياسة الهند الإسلامية؟

(ج): لم يكن من عملهم التدخل في مشكلات السياسة، لأن رسالتهم تتعلق بتزكية النفس، وإصلاح الباطن، وتهذيب النفس الأمارة، ولكنهم لم يتخلفوا عن أداء واجبهم حين انحرف بعض السلاطين، فقد قاموا بنصحهم وتوجيههم إلى الطريق الأقوم بدون تردد ولا خوف.

(س): ما هي تعليم التصوف من وجهة الشؤون الدنيوية؟

(ج): في نظرهم كما هو الحق، أن يحقق النجاح والتقدم للدين والدنيا في وقت واحد، فالإسلام لا يسمح بالرهبانية والعزلة وإهمال الأهل والأولاد، والانقطاع للخلوة في الصحاري والغابات.

(كيف تبني مسجداً للمسلمين إن تركت الأرض للمستعمرين).
والتصوف الإسلامي يرى أن الذي يعيش لنفسه فقط، فهو ينبوع جاف، لا ماء فيه ولا خير منه، وقد يسمح بالخلوة والتفرغ للعبادة والتوجه لله، لذوي المواهب الخاصة، ومن لهم قدر راسخة في الروحانية، وهم أقل من القليل، وعلى أية حال فإن ترك الدنيا والعزوف عن نعم الله فيها، تعد مخالفة للقانون الآلهي، لأن الفطرة تقتضي نمو العمران وامتداد النسل البشري.

(س): منذ متى بدأت مواسم هذه الذكريات التي تطلق عليها كلمة الموالد في البلاد العربية أو العُرس في شبه القارة الهندية الباكستانية؟

(ج): نظراً إلى أن الهنادك كانوا يحتفلون بأيام دينية في مظاهر ومهرجانات تعودوها، فقد نقلت بعض هذه المظاهرة في شكل إسلامي ليأنس به الهنادك، الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً.

(س): ما هي أهداف هذه الموالد؟

(ج): هي ذكريات لمن تقام من أجلهم لإبراز وإظهار مزاياهم وأثارهم الدينية والعلمية. ولهذا ينبغي استغلال هذه الذكريات لإيضاح تاريخهم، والكشف عن أمجادهم وأعمالهم، ولكن من المؤسف بأن بعض الناس لا يفطنون إلى هذه المقاصد السامية فيجعلونها تسلية ويتخذونها لهواً ولعباً، فهي

عبارة من الأسواق والملاهي والمناظر، وعرض السلع والمنتجات.

(س): ولكن ما الذي يفيدنا من طائفة المتصوفة في هذا العصر المتميز بالحركة والجد والإنتاج والعمل الدائب؟

(ج): إن هؤلاء المتصوفة لهم حلقات رحيه واتباع عديدون. وهم يستطيعون أن يوجهوا أتباعهم ومريديهم نحو الحياة الفاضلة والمشاركة في كل الميادين العملية والمفيدة للمجتمع، وكثيراً ما كانوا مصدراً للنهضة واليقظة للأمة (نذكر مثلاً: في الحروب الصليبية بمصر، كيف قاد الإمام أحمد البدوي مريديه. بعد أن دربهم ونظمهم: وشكل منهم جيشاً ليجمع بين الإيمان والعمل، واتجه بهم إلى معسكرات الأسرى التي تضم المئات من جنود الشعب المصري فحررهم وفك أسرهم، وشارك بهم وببقية مريديه في الموقعة، حتى جاء نصر الله، وعاد إلى صومعته معلماً وعابداً، وننتقل إلى عصرنا القريب فنذكر الإمام السنوسي الأكبر، وكيف وقف بجيوشه ضد غزاة الشمال الأفريقي نحو عشرين عاماً، حتى إذا مات خلفه الإمام البطل الشيخ عمر المختار، ونذكر الزعيم الصوفي الأمير عبدالكريم الخطابي، وهذه مواقفه الجليلة ضد جيوش الإحتلال، لا تزال ترنّ في أذهان الناس.

(س): ما قولك في كرامات الأولياء؟

(ج): أعتقد في كرامات الأولياء، فإن النفوس التي وهبها الله قلوباً وأدمغة خاصة، ممن بلغوا الكمال في تربية النفس، على تعبير البعض بأنهم يستطيعون أن يرجعوا السهم إلى القوس بعد إنطلاقه: والماء إلى الينبوع بعد فيضانه.

(س): أترى من المستحسن زيارة القبور أو ترى غير ذلك؟

(ج): إذا كان هدف الزيارة طلبه الحاجات من أصحابها، كما تطلب من الله عز وجل، فإني أخالف هذا المخالفة، وأعتبر ذلك إثماً وجرماً كبيراً فإن كان الهدف هو العبرة وتذكر الموت والدعاء لهم، فلا بأس بذلك، بل هو مطلوب،

وأرى فوق ذلك أن في زيارة هذه المواطن مما يتحقق به تزكية الباطن.

(س): هل نحتاج إلى مرشدين أولا؟

(ج): الإنسان يحتاج إلى المرشد الذي يوجهه إلى الطريق الأقوم، وصاحب القلب النقي يستفيد من هداية المرشد، ممن لهم روح كبيرة، وفيهم حرارة وألم، وكل مريد ترتفع أخلاقه وتحسن سيرته وسلوكه، من صحبة المرشدين شريطة أن لا يكونوا تجاراً ولا محترفين.

(س): لم لا نجد في الوقت الحاضر أمثال أولئك المرشدين؟

(ج): مرد هذا إلى أن مجتمعنا الحاضر قد تعرى من مزايا تلك الأزمنة، وأذواقها وعلى سبيل الإيضاح نقول: إننا نرى العلماء والمخترعين والعباقرة تمتلىء بهم أوروبا وفيما وراء البحار، بينما لا نجد لدينا إلا القليل النادر وسبب هذا أن المجتمع هناك يقدر الجهود العلمية والفنية، ويفسح المجال أمام ذوي الخبرة ليمارسوا استخدام قدراتهم فيما يرفع من شؤون أممهم بالتشجيع والتقدير، بينما لا يجد الموهبون هنا غير إطفاء نور الموهبة، وتعويق سيرهم عدا الحالات، فمثلاً بوذا الذي ولد في بيت ملك، وشاهد المجتمع من حوله نشوان بالرفاهية والنعمة أو مبتلي بالفاقة والعدم، فأحس بذلك وظن أن كل آلام الإنسانية هي آلامه، فاضطربت روحه وترك الملك والدولة، ووقف حياته للإصلاح، والمثل الأعلى في حياة العرب أنهم كانوا أبداً في حروب ووأد بنات، وكل عيوب الدنيا كانت لديهم فجاء شخص من رب العزة رسولاً الذي هو أكبر نموذج ومثال للرحمة، وكان العرب يشعلون الحرب لأسباب تافهة وتستمر الحرب إلى عشرات السنين، وبدل إله واحد كانوا يعبدون آلهة عديدة من صنع أيديهم. ويقدسون أشخاصاً ويفتخرون بالشراب والمجون، ولا يعرفون للعدل والفضل قانوناً، ينظم معيشتهم لأجل هذا بعث النبي الذي كان رحمة للعالمين فجعل هذه المنطقة العربية منطقة يعتز بها مسلمو العالم أجمع ويبذلون أرواحهم فداء لمكة المكرمة والمدينة المنورة.

١٦ ــ الحدود الاقليمية والمسلمون:

يقول إقبال: وضمن الأبيات التي نظمتها في معارضة شيخ الهند السيد أحمد قلت: هنالك تترنم على قمة المنبر ينادي بأن الملة من الوطن وقد استخدمت كلمة الملة للشعب وهذا اللفظ جرى استعماله في اللغة العربية والقرآن مرادفاً لكلمتي الشريعة والدين وقد جرى استعماله في العربية الحديثة وفي الفارسية والتركية بمعنى الأمة والشعب.

١٧ ــ نظرية الوطن عند الإفرنج:

يقال للمسلمين في الهند إن تشكيل الشعوب يقوم أساساً على الوطنية، وتبذل النصيحة لهم بأن يستمسكوا بهذه النظرية ويختاروها كعقيدة سياسية، وإني مطلع على آراء المصنفين الغربيين، وعلى يقين بأن قصد إذاعة هذه النظرية هو تمزيق وحدة الأمم الإسلامية، وقد أصابوا قدراً من النجاح الجزئي من إذاعة هذه النظرية المسمومة إبان الحرب العالمية الأولى، ومما يدعو إلى الحيرة والعجب حقاً أن زعماء المسلمين في الهند يروجون لهذه النظرية ويدافعون، ومن مصائب الدنيا وكوارث الدهر أن هؤلاء الزعماء كانوا يتهمون شباب هذا العصر أنهم مستعدين لهذه الأفكار المستوردة من الغرب ولعلهم رأوا في هذه النظرية ما يجتذب مشاعرهم، ولكن واأسفاه، لن يتجدد متاع الحياة للكعبة لو استعرنا لها من الغرب اللات والمنات، وهذه الترجمة اللفظية للبيت الفارسي من شعره، يهدف بها إلى أن المدنية الغربية ونظرياتها الحديثة هي أصنام هذا العصر الجديد، فهي لا تحدث تجديداً في كيان الأمة، وفي الأزمنة الغابرة كان الناس ينسبون إلى أوطانهم التي ولدوا فيها وقيل الصيني والعربي والياباني والإيراني وإلى غير ذلك وهذا لا يعدو أن اصطلاحاً جغرافياً، وهو لا يتصادم مع الإسلام. وهي معرضة للتغيير من جيل إلى آخر ومن ظرف سياسي إلى سواه فالمواطن من بورما كان بالأمس يعتبر هندياً. أما الآن فلا يطلق عليه إلا بورمي، ومن هذه

الجهة فلكل فرد أن يضحي من أجل هذا الوطن المحدود، ولا حاجة بنا إلى استغلال حديث «حب الوطن من الإيمان» حسب دعواهم وذلك أن حب الوطن مركوز في فطرة الإنسان ولكننا حين نستعمل كلمة الوطن في نطاق النظرية السياسية فنجد في ذلك التصادم مع الإسلام، فإن مقصد عالم البشرية هو تحقيق الأمن والسلام للإنسان. والإسلام هو وحده الكفيل بتحقيق السلامة والأمن، والذي فهمته أنا من القرآن الكريم بأنه ليس مجرد دعوة إلى اصلاح في الحياة الإنسانية، ولكنه يهدف إلى تغيير جذري في المجتمع كله. وتاريخ الأديان يشهد بأن الدين في العصور القديمة كان قومياً، كما كان عند المصريين والإغريق والهنود، ثم صار بعد ذلك جنسياً كما هو عند اليهود محدود بنسل إسرائيل وذريته. وقد علمت المسيحية أتباعها أن الدين حالة فردية وخاصة. فصارت عقلية الغرب التعسة ترى أن الدين لا صلة له بالأنظمة الاجتماعية والسياسية وإنما ذلك إلى الحكومات التي تنظم الجماعات، والدين في عزلة عنها، ولكن الإسلام هو وحده في العالم الذي قدم رسالته إلى الإنسانية على أساس أن الدين ليس بقومي ولا نسلي ولا فردي ولا خاص، بل الدين إنسانية محضة. فإن المثل الأعلى للإسلام توحيد العالم البشري. وإلى هذا أشار صاحب المثنوي بقوله: إن وحدة القلب أفضل من وحدة اللسان. وكل طريق غير هذا فهو فرار من الدين. ومخالفة لما يراد للإنسان من العزة عن طريق الوحدة. ولقد تشتت شعوب أوروبا فطال بهم البحث عن هدف ليوحدوا شعوبهم، فلم يجدوا في الأصول المسيحية ما يجمعهم تحت راية واحدة فالتجأوا إلى التمسح بالوطنية، فكان من نتيجة هذا الاصطلاح الذي دعا إليه «لوثر» وانفصل الدين عن السلطة السياسية، بل كان من نتيجة ذلك أيضاً قيام الحروب وقد دفعت هذه القوى الجديدة أوروبا إلى اللادينية والفرار من الدين وقيام الحرب الاقتصادية فهل كان شيخ الهند يريد أن نعيد هذه التجربة المدمرة على أرض آسيا كمرة أخرى؟ فشيخ الهند يدعو ثمانين مليوناً من مسلمي الهند أن يندمجوا في الأكثرية الهندوكية الوثنية وهو يتباهى بعربيته. وإنني غير محيط على دقائق اللغة،

وكان عليه بدل اللجوء إلى كتب اللغة ـ أن يلجأ إلى شهادة القرآن وأشار إقبال إلى هذا المعنى في قوله: إن هذا الدرويش لا يتقن إلا قول لا إله إلا الله، وأما فقير المدينة فهو قارون لغة العرب ويعني بالدرويش نفسه. وقال إقبال: كلما تأملت في القرآن وجدت كلمة الملة والأمة دون تحديد ودون دعوة إلى أمة بجنسيتها أو إقليمها، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ومن أحسن دنيا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ (سورة النساء) فالأمر باتباع الملة ومعناه اتباع الدين والشريعة، كما هو منطوق الآية وكلمة القوم لا تدل على الدين أو الشرع. فالدعوة إلى التمسك بها عبث، لأن القوم لا تعني غير الجماعة، حتى ليدخل فيها جماعات قطاع الطرق والتجار، وإذا أدخلت فيما دعا إليه الله ورسوله فإنها تعد من أهل الإيمان، وإذا كان رائد تلك الجماعة وقائده ملكاً أو رئيساً فإنها تنسب إليه كما يقال: قوم عاد وقوم فرعون وإذا كان في الإقليم أو المملكة الواحدة فئتان مختلفتان كانت نسبة كل منهما على حدة إلى زعيمها كما قال الله تعالى: ﴿قال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه﴾ (سورة الأعراف) وحيثما ذكرت كلمة قوم فيراد بها فئة المنكرين والمخالفين أو الذين اتبعوا نبيهم ولم تستخدم للتعبير عن جماعة المسلمين سوى كلمة الأمة. وبعد أن سمى المسلمين أمة مسلمة لم يبق مجال بعد ذلك للنسبة إلى غير الإسلام فلا يمكن بعد ذلك قبول التحديد بكونها أمة عربية وإيرانية وأفغانية ومصرية أو هندية وفي مقابل هذا يوجد القول المشهور «الكفر ملة واحدة».

وهذه الأمة المسلمة هي حاملة دين الفطرة (ذلك الدين القيم) وفي استخدام كلمة القيم معنى دقيق وهو أن الدين مقوم لشؤون أمور المعاش والمعاد. ولذلك يصرح القرآن بقوله: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ وهناك أمر غاية في الأهمية، وذلك أنه إذا كانت العاطفة الوطنية هي العامل الأساسي للمجتمع، فلم كان أقارب النبي ألد أعدائه؟ وكان قوم محمد ﷺ قبل بعثه لهم بهذه الصفة، وكانوا متحررين من كل قيد ولكن بعد البعثة بدأ التشكيل

الجديد على أساس الأمة المحمدية المسلمة وأصبحت كلمة القوم شيئاً ثانوياً فالذين آمنوا بالرسالة المحمدية سواء كانوا من قومه أو من غيرهم أصبحوا أمة مسلمة وبعد أن كانوا تابعين للملك والنسب أصبح الملك والنسب تابعين لهم وكان يسيراً على النبي ﷺ أن يقول لأبي لهب وأبي جهل والفئة من كفار مكة من العرب أقيموا على عبادة أصنامكم أحراراً، ويكفي أن نقيم بيننا وحدة على أساس القرابة التي يجمع قومنا في وطن واحد، ولكنه لم يفعل، وإنما عمل ما هو لائق بخاتم الأنبياء، لأن غاية الرسالة المحمدية إقامة البناء للهيئة الاجتماعية البشرية، تابعة للقانون الإلهي، وبتعبير أوضح أقول إن هذه الشعوب، رغم تباينها في اللغات والألوان والأمكنة والجنسيات، يريد الإسلام أن يتسامى بها وينزهها عن التقييد والتحديد، ليصوغ هذا الهيكل الترابي في قالب ملكوتي، ويكون في كل لحظة من حياته متسماً بالأبدية والخلود، وإن الذي أنجزه الإسلام على مدى ثلاثة عشرة قرناً من توحيد الشعوب في ظل الإسلام وإذابة الفوارق وإزالة الحواجز الدينية والقبلية، لم تستطع الأديان والملل الأخرى جمعاء، أن تنجزه في ثلاثين قرناً وكانوا على يقين أن دين الإسلام قوة خفية غير محسوسة، قادرة على التأثير في العمل والفكر تجاه العالم الإنساني كله، فوق مستوى الدعاية والتبشير لكل معاني الاستغناء، فعلينا باعتبارنا مسلمين أن نحطم أغلال الاستعمار الإنكليزي، ونتحرر منها ليبقى الإسلام ويقوى المسلمون في إطارهم الديني، غير خاضعين للنظم الاستعمارية وما يماثلها من الدعوة، وإلا نكون قد محونا باطلاً لإقامة باطل مكانه، أما الدعوة الإقليمية فلو بقيت الهند ـ بعد الاستقلال ـ دار الفكر، فحرام على المسلمين أن يرضوا بمثل هذا الاستقلال.

١١ ــ صوت إقبال إلى الأمة العربية

أمة الصَّحْراء يا شعبَ الخلودِ　　مَنْ سِوَاكُمْ حَلَّ أغْلالَ الوَرَى

أَيُّ دَاعٍ قبلكُمْ في ذَا الوجود ... صاحَ لا كِسْرَى هُنَا وَلاَ قَيْصَرَا
مَنْ سِوَاكُمْ في حديثٍ أوْ قديمٍ ... أطلعَ القرآنِ صُبْحاً للرشادِ
هَاتِفاً فِي مَسْمَعِ الكَوْنِ العظيمِ ... لَيْسَ غيرُ الله رَباً للعبَادِ
حَدثوني اليومَ عَنْ أيِّ خوانٍ ... قدم الحكمَة قوتاً للفطَنِ
يا مصابيحَ التآخِي والتفانِي ... أنزلَ اللّهُ فأصبحتُمْ لِمَنْ

* * *

وَابِلٌ مِنْ فَيضِ أُمّي اللَّقَبُ ... الكريمُ الفردُ في كلِّ الْكِرَامِ
أنبتَ الزهرَ بصحراءِ العربِ ... بَلْ سقَى في القَفْرِ بستانَ الوئامِ
بِهَذي الحريةِ العلْيَا أَثَارَ ... فهيَ رَوْضٌ مونَقٌ مِنْ غَرْسِهِ
يومها الحاضرَ فِي كلِ الدِّيَارِ ... لَمْ يُنِرْ إلاَّ بذكْرَى أَمْسِهِ
كُلُّ صَدْرٍ مِنْ بَقَايَا آدَمَ ... ... صَاغَ فِيهِ لِلْعُلاَ قَلْباً جَدِيدا
مَنَعَ الإنسانَ ملكَ العالمِ ... بَعْدَ ما عَلَّمَهُ النَّهجَ الرَّشِيدَا
كل رُبٍ غيرُ خلاق النسم ... صارَ مِنْ عَزْمَتِهِ تَحتَ الثَرَى
كلُّ غُصنٍ كَانَ فِي يَبَسِ الْعَدَمِ ... بَنَدَاهُ أَخضَرُ حَتَّى أَثْمَرَا

* * *

لاَ تَسَلْنِي الآنَ عن ثورتِهِ ... إنَّها ميدانُ بدرٍ وَحنينِ
في أبي بَكرٍ وفي صاحبِهِ ... فيهمَا مِفْتَاحُ كِنزِ العالمينَ
سَيْفُ أيُّوبَ وتقوَى بَايزيدَ ... فيهمَا مِفْتَاحُ كِنزِ العالمينَ
أسكر الدنيَا بجامٍ واحدٍ ... فحوَى الدنيَا وضَمَّ المشْرِقينَ
هَا هُنَا الْحِكْمَةُ والدينُ القَوِيمُ ... وَهُنَاكَ الْحُكْمُ للدنْيَا يُقَامُ
كلُّ قلبٍ فيهِ للمجْدِ الصَّمِيمِ ... ثورةٌ تعلُو بهِ فوقَ المَرَامِ

* * *

لاَ تَقُلْ أَيْنَ ابْتِكَارُ المسلمينَ ... وسلْ الحمراءَ واشْهد حسنَ تاجِ
دولةٌ سارَ ملوكُ العالمينَ ... نحوهَا طوعاً يؤدون الخَرَاجَ

دولـةٌ تـقـرأُ فـي آيـاتِـهـا … مظهر العزةِ والـملـكِ الـحـصـينِ
وكـنـوزُ الـحـقِ فـي طـيـاتِـهَـا … دونَـهـا حـارَتْ قـلـوبُ الـعـارفـينَ
أرسـلَ الـشـكـرَ إلـى غـيـرِ انـتـهـاءِ … لـنـبـيِّ الله قُـدْسِ الـجـنـابِ
أشـعـلَ الإيـمـانُ نـاراً بـالـعَـراءِ … أوقـد الـنـورُ بـكـف مِـنْ تُـرَابِ
وحـبـاهُ الله مـنْ عـلـيَـائِـهِ … عـزمـةً قـلْ بِـهَـا سـيْـفُ الـغَـيـرِ
راكـبُ الـنـاقـةِ فـي صـحـرائِـهِ … سـارَ فـيـهَـا راكِـبـاً خـيـلُ الـقـدَرِ
كـبـرُوا لله فِـي ظـل الـحـروبِ … وصـفـوفـاً تـحـتْ ظـلِّ الـمـسـجـدِ
ضـجـةٌ دانَـتْ لـهـمْ فـيـهَـا الـشـعـوبُ … وارتـقُـوا فـيـهـا مـكـانَ الـفـرقَـدِ

* * *

وَيْ كـأَنْ لـمْ تُـشْـرقوا في الكَـائِـنَـاتِ … بِـهَـذِي الإيـمـانِ والـنَّـهْـجِ الـرَّشِـيـدِ
وَنَـسـبْـتُـمْ فـي ظـلامِ الـحـادِثـاتِ … قـيـمـةَ الـصَّـحْـرَاءِ فـي الـعـيـشِ الـرغـيـدِ
كُـلُّ شـعـبٍ قـامَ يَـبْـنِـي نَـهْـضَـةً … وَأَرَى بـنـيـانَـكُـمْ مُـنْـقَـسِـمَـا
فـي قـديـمِ الـدهـرِ كُـنْـتُـمْ أُمَّـةً … لـهـفَ نـفـسِـي كَـيْـفَ صِـرْتُمْ أُمَـمَـا
كُـلُّ مَـنْ أَهْـمَـلَ ذَاتِـيَـتَـهُ … فَـهُـوَ أَوْلَـى الـنَّـاسِ طُـراً بـالـفَـنَـاءِ
لَـنْ يَـرَى فـي الـدَّهْـرِ قَـوْمِـيَّـتَـهُ … كُـلُّ مَـنْ قـلـب عَـيْـشَ الـغُـرَبَـاء
فَـكِّـرُوا فـي عَـصْـرِكُـم واسْـتَـبِـقُـوا … طَـالَـمَـا كُـنْـتُـمْ جِـمَـالاً لِـلْـعَـصْـرِ
واملأُوا الـصـحْـرَاءَ عـزمـاً واخـلُـقُـوا … مَـرَّةً أُخْـرَى بِـهَـا رَوْحَ عُـمَـرِ

١٢ ـ الثورة والوحدة

(٢)

شعر رمزي يصور لنا فيه إقبال عظمة الفطرة الإنسانية ومقام المؤمن في تقدير ربه. وإقبال في هذه القصيدة يدعو إلى الوحدة الإسلامية ويخوف

المسلمين من شبح الفرقة الرهيب الذي مزق لغتهم وأضعف من قوتهم وقد تناول ذلك كله في شعر رمزي يلمع فيه إلى الأشياء إلماعاً مستنهضاً عزيمة المؤمن، منبهاً إدراكه إلى ما في الوحدة الإسلامية من سعادة ينعم في ظلها الجميع قال:

يا أرْضُ أنّى مِنْ تُرابِكِ قَبْضَةٌ　　وَتَرى الكواكبَ إنّني مرآتُها
أنا مِنْ غُبارِ الشّعْب أمْ اسكندرٍ　　عندي الحياةُ وَمِنْ دَمي ثوراتُها

* * *

الأرضُ لا تُخفِي حقيقة جَوْهَري　　أنَا مَقْصِد التّقْدِيرِ في الأكْوانِ
وحقيقتِي نورٌ فَمَا لِي سابِحٌ　　في لجةِ الظّلماتِ والأشجانِ

* * *

أنَا في رمالِ البيدِ كنزٌ مُختفٍ　　حَجَبَتْ نضارِي هذِه الصحراءُ
لم أحنِ رأسِي خاشعاً إلاّ لمنْ　　بيمِينِهِ الإحْياءُ والإفْنَاءُ

* * *

فقري لخلاقي غنًى عنْ خلقهِ　　فأنا الغنيُّ وإنْ غدوتُ فقيرا
وأرَى فناءَ العَيشِ خيراً للفَتَى　　مِنْ أنْ يعيشَ عَلَى الفناءِ أسيرَا

* * *

أنَا أمةٌ فيمَا أريدُ لأمتِي　　ولايتِي دنيا مِنَ الأجْيَالِ
وأرى بمنظارِ الحقيقةِ كُلّمَا　　بيديهِ فِي الحقِ الصريحِ خيالِي

* * *

قمْ أنقِذْ الوطنَ الكريمَ ولا تَنَمْ　　هذِي الحوادثُ أذِنَتْ بدُخَانِ
إني لألْمحُ فِي السّمَاءِ تآمُراً　　وأرَى طلائِعَ وَابِلِ النّيرَانِ

* * *

ما خلق لِروحِك مِنْ زَئيرك نَشْوَة　　فِي المجدِ ترهبُ في العرينِ أسُودَا
واجعلْ نشيدُكَ قول رَبّك لاَ تَخَفْ　　حتّى يخافُ البرقُ منكَ رعودَا

* * *

دُنْيَاي آلاَم تُذِيبُ حَشاشَتي لاَ تَمنعُونِي أَنْ أَبُثَّ جُرُوحي
إنّي سَأُوقِد فِي القُلُوبِ شمُوعًا وَأُرِيدُ شُعْلَتُهَا بِجذوةِ رُوحِي

* * *

اليومُ أسمعكَ احتَدام شَاعِرِي وصرَاخ إيمَانِي وَصَوتَ مُنَايَا
المستحيل بدا لعيني ممكناً سأرى الخليقة ما رأت عينايا

* * *

وغداً سأجمعُ ذلك الحُبّ الّذي نَثَرتُه فِي ظُلُمَائِها الأهْوَاء
لأرُدّه عقداً سَلِيماً حالِياً تَغْنُو لِحُسْنِ نِظَامه الجوزَاء

* * *

لِمَ لَمْ يعرف قلبُك المجدَ الّذي لَمْ يزدهِرْ إلا بأصلكِ فِي الْقِدمِ
وبقيت فِي أرضِ المذَلَّة لا ترى كَالْعَينِ إلاَّ مِثْل آثَار الْقدَم

* * *

أَتعيشُ بَيْنَ المؤمنينَ مُفَرِّقاً للمسلمينَ وتَدَّعِي التوحِيدَا
وتظَن ذِكْرُك طَاعة وعبادَة وهواكَ صارَ آلهك المعبودَا

* * *

فَإذَا بَدَا لَكَ فِي الحياةِ تَغَيُّر فَاعْلَمْ بأنّك أنت قَدْ غَيَّرْتَها
صور مُشَوَّهة تَرَاهَا باكِياً أنسيتَ أنَّكَ هَكذا صَوَّرْتَها

* * *

مِنْ نورِ عَيْنك أرْسِل الضُّوء الّذِي تَهفُو الفِرَاشُ لِنَارِه وتُحَلِّق
مِنْ دَمْعِ عَيْنك أرْسِل الغيثَ الّذِي مِنْ فَيضِه يجرِي السَّحَابُ المغدقُ

* * *

الشَّمسُ لم ترفعْ بمشرقِ نُورِهَا وَرَق الغصُون الأخضَرِ فِي الأشْجَار
مَنْ كَانَ مَعْدَنَهُ الرُّقي فَأنّه مِثْلَ النَّدَى يعلُو مِنَ الأنْوَارِ

* * *

وشَرَارَةُ الحُبُّ المقدّس تجعلُ الـ قلبَ المعذّب شُعلَةً مِنْ نُورِ
والقلبُ فِي خَمْرِ الصبَابةِ يزدهِي خصباً وينبتُ فيه نخلُ الطُّورِ
حريةُ الأوطانِ ينمُو غرسُهَا فِي الاتّحادِ عَلى هُدَى الإِيمَان
أمّا امتِيَاز أنَا وأنْتَ فإنَّهُ شوكُ الرَّدَى والذُّل والحرمَان
مَنْ يَجْنِي أشْجَارَ الخِلاَف فإِنَّمَا يَجْنِي الضّريعَ ويحصُد الزَّقُّومَا
قد مَزَّقَتْ أجْيَالُ آدم بعدَما أفضتْه مِنْ غرفِ الجنانِ قَدِيمَا
لم ألقِ فِي هَذا الوجودِ سَعَادَةً كمَوَدَّة الإِنْسَانِ للإنسانِ
لما سَكِرْتُ بخمرِهَا القدسيّ لم أحتَجْ إِلَى تِلْكَ الَّتِي فِي الحَانِ
مَعْنَى احتِرَاق القَلْبِ في الإخلاصِ أنّ القلبَ يصبحُ كُلُّه أنْوَارا
ولقد تحَوّلت الفراشةُ شمعة مَا أن احترَقَتْ فأضحَتْ نارا

١٣ ـ فقر الصالحين

(٣)

يَا عَبيد المَاء والطِّين اسمعُوا مَا هوَ الفقْر الغَنِي الأرْفَع
هُوَ عرفَان طريق العَارِفين وارتوَاء القَلْب مِنْ عينِ اليقين
ذلِكَ الفقرُ عزيز فِي غِنَاه هَامَةَ الجوزَاء مِنْ أدنَى خُطَاه
يرعشُ الدَّهرَ إذا دَوَى صَدَاه لَيسَ غَير الله فِي الكونِ إلـه
خَاشِعٌ لله ذيَاك الفقِير وإليه خاشعاً يَسْعَى الأمِير
حَالُهُ شَوْق وَذَوْق وَرِضَا ثُمّ تَسْلِيم بِمَا الله قَضَى
يَا لَهُ فَقراً به الكوْن صَفَا فَهُوَ مِيرَاثُ النّبِي المُصْطَفَى
لَيلَةُ المظلمُ للمجد سراج يصنعُ الجوهَر مِن أدنَى زُجَاج
رُبَّمَا غَيَّر نَامُوس الفَلَك وازدهَى من نورِه نورِ الملك

ذلك المسكينُ في رُقْعَتِهِ ... يَسَعُ العالمُ في مُهْجَتِهِ
صامت ليسَ يطيلُ الكلما ... وَهُو بالصَّمت يُربي الأُمَمَا
جعَل العصفُور نسراً في الفضاءِ ... فبدَا للأرضِ تفسير السَّمَاء
مسلم دَوْلَته فوقَ الحصيرِ ... كان يخشَى بأسه ألفِ سرير
يتلاشى الجمرُ في نيرانِه ... ويخافُ البحرُ مِنْ طَوَفانِه
لم يحدْ شَعْب عَنْ النَّهج المنير ... وَلَدَيْه مثل ذَيَّاكَ الفقير
فَامْتَحن وَجْهَك في مِرْآتِه ... عَلَّه يُحَيِّيكَ مِنْ آيَاتِه
فقرُنا لَيْسَ برقصِ أوْ غِنَاء ... ليس سكر النفس في موت الرجاء
فقْرُنا مَعْنَاه تَيْسِير الجهُودِ ... فقرُنا معناهُ تَسْخِيرُ الوجُود
فقرُنا العَادِي سِرَاج لَوْ ظَهَر ... يخجلُ الشمسُ ويزري بالقمرِ
إنَّهُ إيمَانُ بَدْر وحنين ... إنّه زِلْزَال تَكْبِير الْحُسَيْنْ
صَاحَ دَعْنِي أكْتُم الْهَمَّ الدَّفِين ... إنَّ كَأْسِي لَيْسَ يَرْوِي الْعَابِثِين
مَنْ تَكُنْ هِمَّتَهُ نَسْج الحَصِير ... فَهُوَ لاَ يَعْلَم مَا نسج الْحَرِير
فَلْيَكُنْ يُوسف للذّئب طعَاماً ... ثُمّ لاَ يُصْبِح للضَّيْم غُلاما
ليسَ للشيطانِ فِينا مَطْلَبُ ... لاَ وَلاَ لِلِّصِ فِينَا مَأْرَبَ
فَكنُوز الدِّين قَد طَارَتْ شُعَاعاً ... وَتُرَاث المَال قَدْ أمْسَى ضِيَاعاً
منزل الشَّاهِين فِي أوجِ السَّحَاب ... مَا لَه يَسْكُن فِي وَكر الغُرَاب
لَمْ يَزَلْ فِي الرَّوْضِ ظلٌّ وَثَمَرْ ... فَالْتَمِس عُشَّكَ فِي أعْلَى الشَّجَر
أيُّهَا الشَّادِي بقرآنٍ كَرِيم ... وَهُوَ فِي رُكْن مِنَ الْبَيْتِ مُقِيم
قُمْ وأبْلِغ نُورَه لِلْعَالمِينَ ... قُمْ وَاسْمِعه الْبَرَايَا أجْمَعِين
إنْ تَكُون فِي مِثْلِ نيرانِ الخَلِيل ... أسْمَع النُّمْرُودَ تَوْحِيد الْجَلِيل
مَنْ لَهُ مِنْ ثرْوَة الْهَادِي نَصِيب ... فَهُوَ مِنْ جِبْرِيل فِي الدُّنيَا قَرِيب
حينَمَا آمنتُ بالله الأحَدِ ... لَمْ أذَل النّفْس يَوماً لأحَدِ
إنْ أكُنْ فِي صُورةِ النَّمْلِ خِفَاءِ ... لَسْتُ أرْجُو مِن سُلَيْمَان عَطَاء

يَا غَرِيباً عَنْ مقامِ المصطَفَيِ عُدْ إِلى الحَقِّ تَجِدْ نُورَ الصَّفَا

١٤ ـ الأبيقوريون ـ اتباع أبيقورس

سارت بلاد اليونان قديماً سيراً حثيثاً من مهد طفولتها حتى بلغت رشدها وكانت كما سبق البيان في سيرها هذا بمثابة شاب خرج من المنزل إلى المكتب ومنه إلى أن دخل معترك الحياة العملية فشاب كهذا حتى بلغ هذا الحد الذي يلوح له طبعاً أنه يختلف كل الاختلاف عما ألفه لا بد وأن يخطر على باله سؤال مهم فلنسأل هذا السؤال عن بلاد الإغريق نفسها لنرى بماذا أجاب عليه بعض زعمائهم ومؤسسي شيعهم في الفلسفة والاجتماع أما السؤال فلا يخرج عن أن يصاغ هكذا «ما هي المبادىء التي نسير عليها في حياتنا». فبين الذين أجابوا عليه كان الفيلسوف أبيقورس الذي تعد إجابته من أشهر ما جاء بهذا الصدد وهي قائمة في أن أصدق المبادىء وأحسنها حصول المرء على ما يمكن حصوله عليه من السعادة وإننا نحيا لمجرد الحصول على تلك الأمنية وبمقتضى هذا المبدأ أو القانون ليس على المرء إذا رغب في أمر أن يسأل هل يتمه أم لا بل بالأولى أن يسأل فيما إذا كان إتمامه أو عدمه يجعله أحسن حالاً وليس عليه أن يسأل فيما إذا كان التفوه بالكذب صواباً أو هل من الصواب سلب الآخرين ما لهم أو الأخذ بناصرهم إلى غير ذلك من الأسئلة بل بالأحرى أن يسأل نفسه أيهما يصيره أسعد حالاً معالجة تلك الأمور أو الإعراض عنها.

وقد توصل أبيقورس بواسطة هذا المبدأ إلى حكم عالية ومبادىء أدبية أخرى أسمى مما كان ينتظر منه حسب الظاهر فقرر أن فاعل الصواب أسعد حالاً من فاعل الخطأ وأن الاعتدال والفضيلة والأمانة جميعها مدعاة إلى السعادة أكثر من الإفراط والرذيلة والخيانة.

يعترض المبادىء الأدبية المؤسسة على الرغبة في السعادة عقبتان أولاهما

أن من يوقف حياته على مجرد نوال السعادة في الغالب لا يظفر بها كمن يوقفها على أمر آخر ومن أحسن ما يجب ادّخاره من الأسرار والمبادىء فيما يخص السعادة هذا المبدأ وهو - أن كل الذين يتخذونها غرضهم الوحيد في الحياة الدنيا هم أكثر قابليةً للفشل والسقوط ممن لم يعانوا أتعاباً أكثر من اللازم في سبيل الحصول عليها إذا فكر الفرد في أن يحيا لينال السعادة تسرب إليه طبعاً الميل إلى أن يوقف حياته على مجرد تلذيذ نفسه بملاذ الحياة وملاهيها وفي الواقع ليس على النفس أشق وأدق من عمل الراغب في لذتها والميال إلى إطاعة شهواتها ومجلبات سرورها ونعيمها نعم إن للراغب فيها أسلوباً كغيره من أفراد الهيئات ولكن أسلوبه قد يستحيل إلى عادة لتكراره على وتيرة واحدة بغير أن يجهد فكره في تحسينه أو إصلاحه.

وتتناول لذة الفرد أموراً أدبية أخرى قد يرتاح لها وأعمالاً حسنة يستحسنها الذوق ولكنها من حيثية نوال السعادة من طريق الملاذ بعيدة عن كل عمل جدي وقريبة من الهزل الذي يذهب ببهجة الفرد وهيبته إذ أن الصبي الذي تعوّد المقامرة يومياً لا يلبث قليلاً حتى يطبع في نفسه أمر تفضيلها على كل عمل جوهري حيوي وإليك سبب ثانٍ يؤيد الحقيقة السالفة القاضية بأن من يحيا لمجرد نوال السعادة قلما يفوز بها ذلك أن الفرد لا يمكنه أن يوقف على لذته إلا قسماً من حياته فقط مثال ذلك أن بين الصبية عدداً قليلاً جداً ليستطيع إيقاف كل الوقت على اللعب أما أغلبهم فمكلفون بالذهاب إلى المكاتب أو بتأدية أعمال أخرى فمن كان منهم همه مقصوراً على اللعب رأيت التعب والقلق ظاهرين عليه من جراء تأنيبات ضميره لإغفاله الواجبات الأخرى المطلوبة منه ولذلك فهو لا يجد شيئاً آخر يفرج به عن نفسه إلا ظهوره على مرسح اللعب وهذا طبعاً لا يستغرق سوى جزء قليل من اليوم ولذلك فالباقي المخصص لواجباته الجدية وأعني به أكثر يومه يذهب سدى دون أن يحصل فيه على أدنى فائدة فضلاً عما يعتريه عادة من عدم التجلد على مزاولة تلك الأعمال - أما من كان منهم همه منصرفاً إلى الاطلاع والمساعدة في الواجبات المنزلية

والاجتماعية فسروره لا يقتصر على أوقات لعبه فقط بل يتناول أوقات العمل أيضاً فالنتيجة من هذا أن كل صبي لا يهتم بغير اللعب لا يتمتع في أوقات السرور إلا بجزء ليسير من يومه وبعكس ذلك من يهتم بمزاولة واجباته الأخرى فإنه يظل طول يومه مسروراً وثالث بل أهم سبب يدعو إلى الفشل الذي يصيب من يوقف حياته على نوال السعادة هو الحقيقة القائمة في كون السعادة لا تصدر غالباً إلا من مزاولة أمور خارجة عن الإنسان نفسه وبعبارة أوجز أنها تصدر من تأثير الوسط فقد يغلب صدورها مثلاً عن نسيان الإنسان نفسه أو عن انهماكه فيما يصبو إليه وكل من كان همه محصوراً في طلب لذته فهو عبد لشهواته ولا يتجاوز سعيه غير شخصه (وكأني به يقول مع الشاعر العربي ونفسي لم أجد نفساً سواها) فمثل هذا قلما يخلص من ربقة العبودية ليدخل إلى حظيرة الحرية الصحيحة حيث يجد السعادة الحقيقية ينتج إذا أن من حصر همه في بلوغ لذته وإرضاء شهوته كان حصوله على أمنيته غير مضمون كمن أوقف سعيه على غير هذا الغرض وهذه هي العقبة الأولى التي تعترض مبدأ الفيلسوف أبيقورس أما العقبة الثانية فتقوم في أنه لو أدى التأثير على الفرد إلى شعوره شعوراً حقيقياً فإن اللذة هي أهم أغراض الحياة فإن ذلك يؤدي به ولا محالة إلى الاعتصام بأسهل وأقرب ما لديه من أنواع تلك الملذات من التعاليم المأثورة عن هذا الفيلسوف أن الاعتدال أكثر مجلبة للسرور من الإفراط فكيف إذا بمن يقول إن أسعد حياة عنده أن يأكل ويشرب ويعيش في الأرض مرحا (المترجم. وكأني به يقول مع الشاعر العربي

تمتع من الدنيا بساعتك التي ظفرت بها ما لم تعقك العوائق

فما يومك الماضي عليك بعائد ولا يومك الآتي به أنت واثق

ومن المأثور عنه من الحِكَم قوله إن الأمانة أكثر جلباً للسعادة من عدمها فكيف بمن يثق في نفسه أنه بما يحصل عليه من المال بفضل تحايله ودهائه أسعد منه في حالة تجرده منه (المترجم. وكأني به قد اعتصم بقول شاعر العرب

إن الدراهم في الأماكن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا

فلا أدري إذاً كيف كان رد ذلك الفيلسوف على من اقتنعوا بأن هذه الوسائل أهم ما يؤدي بمن أخذ بأسبابها إلى اكتساب السعادة.

نعم إن كل فرد تعود الأمانة بمجرد تلقينه أنها من أحسن الفضائل التي يتجلى بها المرء معرض في الغالب للمروق عنها متى ما رأى أنها تقريباً كغيرها من الفضائل مقرونة بالإفلاس.

لا مناحة أن لفظ «أبيكيور» (عند الإفرنج) ومعناه النهم أو الشراهة مشتق من اسم أبيقورس الفيلسوف المعروف إلا أنه رغماً عما يزعم البعض وعما تقتضيه دلالة اللفظ فإن ذلك الرجل العظيم لم يكن هذا مبدأه ولم يكن التأنق أو البذخ نتيجة تعاليمه مسلم أن من واجبات الفرد أن يسعى وراء السعادة إلا أنه لا ينبغي إنزالها منزلة الكل في الكل بل يجب عليه أن يتخذ نصب عينيه في الحياة الحاضرة غرضاً أسمى وأمنية أعظم من السعادة المقصودة أعني بذلك أن الفرد لا يعمل الصواب أو يأتي المعروف والرحمة لمجرد زعمه بأن إتيان أمثال هذه مما يزيد سعادته الشخصية ـ حاشا ـ بل ينبغي عليه أن يعمل الصواب لأنه صواب وحق أن يكون شفيقاً وذا عطف لأنه مكلف بالعناية بذويه ومن يلوذون به.

وأقصى ما يؤثر عن فيلسوفنا المشار إليه أنه من المحتم على الإنسان أن يطلب السعادة من طريق الفضيلة وأن الرذيلة لا بد وأن تجلب الشقاء إما عاجلاً أو آجلاً.

١٥ ـ مسجد القرطبة

كتب إقبال قصيدة مسجد القرطبة متأثراً بمشاهدة الآثار والعمائر الخربة بالأندلس. وفي القصيدة ثمانية أقسام:

فالقسم الأول خاص ببيان حقيقة الزمن وزوال العالم، والقسم الثاني أوضح فيه مزايا العشق. والقسمان بمثابة تمهيد، وفي القسم الثالث خطاب بمسجد القرطبة. وبيّن فيه أن هذا المسجد أساسه الإيمان المعبّر عنه بالعشق، وفي القسم الرابع حدث عن عظمة المسجد وبشر فيه ضمناً ببقاء الملة الإسلامية، وفي القسم الخامس قدم صورة للرجل المؤمن، وفي السادس تناول عظمة العرب وفتوحاتهم وفي السابع تحدّث عن ثورات أوروبية وانقلاباتها، وفي الثامن بشر بنهضة المسلمين القادمة في نوع من الإلهام.

١٦ ـ قصيدة مسجد القرطبة

سلسلة الليل والنهار نقش للحادثات وتتابع النهار والليل أساس للحياة وللممات، وسلسلة الصباح والمساء سلك الحرير ذي اللونين، ذلك الذي تصنع منه الذات قباء صفاتها، وسلسلة الليل والنهار أنين قيثارة الأزل، الذي تقدم منه الذات ممكنات الزير والبم، يختبرك هذا ويختبرني هذا، سلسلة الليل والنهار صير في الكائنات، لو كنت أنت قليل العيار، ولو كنت أنا قليل العيار، موتك بشارة وموتي بشارة، ما هي حقيقة ليلك ونهارك؟ سير الزمن الذي لا ليل فيه ولا نهار، المستقبل والماضي كلاهما من معجزات الفن، أعمال الدنيا بلا ثبات، أعمال الدنيا بغير ثبات، أولها وآخرها فناء، باطنها وظاهرها فناء، النقوش والصور قديمها وجديدها، آخر منازلها فناء، ولكن في ذلك النقش لون الثبات والدوام ذلك الذي أتمه رجل الله، عمل رجل الله في تقدم مستمر من العشق، العشق أصل الحياة، والموت عليه حرام محرم، ولو أن كان سير الزمان سريعاً ولكن العشق بنفسه هو السبيل الذي يمسك السبيل، في تقويم العشق سوى العصر الجاري توجد أزمنة لا أسماء لها، العشق نفس جبريل والعشق قلب المصطفى. العشق رسالة الله، والعشق كلام الله، إن هيكل الزهر متلألىء من سكر العشق، العشق صهباء خام،

والعشق كأس الكرام، العشق فقيه الحرم، والعشق أمير الجنود، والعشق ابن السبيل، له آلاف المقامات، هن مضراب العشق نغمة وتر الحياة من العشق نور الحياة، ومن العشق نار الحيارة.

١٧ ـ من قصيدة مسجد القرطبة

قد نظم إقبال هذه القصيدة الخالدة عن مسجد القرطبة في مسجدها الكبير الأثري، في الأندلس الإسبانية اليوم، وقد انقطع الأذان عنه منذ قرون ورغم ذلك فإنه قمة مساجد العالم فطوله ٦٤/١ وعرضه ٤٤٠ قدماً، وسعته تفوق جميع مساجد العالم قد أنفق في بنائه أكثر من خمسة عشر مليون دينار، وأسسه عبدُ الرحمن الدّاخِل على مثال جامع دمشق، وأكمله خلفاؤه، وفي عام ١٣٣٦ الميلادي، حول إلى الكنيسة في الغزو الإسباني، وبنيت كنيسة صغيرة في ظل محرابه، ويشير إقبال إلى هذا من قوله: العالم الحديث لا يزال خلف ستار القدر، وهو خير مثال للمعمار العربي، والقصيدة أيضاً في بنائها كبناء المسجد قيمة وقدراً.

«يا حرم قرطبة إن وجودك قام على العشق والإيمان، وهو من الرأس إلى القدم خلود، لا يقال فيه ذهب وكان، وهو أزلي دائم اللون واللبن والحجر والموسيقى والكلمات ذات الحروف والأصوات، ظهور إعجاز الفن من دماء الكبد، وتتوقف هذه الفنون كلها على العشق وصدق الإيمان، وإن عاطفة العشق تخلق الحياة فيما لا حياة فيه، والصوت يجد تأثيره من العشق فالمحرقة في الموسيقى من القلب لا من خشب المعزف، ومن الشعور لا من الأوتار فضاؤك مضيء للقلب، وأناتي محرقة الصدور فمنك حضور القلب ومنّي تفتح القلوب، وليس صدر الآدمي المؤمن أضيق من ساحة العرش الأعلى، فلو أن قبضة التراب محدودة في هذه الدنيا، ولكن حب الله فيها عميق مركز، ومع أن الهياكل

النورانية في مجال التسبيح والحمد ولكن حرقة العشق مفقودة فيها، ولو أني كافر هندي، ولكن انظر إلى ذوقي وشوقي ففي القلب صلوات وعلى شفتي أيضاً صلوات.

الشوق في أنغام والشوق في أنين ونغمة «الله هو» تجري في كل عروقي، جلالك أيها المسجد وجمالك برهان رجل الله، فهو جليل وجميل وأنت أيضاً من أنواره جليل وجميل بناؤك محكم وأعمدتك لا تعد (عدد الأعمدة ١٤١٧) كما توجد كثرة أشجار النخيل في صحراء الشام، على أبوابك نور وادي الأيمن، ومينارتك الشاهقة مكان جلوة جبريل (ارتفاع المينارة (١١٠) قدم) لا يمكن أن يمحى رجل الله، لأنه قد انتشر وذاع سر الكليم والخليل من أذانه، أرضه لا تحد حدودها، وأفقها بغير ثغور تحدها وأمواج بحره الدجلة والدينوب والنيل حيث كان حكم الإسلام في عهد العثمانيين، ففي عهد السلطان سليمان القانوني كانت هذه الأنهار الثلاثة خاضعة له زمانه عجيب وقصته غريبة، ولو أن المسلمين فيما مضى كانوا في المستوى الرفيع فما زال المسلم حتى الآن في المحبة والشجاعة مثل أولئك، يملكون ثروة عشق الرسول سقاة أرباب الذوق، وفرسان ميدان الشوق، خمره رحيق وسيفه أصيل، هو رجل جندي، درعه لا إله إلا الله، وترسه في ظل السيف لا إله إلا الله، قد انكشفت بك أسرار العبد المؤمن، وحرقة أيامه وذوبان لياليه، مقامه عال رفيع وخياله رحيب عظيم سروره القديم وشوقه القديم تضرعه ودلاله، يد الله يد العبد منتصر خلاّق فاتح صناع طبعه ترابي ونوراني، عبد يحمل صفات السيد، قلبه مستغنٍ عن العالمين، أطماعه قليلة ومقاصده جليلة، دلاله جذاب القلوب، ونظارته مستميلة الأرواح، لين عند الحديث، شديد وقت البحث في جيش الحرب وفي محافل السّلم، طاهر القلب نقي الروح، يقين رجل الله نقطة محور الحق والعالم سواه وهم وطلسم ومجاز منزل العقل هو، وحاصل العشق هو، وفي حلقة الآفاق حرارة المحفل والمجتمع هو يا كعبة أرباب الفن ويا سطوة الدين المبين، نالت بك أرض الأندلس رتبة الحرم، لو كان ثمة تحت القبة الزرقاء مثل لجمالك فلا يوجد إلا

في قلب المسلم، ولا يوجد في مكان سواه. آه أولئك رجال الحق فرسان العرب حاملوا الخلق العظيم. أصحاب الصدق واليقين، الذين أسفر عهد حلمهم عن هذا الرمز الغريب! سلطنة أرباب القلوب فقر وليست بملوكية الذين نظراتهم نهضت بتربية الشرق والغرب، الذين كانت حقولهم مرشدة هادية في ظلمات أوروبا، ومن فصل دمائهم يوجد حتى الآن الأندلس منشرح الصدر، ونشيط العشرة، ساذج مشرق الجبين، وحتى الآن لا تزال جاذبية مقلة الغزال وسهام النظرات حتى اليوم تصيب الأفئدة، عبير اليمن يوجد في نسيمها حتى اليوم، ولون الحجاز في عذاب أصواتهم إلى اليوم إن أرضك سماء في أعين النجوم واحسرتاه: إن فضاءك منذ قرون بغير آذان في أي واد وفي أي منزل توجد قافلة العشق المثيرة البلاء، القوية الروح لقد شاهدت «ألمانيا» ثورة إصلاح الدين ذلك الذي لم يدع أثراً لأي نقش قديم وصارت عصمة كاهن كحرف مغلوط، وجدت سفينة الفكر الضعيف، وقد شاهدت عيون «فرنسا» أيضاً انقلاباً تزلزل منه عالم الغرب، وأهل «روما» قلقون من تقليد الأقدمين وصاروا شباباً من نشوة التجديد وتنسى ذلك القلق والاضطراب في نفس المسلم إن هذا سر إلهي لا يمكن أن يكشفه لسان، انظر ماذا نقفز من أعماق هذا البحر وماذا تخيره القبة الزرقاء من لون جديد إن السحاب غريق الشفق العنابي في أودية الجبال، وتركت الشمس تلاً من أمل بل خشان وأغنية بنات القرى ساذجة ومحرقة إن عهد الشباب سيل يدمع سفينة القلب، على شاطىء النهر الكبير الجاري يحلم إنسان حلم زمن من الأزمان، العالم الجديد لا يزال في غيب التقدير وفي عيني يبدو سحره بغير حجاب فلو رفعت الستار عن وجه الأفكار، لا يحتمل الافرنج قوة صراخي ولا يؤمنون به، الذي لا توجد فيه ثورة فحياته موت حياة روح الأمم ضجيج الانقلاب، إن تلك الأمة التي تحاسب عملها في كل زمان هي مثل السيف في يد القضاء. كل النقوش بغير دماء الكبد ناقصة وغير ناضجة، النغمة جنون نيء بغير حركة دماء الكبد.

١٨ ــ السلطان مراد والمعمار

كان يسكن في ولاية خجند معمار في عهد السلطان مراد، وخجند مدينة في تركستان اغتصبها الروس سنة ١٨٨٦ الميلادية وكان سكانها أتراك من قبيلة تاجيك وتشتهر بتجارة الحرير والأواني الصينية، وكانت مركزاً هاماً للعلم والفن في عهد الحكم الإسلامي، وتقع خجند على مسافة ٧٥ ميلاً من فوقند، وعدد سكانها سبعة وثلاثون ألفاً.

أمر السلطان مراد هذا المعمار ببناء مسجد فأتمه، ولم ينل رضا السلطان واستشاط غضباً وقطع يده، فذهب المعمار إلى قاضي المدينة وقال: أنت أمين على شريعة سيد الكونين، ونظراً بأني مسلم فلا يمكنني أن أقضي حياتي عبد السلطان، لأن الإسلام والعبودية ضدان، ولذا حضرت إليك لإنجاز حكم الإسلام، وأسأل أهذا السلطان مجرم أم لا؟ وبعد أن استمع القاضي إلى شكواه أمر بإحضار السلطان، ولما وصل إليه أمر القاضي أصابه الرعب، وحضر كأي مجرم في المحكمة، ونظراته تنم عن الخجل وقام في ناحية مقطوع اليد، وفي الأخرى المصفر الوجه المتوج وشهدت السماء منظر المساواة على الأرض، فسأل القاضي الملك هل لديك دفاع؟ أجاب بالاعتراف فحكم القاضي بالقصاص نزولاً على أمر الله في القرآن: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ وماجيت في قلب المعمار مشاعر تلك الأخوة الإسلامية وقال للقاضي: إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإني رضيت بالإحسان مكان العدل في مرضاة الله ورسوله، وقال إقبال: انظروا إلى شوكة قانون الإسلام وطاقته فقد غلبت النملة سليمان، ففي هذا القانون يستوي السيد والعبد وعرش المليك وحصير الفقير، ورسول خصّه الله بالشفاعة العظمى يوم القيامة لجميع الخلق حين يعز على الأنبياء أن يشفعوا. وحين أقرأ أمر الله من لا تأمنوا مكر الله فإني أخاف وأفزع، ولكن حين أقرأ قوله: ولا تيأسوا من روح الله أطمأن وأتشجّع، وإنني منذ عرفتك

روحي تفانيت في حبك ونسيت وجودي، فلا تسود وجهي بذنوبي، فإن لي انتساباً إليك بالإسم: (كما قال شوقي أمير الشعراء:

أبا الزهراء قد جاوزت قدري لمدحك غير أن لي انتساباً).

١٩ ـ السلطان مراد والمعمار أمام القاضي

قَضِيَّةٌ مِنْ قَضَايَا العَدْلِ خَالِدَةٌ ... تَبقَى لِشَرْعِ رَسُولِ اللهِ بُرهَانَا

مهَندسٌ من ديارِ التُّركِ شُهرَتُه ... كَانَتْ لأُمَّتِه فِي التُّركِ عنوانَا

بَنى بأمرِ مُرادٍ مَسْجِداً كَمُلَت ... فِيهِ المَحَاسِنِ إبدَاعاً وإتقَانا

بَنَاه مُعجِزَةً فِي الفَنِّ بَاهِرةً ... فِي مَظْهَرٍ يَتَحدَّى الوَاصِف إنْ كَانَ

وَكَانَ يَطْمَعُ فِي الحَظِّ الجزيلِ أوْ القَ ... ولِ الجَمِيلِ بِمَا أدَّاه عُرفَانَا

لَكِنَّ قَلبَ مُرَاد فَذٌ من حَجَر ... وَلَوْ يَلِينُ جَمَادُ الصَّخْرِ مَا لانَا

فَلَمْ يرقْ ذَلِك الصَّرحُ العظِيم لَهُ ... وبدلَ الشكرِ إجحافاً وبهتانَا

واشتَل خَنجَرَه فِي حِقدِ مُنتَقِم ... وَتَارِكاً لِضَيغَمِ الموتُور غضبانا

دَعا المهندس مُغْتَاظاً وكافأه ... لِيبتر سَاعِدَه عَسْفاً وطِغيانا

مَضَى المهندسُ للقاضِي ومَنظره ... يُدْمِي الحشَى وَيُحِيل البشر أحزانا

كَأنّمَا هُوَ طَيرٌ لاَ جَنَاحَ لَهُ ... فَمَا اسْتَطَاع بغَيرِ الدَّمعِ تِبيَانَا

وقَالَ يَا قَاضِي الشَّرْعِ الحنيفِ وَمَنْ ... أَقَامَ لِلعدلِ بالقرآنِ ميزَانَا

وقد جئت أنشد حكم الشّرعِ فِي ملكٍ ... ذِئبٍ تمثّل بين النّاسِ إنسانَا

أغَارَ سُلْطَانَه الْعَالِي بِقطعِ يَدِي ... والحَقُّ أعْلَى وَأقوَى مِنهُ سُلطَانَا

فَأرسَلَ الحاكمُ الشُّرطِيَّ فِي عجلٍ ... هَيَّا وَعُدْ بِمُراد حَيثمَا كَانَا

فَجِيءَ بِالغَادِرِ الجَانِي وَمَا شَهِدُوا ... مِنَ المُلوكِ عَزِيزاً قَبلَهُ هَانَا

وَرَاحَ يَسأَلُهُ القَاضِي فَجَاوَبَهُ ... هِيَ الحَقِيقَةُ لاَ أستَطِيعُ كِتمَانَا

قَالَ اسْتَمع حُكمَ جَبَّارِ السَّمَاءِ عَلَى ... مَنْ جَارَ فِي مُلكِه بغياً وعدوانَا

هَيَّا اقطعُوا يَدَهُ عَدْلاً بقطع يَد ظُلماً وهذا عِقَاب الذَّنب قَدْ حَانَا

وفِي القِصَاصِ حَيَاة آية نُزِّلتْ مِنَ السَّمَاء على المختارِ قُرآناً

فَمَا دَمُ الشَّعْبِ مِلْك للطغاة وَلاَ دمُ الملُوك بِأنْقَى مِنْهُ سَرَيَانَا

يَدٌ بَنَتْ لَكَ فِي أَوْج العُلاَ شَرفاً جَازَتْ صَاحِبُها بتراً وَحِرمَانَا

فَمَا يُفِيدَك بِنْيَان القُصُور إذا هدَمْتَ عن شَيْم المعروف بنيانَا

وَكَيْفَ يَسْتُرُك المنسُوج مِنْ حللٍ إذَا غدوت مِنَ الأخلاق عِرْيَانَا

فَقَالَ يَا قَاضِي الإِسْلاَم تِلْكَ يَدِي أسْلَمْتُها لِقَضَاءِ الله إذْ عَانَا

هَبَّ الْفَتَى وَأَزَاحَ الصّمتَ عَنْ فَمِهِ وضمّد الجرح بالمعروف جذلانَا

وقالَ إنَّ الّذي بالعدلِ يأمُرنَا مَا زَالَ يأمرُنا بالبرِّ غفرانَا

يا مَنْ قَضيتَ بحكم الشّرع مُحتسباً آنّي أرضيتُ مَكَانَ الْعَدلِ إحسانَا

إنّ الّذي خَلَق الدُّنيَا بقدرَتِهِ قَد وَحّد الخلقَ أجناساً وألوانَا

شَرِيعةُ العدلِ لَوْ دَانَ الجميعُ بِهَا لَمْ يَرهبْ النّمل بَطْشاً مِنْ سُلَيْمَان

فَلاَ نَرَى أَحَداً مُستعبداً أحداً الكُل لِلْكُلِّ أعْوَاناً وإخوَانَا

٢٠ ـ المريد المتمرد

لا نجد نحن حتى سراجاً من الفخار ولكن شيخنا مضيء متلألىء بمصابيح الكهرباء، المسلم ساذج مدنياً كان أو ريفياً يعبد سدنة الكعبة مثل الأصنام ليست النذور نذوراً لكنها ربح شيوخ الحرم، لقد استتر في خرقة الثالوث تاجر مستبد، من الذين ورثوا منصب الارشاد، ومن تصدف الغربان وكور العقبان.

٢١ ـ الفقر

فقر يعلّم الصياد القنص، وفقر تنكشف منه أسرار الملوكية وفقر ينشأ عنه الذّل والمسكنه والحزن، فقد توجد مزية الاكسير في التراب، فقر هو شبيري حسيني، ولكن فيه سيادة، وميراث المسلم رأس مال الشبيري.

معجزات الفقر التاج والسرير والجند، الفقر أمير الأمراء، الفقر ملك الملوك، مقصد العلم زكاة العقل والفهم، ومقصد الفقر عفة القلب والنظر، العلم فقيه وحكيم، الفقر مسيح كليم العلم طالب الطريق والفقر عارف الطريق الفقر مقام النظر، والعلم شيء ووجود الفقر شيء آخر، أشهد أن لا إله، أشهد أن لا إله، عندما يجد سيف الذاتية على محك الفقر، فضربة واحدة من جندي تعمل عمل جيش كامل، لو كان القلب في هذا التراب حياً ومستيقظاً حطم نظرك مرآة الشمس والقمر.

إني أذكر نكته سلمان المفرحة: إن الدُّنيا ليست ضيقة على الرجال الأقوياء المجدين، يجب أن يكون لديك كبد النمر وتجسس الشاهين، ويمكنك أن تعيش بغير نور العلم والأدب، وَتُبْ من تقليد البلبل والطاووس، فإن البلبل صوت فقط، والطاووس لون فقط.

الدنيا معبد الأصنام، والرجل الحق خليل، وهذه النكتة مستترة من لا إله، ذلك العالم عالمك الذي تخلقه أنت، وليس هذا الحجر واللبن عالمك المنظور.

تحمل مُرّ كلماتي في البستان، فإن السم أحياناً يعمل عمل الترياق.

٢٢ ـ الشّباب

أثاثاتك إفرنجية، وسجادتك إيرانية، تبكيني دمأ راحة الشبان وتنعمهم لو لم تكن فيه قوة حيدرية واستغناء سليمان فما حامل الإمارة والأبهة الملكية؟..

لا تبحث عن هذا في جلوة المدينة الخاضرة، فإني قد وجدت معراج المسلم في الاستغناء، وحينما تستيقظ الروح العقابية في الشباب فعند ذاك يشهدون منازلهم في السماوات.

لا تيأس فإن اليأس زوال للعلم والعرفان، رجاء المؤمن في عارفي أسرار الله، ليس وكرك على قبة القصر السلطاني، أنت شاهين أقضي حياتك في صخور الجبال.

٢٣ ـ فاطِمَة الزهراء (ع)

نسب المسيح بنى لمريم سيرةً	بقِيتْ علَى طولِ المدَى ذكراهَا
والمجد يشرقُ من ثلاث مطَالع	في مَهدِ فاطمةٍ فَمَا أعلاَهَا
هيَ بنتُ مَنْ؟ هِيَ زوجُ مَنْ هِيَ أُمُّ مَنْ؟	مَنْ ذَا يُدَانِي فِي الفخَارِ أبَاهَا؟
هيَ ومضة مِن نورِ عَيْنِ المصطفَى	هَادِي الشعوبَ إِذَا تروم هُدَاها
هُوَ رحمة للعالمينَ، وكعبة الآ	مال في الدنْيَا وأُخرَاهَا
مَنْ أيقظ الفطر النّيام بروحهِ	وَكَأنَّه بَعْد البَلاَ أحْيَاهَا
وأعَادَ تَاريخَ الحيَاة جديدَة	مثل العرائس فِي جديد حُلاَهَا
ولِزَوْج فَاطِمة بشورَة هَلَى أتى	تَاجٌ يفوقُ الشَّمس عِنْد ضُحَاهَا
أسَد بِحصنِ الله يَرْمِي المُشْكِلاَت	بصيقلٍ يَمحُو سطورَ دُجَاهَا
فِي رَوضِ فاطمةٍ نَمَا غُصْنَان لَمْ	يَنجبهمَا فِي النَّيراتِ سوَاهَا
فأمير قافلةِ الجهَاد وقُطْب ذَا	ئِرَة الوِئَام والاتّحَاد إِبْنَاهَا

حَسَنُ الَّذي صَان الجماعة بعدَما أمسَى تَفرقها يحلُّ عُراها
ترك الخلافة ثم أصبح في الذُّ يارِ إمامَ أُلفتها وحُسن عُلاها
وحُسين فِي الأبرار والأحرار مَا أزكى شمائله وما أنداهَا
فتعلموا ري اليقين منَ الحُسَين إذَا الحَوَادِث أظمأت بلظَاهَا
وتعلموا حُرية الإيمان من صَبْر الحُسَين وقد أجاب نداهَا
الأمهات يلدن للشمس الضِّيَاء وللجواهر حُسْنُها وثفاهَا
ما سِيرة الأبناء إلاَّ الأُمّهَا ت فَهُمْ إِذَا بَلَغُوا الرقى صداهَا
هِيَ أسْوَة للأمَّهاتِ وَقُدْوة يترسم القمرُ المنيرُ خُطَاهَا
لَمَّا شَكَا المحتاجُ خَلْفَ رِحَابِهَا رَقَّت لِتِلْكَ النَّفْسِ فِي شكواهَا
جَادَت لتنقذه برهن خِمَارِهَا يا سُحب أينَ نداك فِي جَدْوَاهَا؟
نور تهاب النار قُدْسَ جلاله وَمُنَى الكواكب أَنْ تَنَال ضِيَاهَا
جَعَلَتْ من الصبرِ الجميلِ غذاءهَا ورأتْ رضى الزوج الكريم رضاهَا
فَمُهَا يُرَتِّلُ أي رَبِّك بَيْنَمَا يَدَهَا تُدِيرَ عَلَى الشَّعِير رَحَاهَا
بَلَّتْ وِسَادَتُهَا لآلىء دَمْعُهَا مِنْ طُولِ خَشْيَتهَا وَمِنْ تَقْوَاهَا
جبريلُ نحو العرشِ يرفعُ دمعها كالطل يَرْوِي فِي الجنانِ رُبَاهَا
لولاَ وقوفِي عند أمْر المُصْطَفَى وحدود شِرْعَتِه ونحنُ فداهَا
لمضيتُ للتطوافِ حولَ ضَرِيحها وغمرتُ بِالقبلاتِ طيب ثراهَا

٢٤ ـ النشيد الإسلامي

الصينُ لَنا والعربُ لَنَا والهندُ لَنَا والكُلُّ لَنَا
أَضْحَى الإسلامُ لَنَا دِيناً وجميعُ الكون لَنَا وَطنا
توحيدُ الله لَنَا نُورٌ أعددنَا الرّوح لَهُ سكنا
الكونُ يزولُ ولاَ تمحى فِي الدَّهرِ صَحَائفُ سُؤْدُدِنَا

بُنِيت فِي الأرضِ مَعَابِدُهَا — والبيتُ الأوّل كعبتُنَا
هو أوّل بيتٌ نحفَظهُ — بحياةِ الرُّوح ويحفَظُنَا
فِي ظلِّ السيفِ تربينَا — وَبَنَينا العِزَّ لِدَوْلَتنَا
عَلَمُ الإسْلامُ عَلَى الأيَا — مِ شِعَار المَجْدِ لِمِلتنَا
بِهِلالِ النَّصْرِ يضيءُ لَنَا — وَيمثل خنجر سَطْوَتنَا
وَأذانُ المُسْلِم كَان لَهُ — فِي الغربِ صَدَى مِنْ هِمَّتنَا
قُولُوا لِسماءِ الكونِ لَقَدْ — طَاوَلْنَا النَّجْم برفعتنَا
يَا دَهر لَقَدْ جَرَّبْتَ عَلَى — نِيرَان الشِّدة عِزّتنَا
طَوَفَان البَاطِل لم يغرق — فِي الخوفِ سفينة قوتنَا
يَا ظِلَّ حَدَائِق أنْدَلُسٍ — أَنَسِيتَ مَغَانِي عِشْرَتنَا
وَعَلَى أَغْصَانِك أَوْكَار — عَمَرَتْ بِطلائعِ نشأتنَا
يَا دِجْلَتُ هَلْ سجّلت على — شَطَّيك مآثر عزّتنَا
أَمْوَاجك تَرْوِي لِلْدُنيا — وتعيد جواهر سِيرَتُنَا
يَا أرضَ النُّورِ مِنَ الْحَرَمَيْ — نِ وَيَا ميلاد شَرِيعَتُنَا
رَوْضُ الإسْلام وَدَوْحَتهُ — فِي أرضِكِ رَوَاهَا دَمُنَا
ومحمدُ كَانَ أمير الرَّكْ — بِ يَقُودُ الفوزُ لِنَصْرَتنَا
إنَّ اسمِ محمّد الهَادِي — رُوح الآمَالِ لِنهضتنَا
دَوَّتْ أنشودةُ «إقبال» — جرساً يَحدُو فيه الزمَانَا
ليعيدَ قَوَافِلُنَا الأولَى — في المجدِ ويبعثُ أمّتنَا

٢٥ ــ العشق

عندما يعلم العشق العبيد آداب معرفة النفس، تنكشف لهم أسرار الملكية.

فليكن المؤمن في ثواب العطار أو الرومي أو الرازي أو الغزالي ولكنه لن يفوز بغير آهات السحر وسلوك العاشقين.

لا تيأسوا أيها القادة العباقرة حين ترون القوم ضعافاً قليل المساعي، فإنهم غير فاقدي الشعور، فلو عرفتموهم حب الرسول لتجددت هممهم.

أيها الطائر الاهوتي، إن الموت لأفضل من ذلك الرزق الذي ضعف قوة طيرانك.

إن ذلك الفقير الذي فيه رائحة أسد الله (علي بن أبي طالب) لهو أجل قدراً من دار والإسكندر (الأمبراطورين).

إن ناموس الشباب قول الحق دون خوف وفزع، فإن أسود الله تأبى مكر الثعالب.

عالم الإسلام: ماذا تسمعني من أساطير الأتراك والعرب لم تخفف من ترحة المسلمين وفرحتهم.

لقد ذهب أولاً التثليث بميراث الخليل وصار تراب الحجاز لبناً لأساس الكنيسة.

لقد ماتت قلانس المسلمين في الدهر، والذين كانوا دلالاً من الرأس إلى القدم صاروا اليوم مقهورين.

الفارس تشتري الخمر من تجار خمور الإفرنج، الخمر التي تذيب حرارتها الجام.

لقد تغيرت الملة من حكمة الغرب، كما يذيب الغاز الذهب قطعة قطعة.

لقد صار دم المسلم رخيصاً مثل الماء، وأنت مضطرب بأن قلبك لم يبق خبيراً للأسرار.

قال الرومي: إن كل عمارة قديمة يراد تعميرها، هل تعلم أنها تخرب أولاً،
لقد خرجت الممالك من الأيدي، فانفتحت عيون الملة، إن الله قد أعطاك عيناً فعليكِ أن تنظر أيها الغافل.

الهزيمة أحسن من طلب العلاج عن الأغيار، أيها النمل الذي لا جناح له،
لا تبحث عن حاجة سليمان.

تجاه الشرق في الربط والإتحاد للملة البيضاء، ولكن أهل آسيا غافلون
إلى الآن من هذه النكتة.

أترك السياسة مرة أخرى، وادخل في حصار الدين فإن المملكة والدولة
تمر لحفظ الحرم لا غير...

فليتحد المسلمون جميعاً لحراسة الحرم، من ساحل النيل إلى أراضي كاشغر، سيمحى من يميز في اللون والدم، ولو كان هو تركياً أو عربياً أو عبقرياً لو
تقدم نسل المسلم على الدين، تطير أنت من الدنيا كما يطير غبار الطرق.

إلى أن يحكم أساس الخلافة في الدنيا مرة أخرى، أبحث عن قلب
الأسلاف وكبدهم في مكان ما.

تنبه أيها الذي لا يميز بين الجلي والخفي، وتنبّه يا سجين أبي بكر وعلي
كان على العشق شكايات وقد انتهت. وانظر الآن تأثير هذه الشكايات، أنت
شاهدت عروج سطورة تيار البحر، فانظر كيف يتشكل الموج المضطر سلاسل.

كان شاهد الإسلام حلماً عاماً للحرية فانظر أيها المسلم الآن تعبير هذا
الحلم.

إن هذا العالم القديم سيبعث مرة أخرى بعد الموت.

افتح عينيك وانظر في مرآة قولي، وانظر صورة خفيفة ضئيلة للدور القادم.

توجد فتنة أخرى أيضاً عند الفلك، فانظر خيبة التدبير أمام القضاء والقدر.

إن كنت أنت مسلماً، فاعمر صدرك من الآمال، وفي كل زمن ضع أمام
نظرك «لا يخلف الميعاد».

الدين والسياسة: كان أساس الكنيسة رهبانية فكيف كان يمكن أن تسع الأمارة فِي الفقر.

كانت الخصومة بين السلطنة والرهبانية، لأن السلطنة تعني ارتفاع الهامة بينما الرهبانية تعني خفض الجبين.

لقد تخلصت السياسة من تعقب الدين لها، ورقابته عليها إن مشيخة الكنيسة لم تستطع أن تعمل شيئاً.

منذ أن انفصلت الدولة عن الدين، أقيمت سلطنة الحرص ووزارة الجشع، وإن هذا الانفصال ليس إلا فشلاً وهزيمة، فهو فقدان نظر عين المدينة.

إنه لمعجزة تجليس الصحراء، إن البشارة مرآة الإنذار، إن وقاية الإنسان وحفظه في هذا، أن تتحد صوفيه الجُنيد مع سلطنة أردشير.

عريضة إبليس كان يقول عزازيل لربّ العالمين، لقد صار تراب آدم شعلة محرقة.

الروح ضعيفة ونحيفة، والجسم سمين، والهندام مزين بالملابس، والقلب في حالة النزع، ولكن العقل ناضج شاطر، كلما تعد شريعة الشرق نجساً، صار طاهراً من فتوى فقهاء الغرب... أو لم تعلم أن حور الجنة في حزن وألم، من تصور خراب الجنة؟... صار أرباب السياسة أبالسة الجمهور، فما بقيت حاجتي تحت الأفلاك.

١ ـ لا خوف على الواعظ من ضيق يده، وإن عليه أن يخضع رأسه أمام المدينة الحديثة، لقد كتب كثيراً في رد الجهاد فعليه أن يكتب رسالة في رد الحج».

٢ ـ هل لهذا نهاية أو إلى متى نشتري الأشياء من الخارج وإلى متى نشتري المظلات والمناديل والثياب الجاهزة، والمعاطف من اليابان؟ فلو بقيت الحال على هذه الغفلة، سيحضر الغسالون من كابل، والأكفان أيضاً من اليابان؟

٢٦ ــ إقبال وأسرار الحياة
الأرض لله

يحلق إقبال بجناحية مطلاً على الكون بنظرات العقاب فإذا الدنيا تبدو أمامه مجلوة الحسن، بارعة الصورة، وهذه هي البذور تلقى في ظلمات الأرض وتحت طيّات ترابها، فما تمضي غير أيام حتى ترى الأرض قد اهتزّت وأورق نباتها الجميل من الذي صنع هذا؟ وتلك أمواج البحر الصاخبة، من الذي أحالها بخاراً وأصعدها في الفضاء سحاباً ركاماً، وساقها إلى الصحراء المجدبة القاحلة غماماً، تحمل الماء إلى الأرض الجرد المجدبة، فتنبت فيها الحياة وتخرج لسكان الصحراء فاكهة وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم، وهذه الورود المفتحة بين الجنات والعيون من الذي أرسل إليها نسيم الصبا تداعب أوراقها فتميل في دلال وتميس فِي عجب؟ من هذا الذي أنبت السنابل في الحقول فبدت تشبه الأغنياء الأقزام الذين ملأوا جيوبهم بالذهب الأصفر، تلك السنابل التي تتم قصة حياتها في أخريات الربيع وبداية الصيف؟ من الذي قسم العالم إلى فصول، يتجدد بها الزمن وتنقلب عليها أدوار الحياة في مركزها من الكرة حول الشمس؟ ومن الذي خلق هذه الشمس وأرسلها سراجاً وهاجاً تحتجب، فإذا الدنيا ظلام، وتشرق فإذا الحياة موكب وزحام، أيها الأحياء، هذه نعم الله وقدرته الباهرة في الكون، ولكن لا تغتروا، ولا تتخذوها جبروتاً وملكاً طاغياً، إنكم لا تملكون منها سوى ما يملك المتفرج من شريط الخيالة الذي يشهد فيه قصة معروضة، ما كاد ينتهى منها حتى يسدل.

مكذا يصور «إقبال» الحقيقة، ثم يقال: إن الأرض ليست لي وليست لكم ﴿إن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ تدفن الحب في بطن الثرى فيستوي على سوقه: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ وتنشف أمواج البحار كأن خيوط الشمس تشدها إلى مواطن الرفعة فتعود إلى الأرض مزناً

حوامل ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون. ءأنتم أنزلتموه من المزن، أم نحن المنزلون﴾، ويسري النسيم رخاء إلى خمائل الورود، لتوحي إلى الناس طمعاً في الحب والعطر والسعادة وتودعنا الشمس لتصافح آخرين: وتهم بالرحيل ليؤكد شفقها أنها ستعود نعم ستعود فإلى الملتقى.

﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ ويقبل الشتاء القلوب من أدرانها، ويثلج نفوساً أرهقها قيظ الحياة وهجير الكفاح، ويجيء الصيف ليوقد الحمية، حمية الإنسانية في الصدور، ويدفيء القلوب بحرارة الايمان، ويجرد الأرض من حللها الخضراء إلى حين، ويأتي الربيع كعمر الشباب ليغري بالحياة،ونذرف الظلام، وتشدو البلابل المغردة والحمائم المترنمة ﴿والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ وعلى عتبة الخريف يودع العالم شبابه، وكأنه نذير الآخرة للغافلين الغارقين في زحمة الحياة.

فسبحانك مقدر الليل والنهار، ويسير الفلك الدوار فالق الحب والنوى ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً﴾ ليست الدنيا بقاء لا يحول إنما هي سفر وزاد وسوق منفضة ومعراج إلى سماء الخلود لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ففروا إلى الله، إلى هجرة مؤمنة، إلى عرفان الله وطلب رضاء.

مَنْ أَسْكَنَ الحبّ ظلامَ التُّراب — فأورقَ الزرعَ نَضِير الإهَابَ
مَنْ رَفَعَ الأمواجَ مِنْ بَحْرِهَا — تَشْفِي عطَاش القَفْر برد السحابَ
من قلد الورد نسيم الصبا — ومن أعَاد الشَّمْسَ بعد احتجَابَ
من أنبتَ السُّنبلَ حتَّى غدت — حبُوبه تحوي النُّضار الحجَابَ
مَنْ قسّم العامَ فصولاً لهَا — بِكُلِّ دور من الزّمان انقلابَ
يملكُ الحيّ تراب الثرَى — وجسمه عما قليل التُّرَابَ
لَيْست لِي الدُّنيا وليستْ لكُمْ — فالعمر فِيهَا مثل ومض الشّهَابَ
الأرض لله وسُكّانهَا — الكُلّ منه وإليه المآبَ

فهذه الأرض وسكّانها بيد ربي ذي الجلال
فقصروا بالله أطماعكم ليست لكم هذه المغاني ولا لي

٢٧ ـ أسرار الحرية في معاني الطبيعة

مرة أخرى شاع النور في الجبال وفي الغابات، من تألق مصابيح الشقائق، ماذا أرى؟ مرة أخرى تحرضني على النغم والشك والطيور، لست أدري في الصحراء حور أم زهور، صفوف خلف صفوف، وألوان خلف ألوان أزرق أصفر، أبيض... قد سكب الطلُّ اللآلىء فوق الورود، لتزيده أشعة الشمس بريقاً ولمعاناً.

هذه الدراري وهذا الجمال الذي لا يبالي، لماذا فرّ من المدن إلى الجبال وهو يتجلى حسناً بغير نقاب، وجمالاً بلا قناع، عش في أعماق روحك أيها المؤمن ونقّب عن سر الحياة.

فهنالك دنيا القلب ودنيا الجسم: أما دنيا القلب فعشق واحتراق وأشواق. وأما الدنيا الجسم فتجارة وأرباح وأسواق وما تستتبعه من رباء وختل ومزايدات، إذا فزنا بدنيا القلب، فزنا بنعيم لا يحول ولا يزول دون أن تخسر معركة الحاضر، أما الاكتفاء بدنيا الجسم، فظل حائل أن المال يأتي ويمضي وما رأيت في دنيا الروح شبحاً لحكومة المستعمرين وما أنسى لا أنسى وقد قال لي شيخ الطريق: عندما صرت عبداً لغيرك لم يبق فيك روح ولا جسد.

أَذَاعَت فِي الرُّبَى سِر الجمالِ مصَابِيح الشقائق في الجمالِ
طلائِع نُورِهَا نورٌ لقلبي ونفحُ عبيرُها مَسْرَى خَيَالِي
ومِن أَلوَانِهَا اليَاقُوت يَزْهَى عَلَى حلَلَ الزُّمُرّد فِي اختِيَالِ
نَرى الأزهار صفاً بعدَ صَفٌ مُسَبِّحة بقدرةِ ذِي الجَلاَلِ
يحارُ لَها الفُؤاد وقد تَجَلّت فُتُون الحسْن فِي تلكَ المجالِ
عَرَائِس مِن حسَان الورد تحكِي قوَام الحُور فِي ثوب الدلاَلِ

وقد نظمت يمين الطل فيها ... عقوداً من جواهرها الغوالي

ومن شمس الصباح بدا شعاع ... يسيل بها النضار على اللآلي

وفي الغابات أسراب القماري ... سمت بين النسائم والظلال

تحرضني أغانيها فأشدو ... ليفصح عن معانيها مقالي

أطارحها الهوى شدواً بشعر ... فتسبقني إلى السحر الحلال

وجدتُ الحسنَ في الصحراء حراً ... طليقاً كالنسيم فلا يبالي

وجدتُ انحسن في الصحراءِ حراً ... طليقاً كالنسيم فلا يبالي

كمثل النيرات بلا نقاب ... كصفو العيش في غير احتلال

يفر من المدائن وهي قيد ... وينشد في الربى رحب المجالِ

لكي ما ينشد الإنسانُ سعياً ... إلى حرية ونعيم بالِ

تعمق في ضميرِ الكونِ واشهد ... صنوف الحسن باهرة الخلالِ

وعش في عالم الروح انطلاقاً ... ترى الإمكان يأتي بالمحالِ

فدنيا الروح فيها ربح مجدٍ ... ودنيا الجسم فيها ربح مالِ

وإن المال قد يأتي ويمضي ... وأنتَ وما ملكتَ إلى ارتحالِ

ودنيا الجسم إفساد وختل ... واغراء وما ملكت إلى ضلالِ

ودنيا الروح سكر بالمعاني ... وصحو بالرقي والمعالي

فعش للروح في دنيا وأخرى ... تقر بالعالمين بلا زوالِ

وإن أمسيت للأعياد عبداً ... فقدتها معاً في كل حالِ

وإن أصبحت في الأكوان حراً ... فأنت من الكمال إلى كمالِ

وكسب المال للمخلوقِ حقٌّ ... ولكن لا تبع شرفاً بمالِ

٢٨ ــ من بال جبريل الأردية

١ ــ المتاع الذي يعلو على كل شيء: هو الألم وحرقة الأمل والتمني، فلن أقبل السلطنة في مقابل شرف العبودية.

ليست هذه الدنيا، ولا تلك، لعبادك الأحرار، فهنا قيد الموت، وهناك قيد الحياة.

فإن الحر يقضي حياته في الجبال والصحاري، لأن صنع الوكر مذلة للشاهين.

إن ضريحي مزار أهل العزم والهمة، لأني علمت غبار الطريق أسرار عظمة جبال «ألوند العالية».

٢ ـ في جناب الله يا رب! إن هذه الدنيا العابرة جميلة، ولكن لماذا يُهان فيها رجال الإخلاص والصفاء والحكمة.

ولو أن الرأسماليين يتدخلون في سلطان ألوهيته، إلا أن أهل الدنيا يعتقدون الإفرنجية وحدهم السلطان.

أنت لا تعطي أهل الحكمة شيئاً، حتى ولو كانت أوراق الحشائش بينما الإفرنجة يقدمون مزارع الورود والشقائق إلى بعض الحمير.

يوجد في الكنيسة الكباب والخمور الجذابة، وماذا يوجد في المساجد عدا النصائح والمواعظ؟

إن أحكامك حق لا ريب فيه، ولكن مفسرينا يجعلون القرآن من تأويلاتهم كملفظ نار المجوس أي ككتاب المجوس المحرّف.

الفردوس الذي أعددته، لم يشاهده أحد، ولكن كل قرية من قرى الإفرنج تشبه الفردوس.

منذ أمد بعيد أفكاري شاردة في الأفلاك، فأحسبها الآن في مغارات القمر.

لقد وهبتني الفطرة والجواهر الملكونية، أنا ترابي حقاً، ولكن لا رابطة

بيني وبين التراب.

درويش الله نشوان، ليس شرقياً ولا غربياً، وليس لي بيت في دهلي ولا في الأصفهان وسمرقند.

إني لا أقول إلا ما أراه حقاً، فلست أبله المسجد ولا مثقف المدينة، لقد غضب علي أقربائي، كما أنَّ الأجانب لم يرضوا عني أيضاً، لأنني لم أقدر أن أقول بأن السُمّ الزعاف هو حلوى.

ومن المحال أن عبداً من عباد الله الذي أبصر الحق فأدركه، أن يقول لكومة الحطب إنها جبل «دماوند».

إن «إقبالاً» لم يلتزم الصمت في جناب الله أيضاً، فكان يجب أن أحداً يسد فهم هذا الواقع.

٣ - إنك لا تزال على مدرجة الطريق، فتجاوز من قيد المقام، تجاوز مصر والحجاز، ودع باريس والشام.

الذي عمله بلا غرض بريء من الغايات الشخصية فإن جزاءه شيء آخر فوق كل الجزاء. تجاوز بإخلاص عملك الحور المقصورات بالخيام وارتفع بنزاهتك عن الكأس والمدام.

لو أن ربيع محاسن الإفرنج جذاب كثيراً أيها الطاهر الصغير، ارتفع بجناحيك عن الحبوب والفخ.

تشقق الجبال من ضرباتك، وتفتح ممالك الشرق والغرب من قوتك تجاوز عن غمد الرفاهية كخنجر الهلال.

إنَّ إمامك قائم بغير حضور القلب، فصلاتك خالية من الذوق والشوق فتجاوز مثل هذه الصلاة، وتباعد عن هذا الإمام.

٢٩ ـ خلود الحياة في فلسفة إقبال

كان شبح الموت المخيف الرهيب يبدو أمام الناس جسيماً عظيماً وبقدر ما كانت جسامته وخطره كان يبدو في عين إقبال ضئيلاً مُتَلاَشِياً. لعله كان يرى أن العقبة الكؤود في طريق رقي المسلمين الحرص على الحياة، ومخالفة الموت أو كما عبر عنها الرسول الأعظم «حب الدنيا وكراهية الموت» وقد وجد أن خوف الموت ليس معناه إلا أمر واحد وهو ترجيح حياة الذّلة والعبُودية على موت الشرف والكرامة، فحاول أن ينتزع هذا المرض النفسي من صدور أهل الإسلام مبيناً أن خوف الموت والايمان لا يجتمعان في قلب واحد وأن الذين تسنموا غارب العزة والشرف هم الذين يحملون رؤوسهم على أكفهم في ميدان الكفاح لا تنخلع قلوبهم فرقاً ولا ترتعش عزائمهم جبناً، وإنما يقبلون على الموت إقبالهم على العرس ويفرحون بالتضحية فرحهم بالنصر مؤمنين بالفوز في الدنيا والسعادة بلقاء الله ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ فإما النصر وإما الموت فيه الفخر.

ثم يذكرنا إقبال بأسلافنا الماضين الذين ملكوا الممالك وأداروا الدول ووطئت خيولهم القلاع والحصون وما اشتروا هذا المجد إلا بدمائهم. فهو في قصيدته الشكوى يذكرنا بهذه الحقيقة في جلاء حيث يقول:

بميعادِ الإفرنج كان أذانُنَا ... قَبْل الكَتَائِب يفتحُ الأمصارَا

لم تَنْس أفريقيا ولا صحراؤها ... سجداتنا والأرض تقذف نارَا

كنا نقدم للسيوف صدورَنا ... لم نخش يوماً غاشماً جبارَا

وكأنّ ظل السّيف ظلّ حديقة ... خضراء تنبت حولنا الأزهارَا

ثم يقول:

لو أن آسَادَ العرين تفزّعت ... لم يلق غير ثباتنَا الميدان

وكأنّ نيرَان المَدافِع في صدو ... رِ المؤمنين الرُّوح والريْحَان

ويصف ذلك المسلم الذي ينطلق كالسهم النافذ إلى العدو بعد أن يكبر تكبيرة الجهاد في الميدان فيقول:

ذَلِكَ المؤمن المُجَاهِد يَغْشَى غمرة الحرب والردَى يخشاه
تحتَ ظل السّيوفِ مَا مَن قَوى درعه لا إله إلاّ الله

يبين لنا بعد ذلك أن الحالة قد تغيّرت وأن سنة الأقوام قد تبدلت واستحكم الجبن في قلوب الكثيرين من المسلمين وأصبحت وجوههم تصفر اصفرار الشمس عند الأصيل إذا ذكر الموت أو الحرب ثم يخاطب الذين يتقاعسون عن الجهاد ويتخلّفون عن النضال قائلاً: «إن خطباء منابركم ووعاظ أنديتكم أصبحوا غير نافعين ولا مغنين عنها».

ثم يقول:

لم يَبْقَ في يد مُسْلِم درع ولاَ سيف يصُول بِهِ ليومِ جهَاد
ولو أنّه وجدَ السُّيوف فهَلْ لَهُ ذَوْق الخلُود وحُبّ الاستشهَاد
مَنْ كَان يجزع من منيّة كافر هل يستطيبُ مصارع الأمْجَاد

إذا كان المرء مخلصاً لله حق الإخلاص وإذا كان واثقاً بأن الموت ليس إلا العقبة الأولى التي يجتازها المرء إلى الحظيرة الأبدية والمتعة بلقاء الله. أن أقول كان الإيمان هكذا فلا محل للخوف من الموت. أما أولئك المضطربون الخائفون فهم أولاً شاكون في لقاء الله وفي الخلود. وثانياً فهم يعبدون المال ويؤثرون الحياة الدنيا ويظنون أن هذه الحياة المادية هي المرحلة الأخيرة للسّعادة لذلك يخشون أن يموتوا فيحرموا. وإقبال يحكم على هؤلاء بأنهم فقراء وأن نارهم لا تساوي التراب. وهم على كل حال سيموتون طوعاً أو كرهاً:

المؤمن الحقّ كان الله غَايَتَه والله كانَ لَدَيْه السمع والبصرَا
والآن أضحَى إله المالَ كعبته وخوفه الموت أفناه وما شعرَا
سيّان في الشرك هذا عابد ذهباً يسعَى إلى جمعهِ أو عابد حجَرا

يا مؤمناً بلقاء الله ما لَكَ فِي ذُعرٍ من الموتِ قد أشْبَهت من كفرَا
قد عَاد قلبك مَيّتاً بَيْنَ أضلعه كَأنَّه فِي حَنَايا الصدر قَد قبرَا
مَن كَان يَحسب أنّ الموت هَاوِية وأنّه عدم يستأصِلُ البشرَا
فسار آماله ينحطُّ عنصرهَا إلى التُّراب ويلقَى الموتَ محتقرا

لما كان سم الموت سارياً في كل الدماء البشرية فقد حاول إقبال أن يوجد من نفس السم ترياقاً، وكيف استطاع أن يصل بمهارة إلى استخلاص هذا الدواء الغريب، إنه عمد إلى تذكيرنا بأن الموت أمر محتوم وأن لكل إنسان أجلاً محدوداً، وإذا كانت هذه النهاية قضاء نافذاً في الخلائق فالخوف منها لا يجدي فتيلاً ومحاولة الفرار مع كونها جبناً وانحطاطاً في الوجدان فهي مخالفة لحكم العقل وصواب التفكير أيضاً. فالعاقل لا يفكر في النجاة من القضاء المبرم كما لا يفكر في أن ينفذ من أقطار السموات والأرض وهو في هذه الحالة إلى الجنون أقرب وبالمجانين أشبه ولهذا عرض لنا عدة صور تمثل فناء هذا الكون وهي صور من حوادث الطبيعة تحمل إلينا فناً بديعاً في منظرها الرهيب المخيف وتذكرنا عند مطالعتها بعوالم السماوات والأرض جميعاً في طريقها إلى الانتقال أو الزوال. وكما أنها تعالج فينا خوف الموت فهي كذلك تنبهنا من غفلتنا وترفع عن أعيننا أغشية الغرور والركون إلى زهرة الدنيا وفتنتها.

تحتَ نُورِ الأَفلاكِ عيشٌ جَمِيل وأَرَى النُّورَ ينطفِي وَيحُول
وعَلَى كَاهِلِ المَسَاء تَرَى الشَمْـ سَ نعشاً بكَى عليه الأصِيل
فِي سنَا البدرِ للكواكبِ أكفانٌ توارَى بهَا الشُّعاع النحِيلَ
بينَما هذه الجبالُ حصُون وإذا صخرهَا كَثيب مَهِيل
وتقِيمُ الأمواجُ فِي البحرِ أبراجاً ومن أوجهَا الرّفيعِ تَزُول
ورياحُ الخريفِ تكمنُ للزهرِ وفي ثغرهِ ابتسَام بلِيل
ثم تأتيه سَاعة بذهب الزّهر هَشِيماً وقد طوَاه الذبُول
ليْسَ زَاد المسَافِرين سِوَى الخـ ـوف مِنَ الموتِ والحياةِ رحيل

رُبَّ لحن فاق البلابل سِحراً ... فِي ضمير الأوتار مات جَنِينا
شررُ النّار قَبْل أَنْ يبلغَ المهد ... توَارَى تحت الرّمادِ دفينا
قطرات الندى على الورد تجري ... لؤلؤاً سائلاً على مرجانِ
لم تكدْ تسعدُ النواظرُ حتّى ... بدّد الريحُ شملَها فِي ثوَانِ
إنّ كأس الردى تَطُوفُ على الدنيا ... وتُسقي أبناءَها أجْمعِينَا
وبلاً مَوْعد وَدُونِ انتظار ... تبعثُ الأوّلين والأخرِينَا
عالَم الكوْن كلّه عَالَم الـ ... ـمحو الّذي فِيه مَسْرح العَالَمِينا

وقد حاول أن يبدد من النفوس استسلامها إلى الدنيا وإخلادها إلى نعيمها الزائل ودعانا إلى الحذر منها والاحتياط فيها فقدم هذا التشبيه الرائع في هذه الأبيات:

مثلُ الحيَاة كطَائرٍ مترنم ... غَنّى فأرقصَ حولَهُ الأزهارَا
ما كانَ أعذب لحنَه لكنّه ... كالحلم حلق فِي الفضاءِ وطارَا
لا يعلمُ الإنسانُ كيفَ أتَى إلى ... دُنيا المتاعِبِ أو مَتَى ينزحِلُ
ما نحنُ في الأكوانِ غير حديقة ... أزهارُها عَمّا قليل تذبلُ
يا أيّها الحرص إبك فِي الدنيا دَمّاً ... دُنْيَاكَ ليسَ لَهَا لِحَيٍّ مَنْزل
إن الحيَاة شَرَارة لم تَبْتَسِمْ ... إلاّ لتجعلنا لَهَا أحطَابَا
فِي عرسِ دنيانَا مَآتم للرَّدَى ... تطولُ شِيُوخاً فِي البلَى وشبابَا
والمَرْءُ لَمْ يَبْرَحْ أسيراً حائراً ... مَا بَيْنَ سرِّ الأمسِ أو لغز الغدِ
إن الحَياة على الأنَام بخيلة ... بدوامِها والعيش غير مخلّدِ
الموتُ فِيها هَيّن كنسيمها ... والعيشُ أصعب من منالِ الفرقَدِ

الله تعالى هو المنفرد بالبقاء وجميع العالم لا بد أن يفنى وتفسير حلم الموت جرى في حياة الملوك والصعاليك والعظماء والسوقة. أما خلود الإنسان فهو من تقدير الله في الأزل إلا أن هذا الهيكل الترابي الناقص لا بد أن يمر عليه الموت ولا بد أن يمر الإنسان من هذا العالم المملوء بالحوادث التي لم تترك

صحراء ولا مدينة ولم ينج منها بر ولا بحر وفي ذلك يقول:

الرعدُ والبرقُ والزلازلُ والقحطُ والآلامُ والنوازلُ
بناتُ دنيانا الّتي لا تَلِدُ إلا خطوباً جمرها متّقِد
في الكوخِ والقصر وفي الصحراءِ والمدنِ المنيعة الشّماءِ
وفي رِياض البلبل الرنان وفي تلال البوم والغربان
يقتحمُ الموتُ بجيشِ القدر حصُون فخفور وبطش القَيْصَر
إذَا رأيتَ الموجَ فِي البحر سكن فالموتُ كامِن لا غراق السُّفنِ
لاَ نَغم العود ولاَ شكْوَى الحَزِين ولاَ ابتسَام البشر أو دمع الأَنِينِ
ولا امتساق السيف بين الدارعين ولا صدى التكبير بين الهاتفينِ
يعيدُ نبضَ القلب في صدرِ الخراب أو يرجعُ النفسَ إذا حَانَ الذهابِ

وتعد هذه الصور الشعرية التالية فخراً لكل لغة ونغماً شجياً لكل لسان فهو يوضح لنا أن الآلام لا بد منها لتمحيص الإنسانية وعلى نيرانها تنضج الأرواح القوية ولا يمكن الوصول إلى الأفراح إلا بعد الأحزان ولا تنقش الحكمة على القلوب إلا بحروف من دمه. والبلبل الذي لم يعرف قسوة الخريف لا يحسن استقبال الربيع الآلام هي الطريق إلى النور والدرجات العالية في معراج العظمة. والذي لم يعرف أنين المساء والعاشق الذي حرم في هواه من حسرة جواه وقاطف الزهر الذي حافظ على يده سليمة من الشوك والذي قضى طول عمره في الرفاهية والترف لم يكدح في تحصيل علم ولم يكد في اقتناء فن وإحياء عبقرية. أولئك جميعاً محرومون إلى الأبد من الإحاطة بكنوز أسرار الحياة واستخلاص الذهب من مناجمه العميقة، يقدم لك هذه الأمثال الجميلة في هذه القصيدة:

إن كانت الحياة خمراً صافياً يغمرنَا من رأسنَا إلى القدمِ
ففي الدموع للحياةِ جدول تصفو به النفسُ وتنبتُ الهمم
إنّ حباب خمرة الآمال لا يرقص إلا فوق أمواج الألم

والله في حكمته علمنا	أن انشراحَ الصدر قبلة الألم
عواصف الخريف في ليلِ السهاد	علمت البلبلَ ترجيع النغم
دم الأماني فيه للشعر مداد	وفي خطوبِ الدهرِ أسفار الحكم
نشيد هذا الكون يبدُو ناقصاً	حتى يتم الدمع ألحان النشيد
ما أيقظ الشباب من سكر الهوى	إلا الأسى ينبّه العقل الشريد
يا رب شاك صاغ في آلامهِ	جواهر الألحانِ من بحرِ الأنين
قد كان مثل العود في أحلامِهِ	فأيقظته ضربات العازفين
آلامنا إلى العلا أجنحة	نعلُو بها فوق مطارات النسورِ
الروح سر والحياة ظلمة	وشعلة الآلام للأرواح نور
في خفقانِ القلبِ لحنٌ صامت	لم تحكه على غصونِها الطيورُ
إن الذي لم يدرِ آناتِ المساءِ	ولم تسامرْ عينه نجم السماء
ولم يحطم جام قلبه الأسَى	ولم ينر ظلام ليله البكاء
والسادر اللاعب طول عمره	لم يستمعْ إلا إلى عذب الغناء
والعاشقُ المحروم في غرامه	من لوعةِ الذكرَى وحسرة الجفاء
ومجتنَى الزّهر الذي لم تختضبْ	يداه في الشوك بحمرةِ الدماءِ
جميعُ هؤلاءِ مهما سعدُوا	من نغم الدنيا بأمنٍ ورخاءِ
فإن أسرارَ الحياةِ تختفِي	عنهم وهم عنهَا دَواماً في اختِفَاءِ

وإنه ليملكك العجب إذا رأيت الشعراء جميعاً في ناحية وإقبالاً وحده في ناحية أخرى فهم يتغنون بالوصال ويذمون الفراق ويتبرمون بالأسفار ويحمدون الإقامة الهانئة بينما هو يحب الرحلة والتجوال ويطرب لدمدمة الرعود وأزيز المراجل وصخبة الأمواج فيقول:

الوصلُ في الحبِ غالٍ	وقيمة الهجر أغلَى
الوصلُ حلوٌ ولكن	عواقب الهجر أحلَى
في القربِ موت الأماني	والعيش فيه فناءٍ

والبعدُ في حياةٍ يُذكّى ضياهَا الرجاءِ
إن اتّقادِ الأماني وحسن شدو الطيورِ
وضجّة الخلق سعياً في العالم المعمور
والسحبُ حين تَراهَا تسقِي الرُبَى واليَبَابِ
والموجُ فِي البحرِ يعلُو حتّى يفوقُ الهضابِ
وكلُّ مَا فِي البرَايَا مِنْ روعةٍ وجلالٍ...
لولاَ يَدُ الهجرِ فِيهِ لَمْ يزدهِرْ بالجمالِ

يحدثنا إقبال عن الظواهر الكونية بلغة ساحرة ويبين لنا مراراً أن الربيع لا تتفتح أزهاره ولا تنضر أغصانه ولا يبدو كل ذلك جميلاً في الحدائق إلا عندما تساقط كل الأوراق بعواصف الخريف وتبدو الطبيعة جافة صامتة نائمة حتى يوقظها ذلك الربيع بتغريد أطياره كما مر في الصور السابقة فيقول لنا إن ظواهر الحياة تعطينا درساً بليغاً فليس الموت إلا غروباً لشمس الروح ثم تسطع بعد ذلك في صبح الخلود الذي لا فناء بعده:

يزعمُ الجاهِلُونَ أنّ المَنَايَا مغرِب فيهِ للحياةِ انقضاءُ
أفلَمْ ينظُروا إلى الشمسِ يَبْدُو نورهَا بعدَمَا طواهَا المساءُ
تغربُ النّفسُ ثم يشرقُ صبحٌ فيهِ للنفسِ بالخلود ارتقاءُ

عندما أريد بناء مستشفى في الحجاز أراد إقبال أن يقدّم إلينا من سحره بلسماً يهون صدمة الموت ويوضّح أن المرء بعد اجتياز تلك المرحلة يحيى حياة هانئة لا يحياها الخضر في عمره الطويل. ثم يهون احتمال الصدمة الأخيرة بعبارات سمَا فيها خياله وتصويره. فأنت ترى أنّ الشّاعر ينظم القصيدة فإذا لم يجدها ملائمة لطبيعة روحه حذف منها أشياء وأثبت غيرها جديدة وأعمل فيها التغيير والتبديل. كذلك الرسّام والمهندس والكاتب وكل الفنانين الذين نشاهد مبتكراتهم أمام أعيننا. والقدرة تبدع في فن الإنسان وترقى به تحسيناً وتجميلاً وليس الموت إلا حالة يراد بها إصلاح النفس وإعلاؤها وتتجلى لك هذه الحقيقة

واضحة في هذه الأبيات:

يا أسَاة الحجاز هلاَ علمتُم أن برءَ الحياةِ أرض الحجَاز
إنّ سر الحياة يكمنُ في الموتِ فيحكِي حقيقة في مجازِ
فرح المؤمنين في سكرة الموت بقربِ المهيمن المتعالِي
هو أسمَى من عيشةِ الخضرِ في الدُّنيَا طوال الدهُورِ والأجيالِ
لمَ جِئتُم للمؤمنين ببرءِ أنّ إيمَانهم يدَاوِي الجريحَا
والّذِي ذَاقَ من يدِ الوصيّ كأساً ليسَ يحتاجُ للدواءِ مسيحا
كل كون أبلته أيدِي الّليَالِي أحرقُوه ليصنعُوه جديدا
يهدمُ البيتَ بعدَ حِين ليبني منزلاً عالياً وقصراً مشيدا

في أحوال عديدة وبأساليب مختلفة يبيّن شاعرنا أن الحياة تختفي ضعيفة لتظهر قوية فلا خوف من ذهاب شيء لأنّه سيظهر بصورة أجمل وأحسن كما مر في الصورة السابقة، وفي هذه القطعة يتحدث لنا عن تزلزل الحياة واضطرابها الدائم ليزيدنا يقيناً بها:

في خِضمِّ الحياة يضطربُ المو جُ ولا يستقرُّ فِي أيِّ حالِ
ثورَان الحياةِ في الكونِ بادَ كُلّ شيءٍ بِهِ رهينِ انتقالِ
كلّ ذراتِ هذه الأرض دوماً فِي احتدام وثورة واشتعالِ
لا يغرّنك في الجبالِ سكُون قد يجِيء الشُكُونُ بالزلزالِ
ليسَ ذاكَ الثّبَات فِي الفلكِ الدّ ائرةِ إلاّ من خدعةِ الأنظارِ
لانت في المسيرِ قافلة الكون ولا تنتهِي من الأسفارِ
عالم دائم التجدد موار الـ خطى ليس في الطريق بوانِ
لاَ يمل التغيير إلا خمُول ليسَ يدري ما لذّة الطيرَانِ
الحياةُ الجهاد والجدّ والوثـ بة والعزم ماضياً والبكور
يقطفُ الزهرَ من الفروعِ ولكنّ فوقَ تلكَ الفروعِ تنمُو زهورُ

إقبال يعرف هذه الحقيقة ويخلق لها من الطبيعة أجمل الصور وأحدث

التشبيهات ليزيل اليأس المظلم بنور الأمل المشرق وفي هذه الأبيات دقة هذه المعاني متجلية تريك الحياة ماثلة في تغيرها من جميل إلى أجمل ومن حسنٍ إلى أحسن. فهو يخاطب النجم الذي يلمع في ظلام حالك مضطرباً في القبة الزرقاء قائلاً: لعلك تخشى فناء حياتك بإشراق الصباح، فلذلك تقضي ليلك في فزع يقول للمسافر في رحلة الدنيا: إن موت البراعم حياة للزهور.

فناءُ ملاَيينِ النجومِ مبشّر بأنوارِ شمسٍ في السماواتِ تولدُ
ونومُ الردَى سكر سيعقبُ نشْوة بخمرِ حياة فِي الخلودِ تجدّدُ
وتوديعُ أيّام البراعِم مؤذن بخلقِ الزهورِ الباسماتِ جمالا
ومصنعُ هذَا الكونِ بالخلقِ دائِر فأنّى أرى فيه السكون محالا
وليسَ سوَى التّغيير فِي الكونِ ثابت يغيّر حالاً ثم ينشيءُ حالا

في هدوء المساء يقف إقبال في عالم سكينته وأحلامه على شاطيء نهر (رادي) ناظراً إلى منار قصر الملك الجغتائي الذي يسمعه قصة انقلاب الزمن ثم يتأمل إلى سفينة تجري مسرعة في البحر ثم تغيب عن الأنظار فيترجم عن فكره المنير بهذا البيت:

سفينةُ عيشِ المرءِ تبدُو وتختَفِي ولكنّها فِي الموجِ لاَ تَتَحطّم

وقد تحدّث إقبال في صور مختلفة عن خلود الحياة الإنسانية والآن: تأمّل إلى النهر الذي ينحدر من القمم المرتفعة في ملاءته البيضاء هابطاً كسلاسل الفضة مرسلاً من جزيرة نغماً شجياً يتعلّم منه البلبل ترجيع ألحانه حتى إذا هبط إلى السفوح والوديان تفرقت قطراته كما يتفرّق الآلاف وكأنّك لا ترَى الآن من ذلك الماء السلسال شيئاً فإذا سرت قليلاً بعد ذلك بين الرمال رأيت النهر متجلياً في حلاه الفضة يسقي من حوله الغابات والأعشاب. كذلك نهر الحياة يهبط من سمائها ثم يغيب حيناً ليظهر منسقاً في مجرى الخلود. ويقدّم لنا هذه الصورة الأنيفة:

مِنْ رؤوسِ الجبالِ ينحدرُ النّهرُ طروب الأمواجِ عذب الأغاني

ينقلُ الطَّيرُ غنْهُ بَيْنَ الروَابِي مَا يَبِث الغصُون مِنْ ألحانِ
كَخدود الحورِ الحِسانِ تَراهُ فِي صَفَاءِ البلور حلُو الخريرِ
ثم تمضي تلك المياه ضِياعاً فِي تِلالٍ منثورة وصخورِ
قطراتٌ من النميرِ طَوَتْهَا فِي ثَنَايَا الرِّمَالِ أَيْدِي الفُرَاقِ
ثُمّ تَجْرِي فِيهَا اليَنَابيعُ فِي الأرضِ فتحظى بعدَ النَّوَى بِالتَّلاَقِي
فإذَا النَّهر بعدَ ذَلِكَ فِي مَجْرَاه يُحْيِي الزهورَ والأعْشَابَا
فضةٌ تنبتُ الزُمُرد فِي الأرضِ وتسقِي النخيلَ والأعنَابَا
وحياةُ الإنسانِ نهر سَمَاوِي توالتْ بِسَيْرِهِ الأقْدَارُ
كلّما غَاضَ ماؤُه عَادَ فَيّاضاً فَمَا ينقضِي لَهُ تَيّارُ
شعلةُ النفس لا تصيرُ رمَادَا ضَوْؤُهَا خالدٌ عَلَى الأزمانِ
كلُّ شيءٍ يَمْضِي وكلّ حياةٍ تنقضِي غيرَ جَوْهَرِ الإنسانِ

ويطالعنا إقبال ببرهان عميق يحملنا على الإذعان والتصديق ويزيد الإيمان في أنفسنا جلاء ووضوحاً وذلك أنه لما كان الحرص على الحياة وتنازع البقاء مما هو مركز في جميع طباع الأحياء مستقر في غرائز الكائنات وكأنّ القدر بذلك نَقَشَتْ سرّ الخلود في حب الحياة، وعموم الموت وشموله يدلُّنا على أنه لا يؤثر في حقيقة الوجود وأنه لا يزيد عن كونه أمراً عرضياً كالنوم الذي لا يؤثر في حيوية النائم وإلى هذا المعنى يشير بقوله:

سِرُّ الخلودِ جرَى مع الدّم فِي العرو قِ وخالطَ الأرواحَ والأحياء
لَمْ يُحْيِنَا الرَّحمنُ فِي الدُّنْيَا سُدًى وَهُوَ الحكيمُ مشيئةً وقضاء
لما رأيْتُ الموتَ يشملُنَا علمـ ـتُ بأنّه لن يستحيلَ فناء
الموتُ مثل النّومِ يبدأُ سكـ ـرَةً ويعُود صحواً دائماً وبقاء

لا توجد في علوم الطبيعة قيمة خاصة للحياة الإنسانية وليس للمعاني الإنسانية العليا شأن خاص في هذه الكائنات ولكن الدين يعلمنا أن الإنسان أشرف المخلوقات بل أن هذه الكائنات خلقت لأجله.

وإذا كان هذا صحيحاً فتأملوا إلى تلك النجوم التي تنير منذ ملايين السنين التي تكبو العقول دون حساب أعمارها فلنوازنها بالإنسان الذي هو أبعد نظراً وأعلى قيمة وشرفاً من النجوم ومما وراء الأفلاك، وليست السماء في سعة فطرته إلى نقطة ومقصد حياته أعلى من مقامات الملائكة ومن أنفاسه يتجلى النور في محافل القدرة وقد حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، فهل تحيا هذه النجوم كل هذا العمر الطويل والإنسان الذي يساميها بقلامة ظفره يفنى في لحظة؟ وهل هو أقل من هذه الذرات اللامعة حتى تبقى هي في لمعانها ثم يمحى ضوءه في لمحة؟

يَا أيُّهَا المسلمُ أَنَّ الأرضَ والسماء لكَ
ضياؤُكَ القدسيُّ أعلَى من شرَارَاتِ الفلكِ
ما جئتَ في الدنيا لِتفنَى وهي بالخلدِ تدومُ
هل تصبح الشمسُ أقلَّ قيمة من النجومِ

تأملوا إلى حقيقة البذور عندما غطيت بتراب الأرض وهي لم تضمحل تحت الثرى ولم ينضب معين حيويتها وهي دفينة في ترابها، بل كانت في تفاعلها مضطربة للنشوة والنماء وشعلة الحياة المستوردة في وجودها لم تنظف من تلك الظلمات حتى نمت وترعرعت وتفتحت أكمامها بالزهور الباسمات عن أجمل الألوان وأعطر النسيم حتى أوحت إلى نفس الشاعر هذه الأبيات:

لقَد دفنُوا في الترابِ البذورَا فلمْ تَفنَ فِي لحدِهَا الهَامِدِ
ولم تنطفِيء نارَهَا فِي الحياةِ علَى طولِ مرقَدِهَا البارِدِ
لقد نسجتْ للحياةِ القباءِ وصاغتْ من الزهْرِ أبهَى حُلاَه

الشاعر الواحد يعبر عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة ولا ضير عليه من تكرار المعنى الذي تفتن له في تجديد الحلة وتجميل الأسلوب وهذا هو شأن إقبال، فقد عبّر لنا عن مساء الموت وصبح الخلود في الصور السابقة ثم هو يعيد هذا المعنى في ثوب آخر حين يعرض علينا الصباح مقبلاً في حلته الباهرة فيوقظ

العالم لاستقبال الحياة بنشوة وأمل الموت إلا صورة لهذا المشهد الطبيعي الجميل وإليك هذه الأبيات:

حينَما يسفرُ الصّباحُ نَدِياً ناصِعاً فِي مواكب الإشراق
يغسلُ النُّور في المشارقِ أدرانِ الدياحي عن حُلّةِ الآفاقِ

* * *

ويطيرُ الكرَى وينتبهُ العشبُ وتصحُوا عزائم الكائناتِ
ويهبُّ الأحياءُ في البرِ والبحرِ ليستقبلُوا عروسَ الحياةِ

* * *

وإذَا كان للخلائقِ ناموس يرينَا الصّباحَ بعدَ المساءِ
فكذَا تذهبُ الحيَاةُ ولكنْ بعدَ لَيْل الحمام صبح البقاءِ

* * *

ليست حلقات الحياة الإنسانية ضيّقة إلى حد أن ترتبط بالهيكل الترابي وجوداً وعدماً.

ثم إن الدنيا أول المنازل وليست آخرها. هذه القبة الزرقاء ليست نهاية وجودنا وليست الأجسام إلا وكراً لهذه الأرواح فإذا ذهب الوكر يخلق وكر آخر. هذا هو عمل الفطرة التي لا تتقيد بسلسلتي الليل والنهار، وقد حدّثنا إقبال عن هذا العمل أحسن الحديث وبين أن المسلم عظيم الشأن في الخلود وأنه أقوى وأعظم من هذا الكون المحدود:

فوقَ السَّمَاءِ أَيُّها الحرّ سماوات أُخر وفوقَ هذا المجد في دنياكِ مجدٌ مُنتَظِر
بعد الحياةِ أَيُّها المسلم تبدأ الحياة صانعُ دنياك وأخراكَ معاً هُوَ الإِلَه
إن البرايَا دول بها الفضَاءِ حَافِل لَمْ تَنقطِعْ من الطريقِ هذه القَوافِل
وكَمْ وَرَاء عَالَم الألْوَان مِنْ عَوالِم فَلاَ تضعْ حَداً لِمَا فِي النَّفْسِ مِنْ عَزائم
كلّ الَّذِي تَعْرِفَه لَيْسَ نِهَايَة الوجودُ فَكَمْ تَوَارَت مُدُن وَرَاءَ هذه الحدُودِ
إِنَّ هدم العيش فَفِي البستَانِ تنشأ الوكور كن للخلود مؤمناً ليس الجمودُ للطيورِ

فبعد هذا الظل يا بلبل ماء وهواء   وجنّة أُخرَى يطيبُ فِي رِيَاضِها الغناءِ
الليلُ والنهار للأمالِ لا يَتَّسِعَانْ   فاطلب مَقَاماً للعلاَ فوقَ الزَّمَانِ والمكانِ

تذهب الأفراد ويبقى النسل والأمة، ويجب على المسلمين أن يذكروا أن بقاءهم في هذه الدنيا ضروري لتكميل حكمة الله، والرسالة التي لم تتم في أمتي الخليل والكليم يتمها أذان المسلم، إن النسيم العليل يمر على البراعم ولكن الزهور لا تستكمل نموها حتى تدمي يد البستاني أغصانها وأشجارها بالتشذيب والصاعقة تسقط على وكر القمري فيموت والبلبل يقع فريسة في شرك الصياد ولكن رونق الربيع باق. وآلاف الطيور تقبل وتنشد ألحانها وتطير والبستان لا يزال قائماً:

إِذَا سَقَطَتْ زَهْرَة فِي الرَّبِيعِ   فَكَمْ فِي بَسَاتِينِهِ مِنْ زُهُور
وبما ربّ لُؤْلُؤَة حَطَّمُوهَا   لَتَرفَع فِي التَّاجِ أوْ فِي النُّحُور

* * *

يغيبُ الصَّبَاح مِنْ المشرِقين   ويمضِي المساءُ من المغربين
وما زَالَ يقبلُ هذَا وَذَاكَ   جديدينِ فِي حلّةِ النيرينِ

* * *

مِئَات السّنِينِ مَضَتْ فِي الحياةِ   ومَا اسْتَنْفدت بَحْر أزمانِهَا
وَكَمْ أفرغَ الشَّارِبُونَ الكؤوسَ   وما زَالَتْ الخمرُ فِي حَانِهَا
وَكَمْ زَالَ أَمْسَ فَوَافَى غَد   وَكَم أَشْرَقَ النُّورُ بَعْدَ الظُّلَمِ
يزولُ عن الأرضِ أفرادِهَا   وتبقَى الشعوبُ بهَا والأمم

المسلم آية من آيات الله، وآيات الله لا تزول المسلم باق ليرفع العلم ويتنسم خلافة الأرض وأعداء الإسلام يحاولون أن يسقط هذا العلم وأن يذهب المسلمون ولكن هؤلاء الأعداء أنفسهم كثيراً ما يشاهدون نور الإسلام فيصبحون في طليعة أنصاره وحماته فينقلب عدوانهم حماية ورعاية. وإذا سقطت بعض مواطن المسلمين فالمسلم سيبقى والإسلام لن يفنى:

ذَلِكَ المسلمُ من أندلسٍ سيعيدُ العزمَ فِي الشمسِ مكانِهِ
مَنْ سَقَاهُ العشقَ يوماً خمره لم يعدْ في الشكرِ محتاجاً لحانِه

* * *

والليالي علمتنَا عِبَراً فِي الَّذِي مَرَّ بِهِ غَزوَ التتارِ
كَفروا ثُمَّ اجتلُوا نورَ الهدَى فاهتدُوا لَمَّا رأَوا ذَلِكَ المنَارِ

* * *

عرفُوا الإسلامَ فانقادُوا لَهُ وغَدَا أعداؤُه ركنَ حماهِ
عزت الكعبةُ وانهارَ الصنم وهوَى الشُّركُ بتوحيدِ الإلهِ

* * *

إنَّ هذَا العصر ليل فَأنِر أيُّهَا المسلمُ ليل الحائِرينَ
وسنين الحقّ فِي لجُ الهوَى لاَ يرَى غيرَك ربّان السفِينَ

* * *

أنتَ كنزُ الدرّ والياقُوت في موجةِ الدُّنيَا وإنْ لَمْ يعرفُوكَ
محفلُ الآجالِ محتاج إِلَى صوتِك العالِي وإن لم يسمعُوكَ
ليسَ فِي الوقتِ فَراغ فَاعْتَزِمْ واملأْ الدُّنْيَا بأعمالِ شريفةِ
أنتَ نُور الأرضِ تهدِي أَهْلَهَا لَنْ يَرَى غَيْرك فِي الأرضِ خليفةِ

ما زال المسلم ممتحناً بالشدائد والحوادث الجسام، ولقد انهالت على المسلمين مصائب الزمن ورأوا من البلايا ما ضلع بمثله ملك جميع الأمم السابقة من إغريق ويونان وروسان وفراعنة، ولكن الحوادث ارتدّت عن المسلم كما ترتّد الحصباء عن القلعة الشماء. وكل مصيبة تنزل بالمسلم تصير عاملاً على إسعاده وسبباً في رُقِيِّهِ!

نحنُ نهدِي الخلقَ زهراً وثمارًا وَبسوَانَا يبعثُ النَّارَ ضِرَامَا
كلّ نمرود إِذَا أوقدَ ناراً عادَتْ النيرانُ برداً وسلامَا

* * *

نحنُ بالأيمانِ نَبني عِزَّنا لاَ نُبَالِي الهولَ أو نَخْشَى الصعابَ
وإذَا الباغِي رَمَى فِي غَرسِنَا جُذْوَةَ الظُّلْمِ جَعَلْنَاهَا تُرَابَا

• • •

ذَهَبَ اليونانُ والرومانُ والـ ـفرسُ قدماً وفراعِين الزمَانِ
وهُدَى الإِسلامُ مَا زَالَ عَلَى قِمةِ الدنيَا يدوِي بالأذانِ

وها هو يذكّرنا بأن المثل لوجود الملة هو الأمة، وأما الأفراد فهم زائلون، بهذا يدعو المسلم إلى أن يبذل نفسه فرداً لكي يحيى دولة وشعباً ثم يذكره بأصله الأزلي وفرعه الأبدي ويضع نار اليقين في صدر المسلم محمولة إليه في ثنايا هذه الأبيات:

معيشةُ الفردِ خيَال والبقاء لِلأُمَمِ
فَكُنْ فدَاءَ المبدأ الـ ـلأعْلَى إذَا نَادَى العلَمْ

• • •

منزِلُكَ العلويُّ لاَ تحجِبْ صرحَهُ الغيومُ
أنتَ مِن الجيشِ الَّذِي غُبَارَ خيلِهِ النجومُ

• • •

فِي العَالَم الأولِ من مطَالِع الأنوار كُنْتَ
والناطِقُ الأخير فِي رسالةِ الرحمنِ أنْتَ

• • •

قُمْ وانْشُرْ التوحِيد فِي الدنيَا ووحِّد الأممَ
فأنتَ خيرُ مَنْ دَعَا وأنتَ خيرُ مَنْ حَكَم

• • •

المنظر الأول الذي يروّع الإنسان هو حركة الموت التي تسكن بعدها الأعضاء وتبرد الحواس، فحينما يراك إقبال مرتعداً مذعوراً لهذا المشهد الرهيب يضع على قلبك برد العزاء ويبيّن لك أن ملك الموت لا يميت الأرواح وإن أفنى

عالم الأشباح:

يعصفُ الموتُ بالجسمِ ولكنْ ليسَ يفني من قوةِ النفسِ شَيْئا
تصعدُ الرُوحُ للخلودِ ويبقَى عالمُ الغيبِ والشهادةِ حَيّا
لا تمت من مخافةِ الموتِ جَهْلاً فيغيّر الأنفاس رُوحك تحيَا

ليس الإنسان من هذا العالم في شيء فجميع ما حوله من المظاهر المادية تضمحل وتذهب مع الهشيم ويبقى بعد ذلك جوهر الإنسان ساطعاً، يحدّثنا عنه إقبال:

هوَى سريرُ «كيقباد» وانطوَى إكليل «جم»
وأصبحَ الكلُّ رماداً مثلَ هيكلِ الصنمِ
أمّا أنَا فلستُ أدري أينَ يعلُو نظرِي
أنَا تُراب غيرَ أنَّ الشمسَ دُونَ جوهَرِي

في سكون السَكر تتفتح قلوب الشعراء كما تتفتح الأزهار لتحتضن النسيم وتستقبل الندى وتضيء مشاعر ذلك القلب على الأحياء وغير الأحياء حتى تتّسع للوجودِ كله بما فيه من ماضي وحاضر فينظر إلى تل من الرماد فيسمع من صمته حزن الماضي ويقول إنني كنت شجرة مشتعلة يأوي المدلج إلى ناري ثم أطفأتني عواصف الصحراء. هكذا سمِع إقبال وسرعان ما تلفّت فإذا نهر «السار» قد صفت مياهه كأنها مرآة لنجوم السماء فعادت نفسه الحزينة إلى الأمل بعد اليأس والرجاء بعد الخوف وحدث عن هذه المشاعر بقوله:

قَدْ تَغَنى قَلْبِي فاسمع أُذُنِي نغماً فاقَ رنة الأوتَار
وكأنّي رأيتُ نهرَ حياتِي نابعاً من صفاء عين السَّار

* * *

أزلي بعنصرِي أبدي منزِلي فِي الخلودِ فوقَ المَنَازِل
إن جسمِي مِنَ التُّرَابِ ولكِنّ روحِي البحر مَالَهَ من ساحلِ

* * *

ما دام المرىء لا يقف على حقيقة نفسه وما دام يقيس الجوهر الإنساني بالهيكل الترابي فإنه كل وقت مستهدف للخوف من ساعته الأخيرة، وإقبال يندد بهؤلاء ويصفهم بهذا البيت:

يلازمُ خوفَ الموت كلّ مضلّل   يرَى أنّ مقيَاس الحيَاة تُرَابُها

إن الذي يحافظ على كمال ذاتيته يحيا بكل شيء حتى بعوامل الموت نفسها.

هذه الكواكب والأقمار تزول ولكن نشوة الذاتية لا يخبو لمعانها إلى الأبد والذي تمكن من كمال ذاتيته ونضج إيمانه لا يخاف من الموت القادم. وقد أفهمنا إقبال مراراً أن ارتكاب أقبح الذنوب أساسه الخوف ولا سيّما خوف الموت. هذه الخشية وما يتبعها من يأس وقنوط يسميها أم الخبائث كالخمر التي تخدّر الأعصاب وتذهل الروح عن مقاومة الصعاب، وكثيراً ما وازن بين القلوب الفزعة المضطربة والقلوب الآمنة الثابتة ويبين أن الواثق بنفسه يهجم على الأسد كأنّه من المعز والخائف يفر من الغزال كأن أسداً تعقبه. ولو لم تكن في قلوبنا شائبة الوجل لعبرنا البحر كأنه صحراء. وأما الفزع فيرينا في كل موجة تمساحاً:

يعلُو عَلَى الموت مَنْ تسمُو إرَادَتُهُ   وفِي عزيمتِهِ صدْق وإيمَانِ

عمرُ الكواكبِ محدُود وأنتَ إلَى   غير انتهاء بكأسِ الخلدِ ريّانِ

يرَى الجبَانُ غزالَ القاعِ مرتَعداً   كأنّه أسدٌ في القاعِ ضرغامِ

والحرُّ يلقَى أُسُودَ الغيل مبتسماً   حتّى كأنَّ أسُود الغَيل أغنامِ

إن الشُّجَاع يخوضُ البحرَ مقتحماً   كأنّما الموجُ أزهارَ وأدواحِ

وموجةُ النهرِ في عينِ الجبانِ بهَا   غولٌ وحوتٌ وتنين وتمساحِ

ويقول:

المؤمنونَ عَلَى عنايـ   ـةِ ربّهم يتوكلُون

لاَ خَوْف يفزعهُم ولا   هم في الحوادث يحزنُون

لَوْ مَرّ أضعَفَهُم عَلَى   فرعونِ يجتزُّ الرؤُوسَا

لأَرَاكَ فِي الأفصاح هَا رونـاً وفي الإيمان مُوسَى
إنّي رأيتُ الخوفَ في الـ ـدنيا عَدُواً للعمل
هوَ مطفيء نور الرجا ءِ وسالبُ كنز الأَمَلِ
يرمِي الإرادةَ بالتزلـ ـزلِ والعزيمة بالخورِ
ومن احتَواهُ الخوفُ لاَ يجني منَ الروضِ الثمرِ
المؤمنُ الوثّاب تعـ ـصمهُ مِنَ الهولِ السكينَةِ
والخائفُ الهيّاب يغرق وَهْوَ فِي ظِلِّ السفينَةِ
تلقاهُ عندَ شبابِهِ هَرماً قد انحطَّتْ قِوَاهُ
وتعثَّرَتْ قَدَمَاهُ قَبلَ الخطو وارتعشتْ يَدَاهُ
فِي السِّلمِ قبلَ الحربِ مسـ ـلوب الشجاعةِ حائر
الصبرُ عنهُ نافرٌ وَاللُّبُ مِنْهُ طَائر
أعداؤكم يخشون سيـ ـفَ يقينكم قبلَ السيوفِ
ومرَامُهم أن تسرعُوا بالخوف من قبلِ الحتوفِ
حتَّى ترُوا نظراتهم مثلَ الخَنَاجِر فِي الصدورِ
وهناكَ يقتطفونَكُم مِنْ أرضكم قطف الزهور
الحقدُ والكَذبُ الصّرَا حِ وكُلّ مكر أوْ دهاءِ
واليأسُ والجبنُ المذِ لُّ وكلّ غشٌّ والتِوَاءِ
تلكَ الرذائِل فِي شعو بِ الأرضِ أبواب الفناءِ
لولاَ المخَاوِف ما سمعـ ـنا باسمَها تحت الشماءِ
الشركُ يصنعُ من خيوطِ الخوفِ أشرَاك البلاءِ
لولاَهُ لم نسمعْ بِكفـ ـرٍ أو نفاقٍ أو رياءِ
المؤمنونَ لَهُمْ من المَوْلَى أَمَان الأولياء
بَلغُوا الكمالَ فهمْ عن الـ ـدنيا العريضةِ أغنياءِ
ثقةُ الكريمِ بنفسهِ تعلُو بهِ فوقَ الزمنِ

والحزنُ سَمٌّ قاتلٌ لاَ تَشْرَبُوا سُمَّ الحزنِ
الموتُ والحريةُ الشمّاء والشرف المكين
هيَ خير ما نحيَا بِهِ وهَيَ الغِنَى للمؤمنين
أمَّا المفضَّض والمذَهّب والمفوّف والنَّضيبِ
فلقدْ تركنَا مَا لِعُبّادِ الحطامِ وللعبيدِ

القلب المحيط بأسرار الطبيعة لا يأخذه هلع ولا يشك في أن وراء سكون الجسم محشراً جديداً للخلود وفي صمت الليل تكمن أحلام لثورة الغد:

فِي سكونِ الماءِ يختبيءُ الفجرُ وصمتُ الظَّلاَمِ حِلْم النَّهَارِ
وسكونُ القبورِ يرقَبُ للبعثِ قدوماً فِي موكبِ الأقدارِ

وعلامة المؤمن الحق أن يرضى بحكم الأجل بل يتسامى إلى أكثر من ذلك فيرى في لقاء الله سعادة يبتسم لها كما ابتسم إقبال قبل موته بهذه الكلمات:

آيةُ المؤمن أنْ يَلْقَى الرَّدَى بَاسم الثَّغرِ سُرُوراً ورِضَا
لا أرَى مُؤْمِناً يخالجهُ الخوف وإذَا أقبلَ القضاءُ عليه
يتلقَّى الرَدَى بصبرٍ جَمِيل وابتسام الرِّضَى علَى شفتيهِ

كان خالد بن الوليد يعرض عند موته أكثر من مئة وعشرين إصابة وهو فخور بتلك الجروح إلا أن فخره هذا كان ينقصه الاستشهاد، فإن عظيم النفس لا يموت موت الحشرات في مساربها بل موت الأسود مناضلة عن عرينها، وقد كان إقبال يرثي أحد الذين ماتوا بعد أن خلدوا لأنفسهم ذكراً عاطراً تحت السماء وكأنه يصف حينما قال:

مـاتَ ولكنْ لَمْ يَمُتْ فَهُوَ مُخلَّد الثَّنَاءِ
لَهُ مِن الذِّكرَى حَيَاة لاَ يَشُوبُهَا الفَنَاءِ
إنْ شئتَ فاحيَ مثله قبل نهاية الأجلِ

إنَّ الـحـيـاةَ فِـي الـجـهـا دِ والـخـلـودِ لـلـعـمـلِ

توجهت قافلة من قوافل الحجيج من مكة إلى المدينة ففاجأها قطاع الطريق فاستولى على رجال القافلة الرعب وسقطوا فريسة النهب والسلب إلا فتى بخارياً صمد للموت ولكنه نجا وسار وحيداً يناجي أشواقه إلى المدينة فكأن صداها هذه الأبيات:

هَلْ أَتَاكُمْ حديثُ قافلةِ الحجَّاجِ إِذَا غَالَهَا عَدُوٌّ مريدِ
فِي طريق المدينةِ انتهبَ الركبَان والمنزل المرَاد بعِيد
يَسألُ العَابرُونَ عن ساحلِ الصحـراءِ والجوّ موحِش عربيد
فَتَلَقَّتْهم المخاوفُ بالموتِ وضلّت بهم فيَاف وبيد
غيرَ ذاكَ الفَتَى البخارِي لم يبْرحه إيمان قلبه الوثابِ
يتمنّى في الشوقِ سمّ المنايَا كتمَنّي الظمآن برْد الشرَاب
ملءُ جنبيْه للمدينة شوق يتغنّى بنشوةِ التوحيد
ويرَى الخنجَر المُصوب بالموتِ إلَى صدرهِ هِلال العِيد
كانَ خوف الردى يقولُ لَهُ ارْجِع ويَقُول الإِيمَان سرّ فِي آمالِ
ومضَى آمناً وحلّ كريماً وتلقّته رَوْضَة الرضوانِ
قد يسيرُ الحجيجُ في المحمل الشامي فِي مأمنٍ من الأخطارِ
ونعيمُ الأشواقِ يعرِفُه مَنْ ذَاقَ مرّ الأخطارِ بينَ القفارِ

• • •

يخسرُ العقلُ نورَه حينَ يأْوَى قَانِعاً بالهوانِ خوف الخسَارةِ
إن في لذّة المتاعبِ رِبحاً مَعْنَوِياً يفوقُ رِبْح التجارةِ

كل أمة عظيمة لم تكتب عظمتها إلا بالتضحيات والدماء الغالية. فاسمع إقبالاً يبين لنا أن ديباجة الكعبة مخضبة باللون الأحمر. فهي قصة تبدأ بالدم وتنتهي به. بدأت أولاً بإسماعيل الذي أراد أن يضحي نفسه في مقام التسليم لله

والطاعة لأبيه، فهي قصة دامية وإن لم ترق فيها الدماء وكذلك انتهت بذكرى الحسين الذي جاءت إلى الحرم تقطر دماً من كربلاء:

فـي الـكـعـبـةِ الـعـلـيَـا وقـصَّـتُـهَـا   نـبـأ يـفـيـضُ دمـاً عـلـى الـحـجـرِ
بـدأتْ بـإسـمـاعـيـلِ عـبـرتُـهَـا   ودمُ الـحـسـيـنِ نـهـايـةِ الـعـبـرِ

إن إرواء الشجرة القومية لا يكون من ماء البحر بل من دماء صدور الشهداء الأبطال. وشرق الملة يتلألأ في ذلك الجام الذي امتلأ بدم الشهداء:

ارفـعُـوا الـوردَ والـشـقـائـق   إكـلـيـل ثـنـاء عـلـى ضـريـح الشُّـهـيـد
ذَاكَ لـون الـدَّم الَّـذي أنـبـتَ   الـمـجـدَ وروَى بـه حـيـاةَ الـخـلـودِ

* * *

كانت إحدى بنات العرب واسمها فاطمة تسقي الغزاة ماء في حرب طرابلس ثم استشهدت فهو يلقب هذه المجاهدة بلا سيف ولا ترس شرف أمة الإسلام. كانت عينه تسكب دموع الشعر في هذه الحادثة ولكن مأتمها الحزين كان يبعث أيضاً سحر النشيد في البستان الذي أذبلت عواصف الخريف بأغصانه عادت إحدى البراعم الساقطة فنمت وتفتح زهرها الجميل بعد أن ظن أنها جفت وماتت:

فِـي ثَـنَـايَـا الـوديَـان تـخـتـبـىءُ الـغـز   لانُ خـلـفَ الـشـعـابِ مـخـتـفـيـاتِ
والـبـروقُ الـلـوامـعِ اسـتـتـرتْ   خـلـفَ ضـبـابِ الـسـحـائـبِ الـمـمـطـراتِ

وبعد أن كشف في جملة أشعاره تلك الحقائق الجليلة بين أيضاً أسرار الموت والحياة في كتابه «جاويد نامه» على لسان الملك الشهيد «تيبو» الذي يسمع قصة بحر ويرى حيث يوضح أن الحياة أصل الحقيقة وأن الموت خدعة عارضة وأن الحياة محرمة على الأذلاء الذين استعبدهم خوف الموت:

إنَّ الـجـبـانَ يـمـوتُ فـي أوهـامِـه   حَـذرِ الـمـمَـات وخـوفِـه يـفـنـيـه
والـحـرُّ تـسـعـدهُ الـمـواطـنُ كـلّـهـا   بـالـعَـيْـشِ حـتّـى مـوتِـه يـحـيـيـه
وأرَى الـمـنـايَـا كـالـحـيـاة تـفَـاوتَـتْ   فِـي سـوقِـهـا الأقـدَار والأرواح

لا يستوِي قتلُ الحُسَيْنِ وغيره   هَل يستوِي المصبَاحُ والإصباح

ليس الموت إلا إسماً لحياة الذلة. وفقد الرؤوس في النضال مع الشرف لا يقل قيمة عن البقاء الدائم. فلحظة من عمر الأسد خير من حياة الشاة مائة عام:

العمرُ لا يُقَاسُ بالأعوامِ   والعقلُ لا يقاسُ بالأجسامِ

واليومُ من عمرِ أسود الأجم   بألفِ عامٍ من حياةِ الغنم

الخضرُ قَدْ قالَ لَهُ الإسكندرُ   مقَالة على الزمانِ تؤثر

عِشْ سَاعَة فِي لججِ البحارِ   ومتْ شهيدَ الموجِ والتيارِ

ولاَ تَعِشْ دهرَكَ عيشَ الخامِلِ   مقيداً بين صخور الساحِلِ

الموتُ فِي الوغى وفي الميدانِ   ولا حياةَ الأسرِ والهوانِ

ليست قيمة الحياة بقصرها أو بطولها ولكن قيمتها في أعمالها ولذتها في جهادها، فالفراش يبذل الحياة رخصية في لذة لمحة يطوف بها حول السراج حتى يفنى في ناره المتوهجة:

رأيتُ الفراشةَ حولَ السّراجِ   تَحُومُ على نَارِهِ بالجناحِ

فحاولتُ إنقاذهَا فانْثَنَتْ   تُعَاتِبُنِي فِي مقالٍ صراحِ

هبوني من دهركم لحظة   أموّاج بِهَا فِي اللهيبِ اضطرَابَا

أنالُ بِهَا شَرَفَا فِي الجهادِ   وأصبحُ من بعدِ هذَا تُرَابَا

• • •

أحبُ احتراقِي بنارِ اشتياقِي   وَلاَ أرتضِي عيشَةِ الخَامِلينَ

فناءُ الفراشةِ فِي النّارِ يعلُو   حيَاة الجبَان طوَال السّنِينَ

الأعمال كثيرة والدقائق قصيرة، لا يهمنا أن نعيش طويلاً ولكن يهمنا أن نعمل جليلاً، إن الأحياء الحقيقيين هم الذين جاهدوا وهم الذين صور لنا جهادهم إقبال وضرب لنا منهم الأمثال.

ووقف إقبال على قبر نابليون وقفة المستعبر مفكراً يقول: إن هذا وإن نام في راحة الأبد ولكن لا يزال أمام أعيننا ذلك الوقت الذي زلزل فيه العالم، ثم

يكشف أسرار الموت والحياة وهو قائم على ذلك القبر، ويترك لنا رسالة الحياة والعمل ويقول لنا إن الدنيا لحظة أو لحظتان وبعدها نوم القبر الطويل في منازل الصامتين فارم سهمك إلى قبة الفلك:

إذَا كَانَتِ الأقدَار سِرّاً مُحجباً ... فَإنَّ جِهَادَ الحُرِّ يجلُو لَنَا القَدَرِ
جهادُ الفتَى يعلُو بهِ فوقَ قدرهِ ... وفوقَ الأمانِي والمواهبِ والفكرِ
لقدْ بلَغَ الإسكندرُ القمّة الّتِي ... يقصر عَنْ أدنَى مواقِعِها الصّفرِ
رأى جبل الألوند أسيَاف جيشِهِ ... فأذعَنَ حتَّى ذَابَ من رُعْبِه الصخرِ
وتيمورُ بينَ الفاتحينِ مضتْ لَهُ ... وقائِع لم يسمَعْ بهنَّ زمانُ
يمزّقُ شملَ السّهل والوعرِ جيشهُ ... كما انسَابَ فِي شلالِهِ فيضانُ
بنورِ الجهادِ الحيِّ سارَ محمدُ ... بجيشٍ عَلَى راياتِهِ الفوزُ إكليلُ
يكبِّرُ جندُ الله حولَ ركابِه ... فيهتفُ بالبُشْرَى وبالنّصرِ جبريلُ
أرى فرصة الأعمال ومضة بارق ... يضيء ثناها لمحة ويزولُ
منازل وادي الصامتين على البلى ... مستبقى بها حتى النشورُ مقيما
إذا العزم نادى فارم سهمك ساعداً ... على قبة الأفلاك وامضِي عظيمَا
إلى الفوز جاهد ما استطعت ولا تَنَمْ ... ففِي القبرِ نوم بعد ذاكَ طويل

٣٠ ــ مجلس شورى إبليس
(من أطروحة الأستاذ سمير المصري)
معيد الأردية

تمهيد: إبليس في هذا العالم يقلب الخير ويقيم الشر، وقد كان لون الكون بدمائه وقبح طريق الخير والاجتهاد، هذا بينما خلق لنفسه مكاناً من نظام الكون، ولإبليس صورة خاصة في شعر إقبال تتوافق مع أساسه الفكري فإقبال يوضِّح

انعكاس العظمة في سيرة إبليس وهو تصور جديد تماماً في الشعر، وربّما استمد إقبال هذا التصور من شعراء الغرب المشهورين؛ مثل «ملتن وجوته» فإقبال يشترك معهم في بعض الأشياء، فكل منهم لديه حمية شديدة لدينه، وكل منهم ليس لديه الشجاعة والفراسة فكرة التطور المحض فالشيطان عند «ملتن» نموذج لا مثيل له من حيث الشجاعة والفراسة والهمة والجرأة والصبر، والاستقلال والرحمة والكرم والسعي والنشاط وملتن أعطى سمو الفكرة وأصالة عظيمة لفهمه وفراسته. فشيطانه لم تقهر همته بالهزيمة ولا يحمل منه ممن هم في يأس قانطين أو من الفاشلين، فهو ما زال في حركة ونشاط واضطراب من أجل الحصول على عظمته السابقة، أما الشاعر الألماني «جوته» فقد قدّم لنا الشيطان من خلال رائعته «فاوست» وبطريقة خاصة فهو لا يفهم الشيطان على أنه سوء محض، بل فيه أيضاً محاسن، وفي اعتقاد «جوته» فإن صراع الشيطان مفيد للإنسان غاية الإفادة، لأن الإنسان طالما ظلّ في طريق البحث والطلب فإن ضلاله مفيد له، ويظل هذا ضرورياً حتى يستيقظ الإنسان، بل أن هذا يهبه العمل في الحركة، وإقبال قدّم لنا الشيطان بتصور خاص. وهذا التصور يشبه تصور «ملتن» وأيضاً مختلف عنه، وأسمى من تصور «جوته» فعند ملتن إن الإنسان مجبور أمام الشيطان ولكن عند إقبال ليس مجبوراً، وإقبال وضع للشيطان عدة صور في العديد من منظوماته في «بيام مشرق» وفي منظومة بعنوان «تسخير فطرت» وفي جاويدنامه لقب إقبال إبليس بخواجه أهل فراق وفي بال جبريل في نظم بعنوان: «جبريل وإبليس» نرى نوعاً من التفسير وشرحاً لإبليس.

أما إقبال في مجلس شورى إبليس، فهو لم يستخدم إبليس على هذا الشكل، لكنّه استخدمه لينبه المسلمين إلى الضعف، ومساوىء العصر الحالي، فأظهره مع مستشاريه في صورة مناقشات عن السياسة العالمية.

وقد كتب هذا النظم عام ١٩٣٦ وعرض فيه بطريقة موجزة أساس النظم الرئيسية للعالم وللسياسة الدولية في زمانه، وتُعدُّ منظومة إقبال هذه من أحسن المنظومات التمثيلية، وليس هناك مثل شعره هذا وأسلوبه البياني بما امتاز به إقبال

من حقيقة الحسن وسمو الخيال واتساع الأفكار وقوة المضامين وأصالة النظر والتسلسل في اختيار الألفاظ والسهولة والانسياب والتنغم والموسيقى كما أن طريقته التمثيلية في النظم أظهرت جمالاً وأثراً رائعاً فريداً، وقد أعجب أكثر الشعراء العظماء بهذه الطريقة البيانية، وفي هذا النظم يوازن إقبال بين نظام المعيشة الإسلامية والنظم العالمية الأخرى، النظام الجمهوري والنظام الملكي والنظام الإشتراكي ما عدا النظام الإسلامي فإن كل نظام هو نظام إبليس.

٣١ ـ مجلس شورى لإبليس (مؤامرات الشياطين) لمفكر باكستان فيلسوف الإسلام محمد إقبال

إبليس:

هذه ألعوبة العناصر القديمة، وهذه الدنيا الدنية، محنة ومأساة لسكان العرش الأعظم.

لقد استعد لتخريبها صانعها الذي سماها عالم الكاف والنون لقد قدمت أنا إلى الإفرنج حلم الملكية، وأنا الذي بطلت سحر المساجد والمعابد والكنائس.

أنا الذي علمت المساكين الفقراء، دروس الرضا والاستسلام والإتكال على القضاء والقدر، وأنا الذي أعطيت السيد جنون الرأسمالية، ومن يقدر أن يطفىء النار المشتعلة التي وجدت في ثوراته حرقة إبليس الباطنية الذي ارتفعت غصونه من إروائنا، فمن الذي يقدر إخضاع هذا النخيل القديم.

المستشار الأول: لا شك في أن النظام الإبليسي قد أحكم فنضجت العبودية في أخلاق الشعوب، ولقد قدر السجود في قضاء هؤلاء المساكين، فمقصد فطرتهم صلاة بلا جدوى، لا ينشأ الأمل أولاً في أي مكان، ولو نشأ في

مكان ما فيبقى ناقصاً أو يموت، هذا من كرامة سعينا المتسلسل المتواصل، بأن الصوفية والشيوخ صاروا جميعاً عبيداً للسلطنة.

كان هذا الأفيون نفسه ملائماً لطباع أهل الشرق، وإلا ليس علم الكلام بأقل تسلية من أغاني الملاحين.

ولو بقيت ضوضاء الطواف والحج، فلا خوف علينا من ذلك، لأن سيف المؤمن المسلول صار مغلولاً.

وهذا المرسوم الجديد برهان ليأس من؟ وذلك أن الجهاد محرّم على المسلم في هذا الدور (يشير إلى فتوى المبرز إعلام أحمد القادياني).

المستشار الثاني: هل ضوضاء سيطرة الجمهورية خير أو شر؟ أنت لست بمطلع على فتن الدنيا الجديدة.

المستشار الأول: أنا مطلع، ولكن تجاربي العالمية تخبرني بأنه لا خطر علينا لو بقي ستار للملكية على هذه الجمهورية. نحن بأنفسنا ألبسنا الملكية هذا اللباس الجمهوري، عندما صار الإنسان عارفاً وحساساً. إن حقيقة الملكية شيء آخر، ولا علاقة له أبداً لوجود الأمير والسلطان، سواء أيكون مجلس الملة (البرلمان) أو بلاط «برويز» (الأمبراطور) فذلك الذي ينظر دائماً إلى حقول الآخرين هو سلطان لا غير. أما شاهدت نظام جمهورية العرب؟ فالوجد مضيء منير، والقلب أظلم وأكثر قسوة من جنكيز خان (الدكتاتور).

لمستشار الثالث: ليس ثمة قلق ولا اضطراب لو بقيت الروح السلطانية ولكن ما الجواب عن خبث هذا اليهودي؟ (يشير إلى كارل ماركس) ذلك الكليم بلا تجل، والمسيح بلا صليب، ليس نبياً ولكن يحفظ تحت إبطه كتاباً.

كيف أخبرك عن نظر هذا الكافر، محرق الستار قد صار يوم حساب لشعوب الشرق والغرب. وماذا يكون أكثر من فساد الطبيعة من هذا، فقد قطع العبيد أطناب خيام السادة.

المستشار الرابع: انظر رد الفعل لهذا من بلاط رومة الكبرى: لقد قدمنا

إلى آل سيزر مرة أخرى حلم سيزر. من تورط في أمواج بحر الروم، مرة يبكي مثل صنوبر، ومرة يئن مثل رباب.

المستشار الثالث: أما أنا فلست مقتنعاً بمعرفة عاقبته الذي كشف حجاب السياسة الإفرنجية هكذا.

المستشار الخامس: (يخاطب إبليس): أيها الذي انتظم العالم بحرقة أنفاسك، كلما شئت حطمت كل ستار. صار الماء والطين عالماً للحرقة والصناعة من حرارتك حتى أن أبله الجنة صار بفضل تعليمك ماهراً. لا يدرك الفطرة الإنسانية أحد أكثر منك، كما أنك تدرك فقط أسرار الرّب على النحو الذي فهمه العباد السذّج الّذين كان عملهم التقديس والتسبيح والطواف فقط، فكل هؤلاء خضعوا وذلوا للأبد بفضل مهارتك ولو أن جميع سحرة الإفرنج صاروا تلاميذك، ولكني لم أعد الآن معتمداً على فراستهم ذلك اليهودي المُفْتِنْ الذي حلّت فيه روح مزدك، يبدو أن كل قباء يشق من جنونه. وبدأ الغراب الصحراوي يباري الشاهين والصقر، فلقد تغير مزاج الدهر بسرعة زائدة.

لقد سيطر على سعة الأفلاك ذاك الذي كنّا نظنّه جملاً قبضة تراب فقط. بدأت تفزع الجبال والمروج والأنهار، من فتنة الأيام القادمة، سيدي: إن ذلك العالم سيتحطم قريباً، أعني ذلك العالم الذي يتوقف بقاؤه على سيادتك فقط.

إبليس يخاطب مستشاريه: عالم الألوان والعطور في تصرّف يدي فلا أبالي بالأرض والشمس والقمر والسماوات السبع سوف يشاهد من عيونهم أهل الشرق والغرب أمور محيّرة، عندما أسحب دماء أقوام أوربا. ما قيمة أئمة السياسة وما حقيقة مشائخ الكنيسة، سيجز كل واحد عند إشارة واحدة مني من يعتقد خطأ أن هذه المدينة مصنع زجاج، فعليه أن يكسّر هذا الكأس والجام. الملابس التي شقّتها يد الفطرة لا يمكن رفوها من إبرة المنطق المزدكي. متى يمكن أن يخيفني مشردو الإشتراكية، فإنهم تحيروا الدسر، يابسو المخ، ومضطربو الأحوال.

ولكنني لو أخاف، وأعده خطراً فمصدره تلك الأمة التي توجد إلى الآن في ترابها شرارة الأمل إلى الآن يوجد فيهم أولئك الذين يتوضأون من دموع الصباح. يعرف ذلك الذي قد انكشفت لبصيرته بواطن الأيام، إن فتنة الغدّ ليست المزدكية بل هي الإسلام.

الخطبة الثانية: إني أعلم أن هذه الأمة ما بقيت حاملة للقرآن، بل صارت الرأسمالية ديناً للمؤمن اليوم، وأعلم أيضاً أن أكمام شيوخ الحرم خالية من اليد البيضاء في ليالي الشرق المظلمة؛ ولكن نظراً إلى حالات العصر الحاضر أخاف كل الخوف أن يظهر شرع النبي، الحذر من شرع النبي، والحذر مائة مرة، فهو حافظ واضح الدستور مجرب الرجال، خلاق الأبطال.

إن هذا الشرع رسالة الموت لكل نوع من العبودية فلا فغفور وخاقان فيه، ولا الفقير المدقع الشحاذ.

فإنه يطهر الثروة وينظّفها من كل تلوّث ويجعل الأغنياء أمناء الثروة والمال.

وماذا يكون انقلاب الفكر والعمل أكثر من هذا، بأن الأرض لله فقط، لا للملوك. فلو بقي هذا الشرع مستوراً من عيون العالم فذاك حسن لنا، وحسن جداً أن المؤمن بنفسه محروم من اليقين. ويستحسن أن يبقى المؤمن متورطاً في الآلهيات والمناظرات الدينية، ويبقى مرتبكاً في تأويل كتاب الله.

الخطبة الثالثة: يجب أن لا تتنور ليالي ذلك الذي هو عارف بالله، الذي تحطم تكبيراته طلسم الجهات الست. هل مات ابن مريم أو حي خالد الحياة، وهل صفات الله منفصلة من الحق أو هي عين ذات الحق؟

المهدي المنتظر هل يقصد به المسيح الناصري؟ أو مجدد يحمل صفات ابن مريم؟. هل ألفاظ كلام الله (القرآن) حادثة أو قديم، وفي أيّ العقائد نجاة الأمة المرحومة؟ ألا تكفي للمسلم في هذاالدور، أصنام الإلهيات هذه من اللات المناة؟ دعوه غافلاً عن عالم العمل، حتى يفشل هو في كل حيلة من حيل حياته،

والأفضل أن يبقى المؤمن مستعبداً إلى القيامة تاركاً للآخرين هذا العالم الزائل الذي لا ثبات له وأحسن الشعر والتصوف في حقه ذلك الذي يخفي حقيقة الحياة من عيونه إني متخوف في كل نفس من يقظة الأمة التي يعد احتساب الكائنات من حقيقتها دعوه سكراناً في الذكر والفكر في كل صباح، واجعلوه محكماً في مزاج الرهبانية وترك الدنيا.

٣٢ ـ النص الكامل
مجلس شورى إبليس (١٩٣٦ م)

إبليس: هذه الألاعيب القديمة للعناصر (الماء والهواء والتراب والنار) وهذه الدنيا الدّنِيّة كانت مصدراً في قتل الأماني لساكني والعرش من الملأ الأعلى:

٢ ـ إن الخالق الذي خلقها باسم الكاف والنون، قد استعد اليوم لتدميرها.

٣ ـ هأنذا قد علمت الفرنجة أحلام الملكية، وحطمت طلسم المسجد والمعبد والكنيسة.

٤ ـ وكذا عرفت الجهلاء درس القضاء والقدر، وأعطيت الغني جنون الرأسمالية.

٥ ـ مَن يستطيع أن يطفىء النار المستقرة التي تحتوي في هيجانها الحرقة الإبليسية؟

٦ ـ من ذا الذي يستطيع أن ينكس أغصان هذا النخيل التي تنمو وتعلو فروعها من ماء سقيانا؟

المستشار الأول:

٧ - إن هذا النظام الإبليسي محكم بلا أدنى ريب، ففي ظله ألفت الشعوب طبع العبودية.

٧ - سيماء المذلة والخضوع على جبين هؤلاء المساكين منذ الأزل ففطرتهم تقتضي صلاة ساجدة بلا قيام.

٩ - لا تنبت في قلوبهم جذور الأماني منذ البداية، وإن هي ظهرت ونبتت ماتت لساعتها، أو بقيت كشبح خامل لا تنضج أبداً.

١٠ - وهذه هي المعجزة الكبرى لجهودنا المتواصلة، فاليوم نرى كُلاً من الصوفي والملا قد صارا عبداً للملكية.

١١ - وإن أفيون الملكية كان ملائماً تماماً لطبع الشرق، على أن علم الكلام ليس بأقل تأثيراً من أغاني المنشدين.

١٢ - وإذا كانت مناسك الحج والطواف ما برحت حتى اليوم فلا خوف من ذلك، فإن سيف المؤمن المسلول قد أصابه الكلال.

١٣ - إن هذا الأمر الجديد الذي أعلن أن الجهاد حرام على المسلم فهو دليل على اليأس، ولكن يأس من؟

المستشار الثاني إلى الأول:

١٤ - ليت شعري أضوضاء الحكم الجمهوري خير أم شر؟ إنك لا تدري شيئاً عن الفتن الجديدة في العالم.

المستشار الأول إلى الثاني:

١٥ - أجل ولكن بصيرتي تنبئني بأن الملكية لو بقيت خلف ستار، فإنه لا خطر من ذلك.

١٦ - فحين أصبح الإنسان مفكراً واعياً متبصراً إلى حدٍ ما ألبسنا الملكية لباس الجمهورية.

١٧ - إن لأمور الحكم شأناً آخر لا ينحصر في وجود الأمير وقيام السلطنة.

١٨ - وسواء أكان مجلس الأمة، أو يكون بلاط برويز، فالحقيقة أن السلطان هو من تكون نظرات عينه مصوبة على مزرعة الآخرين.

١٩ - أما شهدت أن النظام الجمهوري في أمم الغرب يبدو وجهه وضيئاً براقاً ولكنه في داخله أشد سواداً من طغيان جنكيز؟

المستشار الثالث:

٢٠ - إذا بقيت روح السلطنة ماثلة فأي اضطراب وخوف بعد ذلك؟ ولكن ما العمل وكيف الرد على عربدة ذلك اليهودي؟

٢١ - الذي ظهر كليماً بغير تجل، ومسيحاً بغير صليب، ليس نبياً ولكنه يحمل تحت ذراعه كتاباً.

٢٢ - ماذا أقول؟ بماذا يكون النظر تجاه هذا الكافر الذي يخترق الستائر لقد أصبح أمره كيوم الحساب لأمم الشرق والغرب.

٢٣ - ليس ثمة فساد للطبيعة أخطر من هذا، ألم تر كيف حطّم العبيد أطنبة خيام السادة؟

المستشار الرابع:

٢٤ - انظر صدى هذه العربدة في إيوانات روما الكبرى، فقد أعدنا إلى آل قيصر حلم القيصرية مرة أخرى.

٢٥ - من ذا الذي يتلوى في أمواج بحر الروم، ويرتفع أحياناً كصنوبر ويئن باكياً كالرباب؟.

المستشار الثالث:

٢٦ - إن ذلك الرجل الذي فضح سياسة الإفرنج هكذا، فلمثل هذا الحال لا اعترف له بنفاذ البصيرة وسداد الرأي ودراية الأمور.

المستشار الخامس مخاطباً إبليس:

٢٧ - يا من تقوم أمور العالم جميعها بلهيب أنفاسه المحرقة، أنت الذي تظهر كل خفيّ حين تشاء.

٢٨ - لكم حول الماء والطين بقوة حرارتك إلى عالم حافل بالحرقة والغناء وصار بسطاء الجنة بفضل تعليمك عالمين بخبايا الأمور.

٢٩ - وليس بأعرف منك لسر الفطرة ذلك الذي اشتهر بين العباد البسطاء باسم المبدع الأعظم.

٣٠ - وإن أولئك الذين لم يكن لهم عمل سوى التقديس والتسبيح والطواف، فإنهم بسبب غيرتك سيبقون أذلاّء خجلين وجلين إلى الأبد.

٣١ - ومع أن سعرة أولئك السحرة من الإفرنج جميعاً من مريديك، بيد إني لست واثقاً في الاعتماد على فراستهم.

٣٢ - وذلك اليهودي المثير للفتن، والذي يعد نشوداً لروح مزدك، والّذي كان ينشقُّ من ثورته كل قباء أمام حدة جنونه.

٣٣ - لقد كان غراب الصحراء أن يصير نداً للشاهين والعقاب ياللهول كيف يتبدّل في شرعة خاطفة طبع الزمان؟

٣٤ - إن ما ظنناه بجهلنا، قبضة من التراب قد انتشر حتى اغبرت منه تسعة الأفلاك.

٣٥ - إن مهابة فتنة الغد قد بلغت حدتها، إلى درجة أن الجبال والسهول والهضاب والأنهار كلها ترتعد ذعراً وهلعاً.

٣٦ - هذا العالم الذي لم يكن داراً إلا بسيطرتك، قد أوشك الآن يا مولاي، أن يضطرب فيصبح عاليه سافله.

٣٣ ـ إبليس إلى مشيريه

٣٧ ـ إن عالم اللون والرائحة هذا ما زال في قبضتي القادرة، سواء هذه الأرض وتلك السماء وكلها جميعاً.

٣٨ ـ سوف يشهد كل من الشرق والغرب بأعينهم كيف أثير دماء أقوام أوربا.

٣٩ ـ ليت شعري ما هي القيمة لأَئمة السياسة، وشيوخ المعابد إن صيحة عارمة مني تذهلهم وتذهب بعقولهم أجمعين.

٤٠ ـ الجاهل الذي يعد هذا العمل كبيت من الزجاج، عليه أن يحطّم كؤوس وأباريق هذه المدينة.

٤١ ـ الجيوب التي فرقتها يد الفطرة أصبح من المحال رفوها بإبرة مزدك.

٤٢ ـ كيف يستطيع هؤلاء المشردون من الشيوعين أن يرهبوني إنهم مخبولون منفوشو الشعر، مضطربو الأيام.

٤٣ ـ إن ما بين جنبي من خطر يتهددني ليس إلا من هذه الأمة التي ما زال يكمن في رمادها وميض الأمل وشرارة الأمنية.

٤٤ ـ وحتى الآن ما يزال قليل من هذه الأمة يتوضأون من دموع الأسعار.

٤٥ ـ إن من كشف له عن بواطن الأيام يعلم تمام العلم أن فتنة الغد ليست مزدكية، بل هي ثورة الإسلام.

٤٦ ـ اعلم أن هذه الأمة لا تحمل القرآن، وصارت الرأسمالية ديناً للعبد المؤمن.

٤٧ ـ وادرك أنه في ظلمة دياجي ليل المشرق خلت أكمام شيوخ الحرم من يد البيضاء.

٤٨ - ولكن الخوف من آيام مطالب العصر الحاضر ألا يظهر شرع النبي.

٤٩ - الحذر كل الحذر مائة مرة من أنظمة هذا الرسول، فهو حافظ لكرامة المرأة ومختبر سريرة المرء، وهو كذلك يصنع الأبطال ويخلق الرجال.

٥٠ - هذا النظام كرسالة الموت، وحكم القضاء، لكل ألوان العبودية والذلة فليس ثمة من فرق عنده، بين ملك الصين أو شاه فارس، أو بين مسكين ذي مرتبة.

٥١ - إنه يطهر الثروة وينقيها من كل تلوث أو يجعل من الأغنياء مجرد أمناء على الماء والثروة.

٥٢ - ولا يوجد في ميدان الفكر ومجال العمل ثورة ما هو خطراً من هذا المبدأ الذي ينادي أن الأرض لله وحده وليست الملوك.

٥٣ - يا حبذا لو بقي هذا النظام مختفياً عن أنظار العلم، ومن أعظم الغنائم لنا أن يصبح المؤمن وهو محروم من اليقين.

٥٤ - ومن الخير لنا أن يبقى هذا المؤمن في شبكة الإلهيات، منهمكاً في تأويل النصوص الدينية.

٥٥ - فالإنسان الذي حطمت تهليلاته سحر الجهات الست، كيف لا يضيء الليل الحالك لهذا الورع التقي؟

٥٦ - أمات ابن مريم، أم ما يزال على قيد الحياة؟ ثم ما هو الصواب أصفات ذات الحق منفصلة عنه، أو هي غير الذات؟

٥٧ - وماذا يقصد بالقادم، أهو المسيح ابن مريم، أو هو مجدد؟ التي تكمن فيه صفات المسيح؟

٥٨ - وكلام الله بالقرآن حادث أم هو قديم؟ وفي أي قيدة من ذلك تتحقق النجاة للأمة المرحومة؟

٥٩ - ألا يكفي المسلمين في هذه الآونة أن تستغرقها هذه الأصنام

المنحوتة من علم الكلام حول الإلهيات؟

٦٠ - اجعلوه غريباً عن دنيا العمل والكفاح، لكي تنهزم جميع قطعه الشطرنجية على بساط الحياة.

٦١ - فإن من الخير كل الخير أن يبقى المؤمن عبداً حتى يوم القيامة، تاركاً هذه الدنيا الفانية للآخرين.

٦٢ - إن الشعر والتصوف اللذين يحجبان عن بصره منظر الحياة أحسن بالنسبة له.

٦٣ - إني خائف من صحو هذه الأمة ويقظتها مع كل نفس، فحقيقة دينها احتساب للكائنات.

٦٤ - أسكروه واجعلوه ينتشي بالأذكار والأفكار، وأنضجوا في مشاعره وفي حياته طبيعة الخلوات والخانقاهات.

٣٤ ـ المرشد والمريد الهندي

المريد الهندي: إن علوم الغرب قد أضلّت المسلمين، وأجرت الدماء من العيون المبصرة، فهي تشهد الآلام المريرة، والمسلمون الصادقون فزعون ومضطربون من المصير المجهول.

المرشد الرومي: إن هذه العلوم ليست شراً في ذاتها، ولو أن المسلمين تعلموها لتكون إحدى أدواتهم لخدمة الدين، فإن شرها يستحيل خيراً محضاً ويتحول ضررها نفعاً فإذا اتجهوا بها شطر المادة لخدمة الجسم، فإن هذا العلم يصير ثعباناً يفتك بسمومه القاتلة، بينما تصبح المعرفة كنزاً في ظل خدمة الدين، يعين من استعان به على خير.

المريد الهندي: يا إمام العاشقين رحيم القلب، إن الحكمة والأسرار التي أشرت إليها نزلت من القلب منزلة رفيعة، إن المخ متجمد، والوتر جاف والجلد

يابس، فمن أين يأتي صوت الحبيب؟ وإن دور الفرنجة خلجلت نفوسهم من دواعي المسرة، وليس ثمة ثبات العزم، ولا يقين الفكر، ولا حضور القلب، فليس له صلة ولا عرفان، لهذا السر، فلا يدري من هو الحبيب، واأسفاه إن أوربا تشرق مظاهرها بألوان التقدم، تجرّه النغمة إلى التراب والمحو.

المرشد الرومي: إن تذوق النغمات يحتاج إلى استعداد وفطرة، وليس كل شخص خليقاً بالسماع، فإن التين لا يصلح طعاماً لكل طائر، مع أنه يشتمل على العناصر الغذائية المفيدة، وليس هضمها مستطاعاً لكل طائر.

المريد الهندي: إني وعيت كثيراً من علوم المشرق والمغرب، من أدب وتاريخ وفلسفة واقتصاد ومنطق، ولكن لا أجد الطمأنينة التي أنشدها وما تزال نفسي في اضطراب.

المرشد الرومي: إن من ليس أهلاً للعلاج، فإن معالجته إياك تزيدك فيها إلى الأم المشفقة لتحسن علاجك، فالطمأنينة ليست من هذه العلوم. بل هي متعلقة بذكر الله القائل: ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

المريد الهندي: يا أيها الذي نظره مفتاح لقلبي المغلق، اكشف لي عن سر حكم الجهاد.

المرشد الرومي: اهدم نقوش الحق بأمر الحق، وحطم زجاج الحبيب بحجر الحبيب.

المريد الهندي: إن أنظار الشرق والغرب مسحورة من محاسن الغرب وقد صارت فتيات الغرب العاريات أكثر جاذبية من حور الجنة في نظرهم.

المرشد الرومي: إن ظاهر الفضة وإن كان أبيض براقاً، فإن لمسه يصبغ اليد والثياب بلون السواد.

المريد الهندي: واأسفاه، إن شباب المدارس ذوي الدماء الحارة أصبحوا فريسة لسحر مدينة الغرب.

المرشد الرومي: إن فراخ الطير التي لم تستكمل إنبات ريشتها، فإنها

تصبح طعاماً للهرة، لو حاولت الطيران.

المريد الهندي: إلى متى يتمادى النزاع الحار بين الدين والوطن، فهل طغى البدن على جوهر الروح؟

المرشد الرومي: يضطرب القلب من العملة الذهبية الزائفة في ظلام الليل الحالك، ولكن الذهب الخالص ينتظر إشراق الصباح.

المريد الهندي: اكشف لي عن سر الإنسان وخباياه، واجعل ذرات التراب مضيئة حتى تصير شموساً وأقماراً.

المرشد الرومي: إن حقيقة الإنسان من جسم وروح، أي ظاهر وباطن، وهو من ناحية المادة والجسم، أهون من البعوضة الضعيفة، أما باطنه فهو محيط بسبع سماوات.

المريد الهندي: يا من له البصيرة النيرة، ومن جعل التراب عيناً مبصرة حدثني عن غاية الإنسان، فهل هي خبر أو نظر؟

المرشد الرومي: ما الإنسان إلا نظر يضيء له السبيل، وما عدا ذلك فجلد على لحم وعظم ولكن النظر الحقيقي إنما هو نظر الحبيب.

المرشد الهندي: إن الشرق يقتبس حياته من كلماتك، ولكن الأمم تفنى وتضمحل من أي شيء يصيبها الضعف والهوان.

المرشد الرومي: لقد كان مصدر هلاك الأمم السالفة، أنها ظنت الحجر خشباً له عطر وطيب، وتوهمت الباطل حقاً.

المريد الهندي: الآن لم يبق في المسلم ذلك اللون، ولا ذلك العبير، ولماذا تجمد الدم في عروقه وبدد؟

المرشد الرومي: ما لم يقع الاعتداء والأذى على قلب أحد من أصحاب القلوب، فإن الله لا يصيب أقوام بعذابه.

المريد الهندي: ولو أن سوق الوجود قد فقد رونقه، فأي تجارة يجد فيها الرجال ربحاً؟

المرشد الرومي: عليك أن تبيع العقل وتشتري حيرة العشق، لأن العقل ظنون، والحيرة نظر وشهود.

المريد الهندي: إن زملائي قد ارتقت حياتهم حتى أصبحوا ندماء الملوك، ولا زلت أنا فقير بغيرة قلنسوة ولا غطاء.

المرشد الرومي: حين تكون عبداً لمن له قلب منير، فذلك خير لك من الذهاب إلى الملوك، لأن كثيراً ما كان القرب منهم مصدر الذل والهوان.

المريد الهندي: يا من هو شريك السكارى عشق أصحاب البدر، إني ما فهمت حتى الآن حديث الجبر والقدر.

المرشد الرومي: إن أجنحة البزاة حلقت على أيدي الملوك، وأجنحة الغربان ذهبت بها إلى المقبرة.

المريد الهندي: ما هي غاية دين النبي، الاشتغال بالسلطنة أو ترك الدنيا؟.

المرشد الرومي: مصلحة ديننا الحرب والعظمة، وغاية دين المسيح المغارات والجبال.

المريد الهندي: كيف يمكن السيطرة على هيكل الماء والطين، وكيف يمكن استيقاظ القلوب من الصدور؟.

المرشد الرومي: كن عبداً مؤمناً، وأَمضِ في الأرض ساعياً كالطيور، ولا تعش كلاً على غيرك، كالجنازة التي تحمل على الأعناق.

المريد الهندي: ما دلم سر الدين لا يدرك، فكيف يستيقن الإنسان بالقيامة؟

المرشد الرومي: كن أنت قيامة حتى تشهد القيامة، لأن مشاهدة كل شيء هو هذا لا غير.

المريد الهندي: الذاتية تنشد مقامها في السماء، والذاتية تفترس الشمس والقمر، ومع ذلك هي متألمة من قيود العبودية، بلا حضور وبلا فراغ مع رغم التقدم.

المرشد الرومي: الذي يستطيع اصطياد الفريسة هو العشق وحده، ولكن متى يتسع الشرك في فخ أحد؟

المريد الهندي: لقد أنار بك ضمير الكائنات، فحدثني كيف يمكن إحكام حياة الملة؟

المرشد الرومي: إذا كنت حبة يلتقطك الطير، وإذا كنت غصناً يعبث بك الأطفال، استر الحب، وكن فخاً من رأسك إلى القدم، وأخف الغصن وكن قمة وشرفة عالية.

المريد الهندي: إنك تقول أن نقب وابحث عن القلب، كن طالب القلب، وعش في المعركة، إن القلب الذي لي هو في صدري، وجوهري في مرآتي.

المرشد الرومي: لقد قلت الآن إن القلب موجود، والقلب الحقيقي يرتفع إلى العرش، ولا يكون هابطاً، لقد ظننت أن قلبك حقيقي، فقد تركت البحث عن أرباب القلوب.

المريد الهندي: إن أفكاري تعلو إلى السماء، ولكن على الأرض ذليل ومتألم، إني في الأعمال الدنيوية تجدني فاشلاً، وأتعثر في هذا السبيل كثيراً، لماذا لا أجد لي قدرة على النجاح في الأرض؟ ولماذا يكون عارف الدين هو الأبله في الدنيا؟

المرشد الرومي: الذي يكون مسيره تجاه الأفلاك، فلن يكون مسيره على الأرض عسيراً عليه.

المريد الهندي: كيف يستطاع الحصول على الحكمة والعلم، وكيف يمكن تحصيل الحرقة والألم وأثر الجراح.

المرشد الرومي: إنما تتولد الحكمة والعلم من خبز الحلال، والعشق والرقة كذلك من رزق الحلال.

المريد الهندي: إن الزمان لا يستغني عن الاجتماع، ولا يمكن أن تنال

حرقة العشق إلا بالخلوة.

المرشد الرومي: الخلوة تكون من الأغيار، لا من الأحباب، والعزاء إنما يكون للشتاء لا للربيع.

المريد الهندي: لم يبق الآن في الهند نور ولا حرقة، وأهل القلوب في هذه البلاد نهارهم مظلم.

المرشد الرومي: أعمال الرجال، الإنارة والحرارة، وأعمال السفلة الاحتيا وفقدان الحياء.

٣٥ ـ شكوى وجواب شكوى

قصيدتان تعدان في طليعة ما نظم إقبال في اللغة الأردية حاول بهما أن يستحث همم المسلمين إلى طلب الرفعة والطموح إلى المجد واستخلاص تراث الماضي من بين براثن الدهر والعودة بالركب الإسلامي إلى قافلة الحياة الدائبة في سيرها صوب الكمال أما أولاها فقد اتجه بها إلى الله تعالى شاكياً ما أصاب المسلمين من الأحداث والغير التي تخلّفت بهم عن ركب الحضارة وهم الذين حملوا شعلتها ورفعوا مصباحها لعصور الدهر وأجياله.

نراه في مطلع شكوى يصوّر أشجانه وآلامه ثم يوجه العتب المرير إلى نفسه واستسلامها للمحن ويقول لماذا أبقى بقاء الزهرة الخرساء ولا أحلق كالطير المغرد... ثم يستأذن على عتبات المقام الإلهي وفي فمه التراب ليعلن صرخة المسلمين ويجأر بدعواتهم ولم لا وقيثارته مملوءة بالأنين والأشجان تريد أن تنطق على شفتيه بأنفاسه المتصادعة.

ربّاه إليك شكوى عبيدك الأوفياء الذين لم يتعودوا إلا إزجاء الحمد وترتيل الثناء.

لقد كانت الدنيا قبل هذا الدين الإسلامي عالماً من الظلام تسوده الوثنية

وتحكمه الأصنام وفي بقاع هذا المعمور كانت سجدات الإنسان لا تعرف غير الأوثان ولم يكن الإنسان يعبد غير التماثيل المنحوتة من الأحجار والصور المصنوعة من الأشجار وحارت فلسفة اليونان وتشريع الرومان وضلت حكمة الصين في الفلوات. ولكن ساعد المسلم القوي اقتلع من الأرض شجرة الإلحاد واطلع على الإنسانية نوراً من التوحيد وظلاً من الإتحاد.

ربّاه... لقد كانت بساتين هذا الكون بغير أنغام وأزهارها خالية من العطر وكان هواؤها دوي العاصفة ونسيمها دمدمة الرعود حتى إذا جاء رسول مكة الأمي علم أهل الأرض حياة أهل السماء ودلّ سكان عالم الفناء على طريق عالم البقاء.

نحن الذين نشرنا في الروض العبير ومحونا آية الليل بآية الصبح المنير أصبح إيماننا جنون عشق فوجهنا الإنسانية بنورك في مثل كرة الطرف إلى معرفة الحق والنور والجمال.

لقد كانت الدنيا عامرة بشعوب وممالك وكان بها السلجوقي والتوراني والصيني وكان بها ملك ساسان وبقايا الرومان واليونان فرفعنا علم التوحيد وجمعنا أبناء البشر وأجياله أسرة مؤمنة بك موحدة لك. أصلحنا الفاسد وقوّمنا المعوجّ وناضلنا في البر والبحر وارتفع صوتنا بالآذان فوق معابد أوربا وارتسمت سجداتنا على رمال الصحراء في أفريقيا لم نخشَ عسف الأكاسرة ولا طغيان الجبابرة ولا سلطان الأباطرة وأسمعنا العالم كله كلمة التوحيد، وصليل السيوف المشرعات كان يدوي مع الهاتفين لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك القدوس العزيز الحكيم لم نكن نحرص على الحياة ولكن كنا نجاهد من أجل دينك ليحيا إلى الأبد في تفانينا وما بعنا الأرواح لدينا نشتريها بل كنا نطوف حول الكرة ورؤوسنا على أكفنا لنجعل اسمك الأعلى مناراً ونحن نحطم في تطوافنا الهياكل والأصنام جاعلين فضتها وتضارها تراباً تحت الأقدام، ولو أن أقدام الأسود تزلزلت من هول الميادين فلقد كانت أقدامنا على الشوك والنار لا

تأذن لشمس النهار أن تغرب حتى يضيء لنا هلال الانتصار لقد نقشنا توحيدك على كل قلب والإيمان بك في كل ضمير. نرحب بالحتوف ونرى الجنة تحت ظلال السيوف، من الذي جعل درعه يوم الجهاد باب خيبر؟ ومن الذي حمل مصباح الحق إلى مدينة قيصر؟ من قبلنا هدم التماثيل وقوض صرح الأباطيل... من الذي ردّ جيوش الكفار وأبطل في الفرس عبادة النار؟

أما أيقظنا الكون الهاجع بصوت الآذان... ألم نقم الصلاة تحت الأسنة في الميدان؟ حتى سجدت لك على الأرض الأوثان وسمع تكبيرنا في الجنة رضوان.

لقد كانت وجوهنا إلى الكعبة وعزائمنا إلى الميدان وقلوبنا إليك وصلى بين يديك السوقة والأمير والغني والفقير ووقف محمود الغزنوي الملك وعبده أباز وجسماهما في الهند وقلبهما إلى الحجاز، كنا ندور بكأس الإيمان في محفل الكون والمكان لم نقف عند الصحاري والقفار بل امتطينا النجائب من أمواج البحار حتى استضاءت النيرات بوجوه مجاهدينا في بحر الظلمات ومحونا الباطل من كتاب الدهر وحرّرنا المستعبدين وملأنا بجباهنا بيتك المعمور وجعلنا لآياتك مصحفاً في الصدور.

إني لأرى في شعوب المدينة الزائفة من يجترئون على الخطايا ويقتحمون حرم الفضائل والآداب وفيهم سكارى الخمر وسكارى الإلحاد، ولكن الدنيا ترسل عليهم السحب أمطاراً وتمطر أرضنا صواعق وناراً.

ونحن لا نشكو إن فاضت خزائن الكفّار بالنضار ولكن الشكوى أن يصيبنا الفقر والقصور حتى لا نجد للجنة صداق الحور ولا ثمن القصور.

يا رب رحماك هب لنا ما عودنا فضلك من نصر وتأييد فقد دارت بنا الكواكب في أفلاكها دورة العكس... إن قدرتك هي قدرتك وما لفضلك حد ولا لنعمائك عد... لو شئت أجريت النهر في الصحراء أو رفعت الجبال من الماء.

لم يبق لنا يا ربّ من ثروة سوى الفقر ولا من قوة سوى العجز. إن ذهاب المسلمين من الدنيا هو ذهاب الدنيا بأسرها وما نطلب البقاء فيها لحظة إلا للفناء في حبك يا أرحم الراحمين.

لقد ذهب الأغيار بما كان في أيدينا وبقيت قلوبنا عامرة بك وما بقاء الدين إلا ببقاء أهله والجام بما فيه لا يبقى بغير مساقيه رباه أين محافل العشاق؟

أين الذين توضأوا للصباح بمدامع الأسواق؟ أين الذين اقتبست الشمس من وجوههم الإشراق؟

لقد مضى زجل المسيحيين وخفت أنين المستغفرين وخلا ضمير الليل من دعوات المتبتلين وبكاء المصلين وهبوك قلوبهم يا رب وفازوا بأجر العاملين وأصبحت الأرض بعدهم خالية والديار خاوية فكأنهم ما سلموا حين قدموا أو كأنهم ما أقاموا بعد أن سلموا.

من لي بنور محمد ليكون مصباحي حين أنقب عن حفلهم الذاهب ونورهم الغارب... لا لا... إني لن أصغي إلى أنات قلبي المحزون فما زال من الدنيا سحر ليلى ولا غرام قيس وما برحت صحراء نجد مرتعاً للمها والغزال ومبعثاً للهوى والدلال ولن يزول جمالها حتى تزول الجبال.

إن جمال أمة محمد لا يزال يجتذب قلوب الكون بإشراقه الساطع فأنقذنا من ظلمة هذا اليأس المميت.

ما زال في قلوبنا وفاء الصديق وعدل الفاروق وفي كل قلب للقرآن مصحف عثمان ولا زالت قلوبنا عامرة بتقوى علي وسلمان وصوت بلال في الآذان لم تفقد الإيمان القويم ولا قياس طرق التسليم. أيقظنا يا رب بصلصلة الجرس الأول وأحينا بقانون الوفاء لقد أكملت الدين على قمة فاران وأنرت قلوب العاشقين بجذوة الايمان فاحرق متاع حب دنيانا بذلك الشرر من وميض محبتك.

لقد طرب أعداؤنا بين الجداول والأنغام في ظل الخمائل وهم في الأوطان ونحن خارج البستان فارسل فراشك مرة أخرى يطف حول نار حبك ومر البرق القديم بإحراق القلوب الجامدة.

رب اهد القلوب إلى قبلة الحجاز واعطها جناحاً من الإيمان لتعرف قوة الطيران. إن العبير حائر بين البراعم والأزهار والأنغام محتبسة في الأوتار والطور في شوق إلى تجلي أنوارك وإقبال أسرارك.

ربنا وأنت الحكيم القادر أحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، ألهم النملة الضعيفة حكمة الإيمان حتى تضع يدها على ملك سليمان وافتح العيون على ضياء الحق للعالمين حتى نرى براهمة الهند مسلمين إن عطر الأزهار قد باح بسر البستان ونمت الصرخات عما في الوجدان.

أعد الطيور المغردة إلى أغصان الصنوبر فقد فرت من روضها إلا بلبلاً يحمل في قلبه ضجة القيامة وهو المحشر.

أعد الأوراق الذابلة إلى روضها الأخضر وجدد في المسلمين ظمأهم إلى حياض الكوثر.

يا رب إني بلبل تحررت من موسم نيسان لأرسل أنغامي طليقة بالشكوى في مسمع الزمان فاجعل ندائي قبساً من وحي الايمان إن خمري حجازية وإن كنت أعجمي الدنان ونغمي من الهند ولكن صوتي من عدنان.

٣٦ ــ شكوى...

شكوَايَ أم نجوَايَ فِي هذَا الدُّجى ونجوم ليلي حُسَّدِي أَمْ عُوَّدِي
أمسيتُ فِي الماضِي أَعيش كأنّما قطعَ الزّمانُ طريقَ أمسِي من غدِي
والطيرُ صادحةٌ على أفنائِها تبكِي الرُّبَى بأَنِينها المتجدّد
قَد طَالَ تَشهيدِي وطَالَ نشيدُهَا ومَدَامِعِي كالطَّلِّ فِي الغصنِ النَّدِي

فإلَى مَتَى صَمتِي كأنّي زَهْرَةٌ خرسَاء لم ترزقْ براعة منشدِ

* * *

قيثارتي مُلئت بأنّات الجوى لا بُدَّ للمكبوتِ من فيضانِ
صعَدت إلى شفَتِي بلابل مُهجَتِي ليبينَ عَنها منطِقِي ولسَانِيَ
أنا ما تَعدَّيتُ القناعة والرِّضا لكنّما هي قصَّة الأشجَانِ
أشكُو وفي فمِي التُّراب وإنّما أشكُو مصاب الدِّين للدّيانِ
يشكُو لكَ اللّهم قلبٌ لَم يعش إلاّ لحمدِ عُلاك فِي الأكْوَانِ
قَدْ كَانَ هذا الكونُ قبلَ وجودنا روضاً وأزهاراً بغير شميم
والوردُ في الأكمامِ مجهول الشّذَى لا يرتجى ورد بغيرِ نسيمِ
بَلْ كَانت الأيَّامُ قبلَ وجودنَا ليلاً لظَالَمِيهَا وللمظلُومِ
لما أطَلَّ محمدٌ زكَت الرُّبَى واخضَرَّ في البستانِ كلُّ هشيمِ
وأذَاعتْ الفردوسُ مكنُون الشّذَى فإذا الورَى في نضرةٍ ونعيمِ
مَن قامَ يهتفُ باسم ذَاتِكَ قَبلَنَا مَنْ كَانَ يَدْعُو الواحدُ القَهّارَا
عبدُوا تماثيلَ الصخورِ وقدَّسُوا من دُونك الأحجار والأشجار
عبدُوا الكواكبَ والنجومَ جهالة لم يَبلغُوا مِنْ هَدْيِهَا أنوارَا
هَلْ أعلنَ التوحيدُ داعٍ قَبلَنَا وهدَى الشعُوبِ إليكَ والأنظَارَا
كنَّا نقدّم للسيوف صُدُورِنا لَمْ نَخْشَ يوماً غاشماً جبارَا
قَدْ كَانَ فِي اليُونَانِ فلسفة وفِي الـ رومانِ مدرسة وكان الملكُ فِي ساسانِ
لم تغن عنهم قوةٌ أو ثروةٌ في المالِ أو في العلم والعرفانِ
وبكلِّ أرضٍ سامريٌّ ماكرٌ يكفِي اليهودَ مؤُونَة الشّيطَانِ
والحكمةُ الأولَى جرتْ وثنيَّة فِي الصِّينِ أو في الهندِ أَوْ تُورَانِ
نحنُ الّذِينَ بنورِ وحيكِ أوضَحُوا نهجَ الهُدَى ومعالمَ الإيمَانِ

* * *

مَنْ ذَا الّذِي رَفَعَ السّيُوفَ ليرفعَ اسمـ ـكَ فوقَ هاماتِ النُّجوم منارا
كنَّا جبالاً فِي الجبالِ وربَّما سِرنَا عَلَى مَوجِ البِحَارِ بحَارَا

بمعابدِ الإفرنجِ كانَ أذانُنَا ... قبلَ الكتائِبِ يَفتَحُ الأمصَارَا
لم تَنسَى أفريقيَا ولاَ صحراؤُهَا ... سَجَدَاتُنَا والأرضُ تقذِفُ نَارَا
وكأَنَّ ظِلَّ السيفِ ظِل حديقة ... خضراء تنبت حولنا الأزهارَا

* * *

لم نخش طاغوتاً يُحَاربنَا وَلَو ... نصب المنَايَا حولنَا أسوارا
ندعو جِهَاراً لاَ إلَهَ سِوَى الَّذي ... صَنَعَ الوُجودَ وقدَّرَ الأقدارا
وَرؤوسَنَا يَا رَبُّ فَوقَ أكُفِّنَا ... نَرجُو ثَوَابَكَ مَغنَماً وَجِوَارَا
كُنَّا نَرَى الأصْنَامَ مِنْ ذَهَبٍ ... فَنَهدِمُهَا وَنَهدِم فَوقَهَا الكُفَّارَا
لَوْ كَانَ غَيْرَ المُسْلِمِينَ لَحَازَهَا ... كِنزاً وَصَاغَ الحُلِى والدِّينَارَا

* * *

كَمْ زَلْزَلَ الصَّخْرُ الأشَم فَمَا وَهَى ... مِنْ بأسنَا عَزمٌ وَلاَ إيمَانَ
لَوَ أَنَّ أسَادَ العرين تفزَّعت ... لَمْ يلْقَ غيرَ ثباتنَا الميدانَ
وكأنَّ نيرانَ المدَافع فِي صدورِ ... المؤمنينَ الرُّوح والريحان
توحيدكَ الأعْلَى جَعَلنَا نَقْشَهُ ... نوراً تضيء بصبحه الأزمان
فغدتْ صدورُ المؤمنينَ مصاحفاً ... في الكونِ مسطوراً بها القرآنَ

* * *

مِنْ غَيْرِ هدمِ التماثيلِ الَّتِي ... كانت تقدّسُهَا جهالاتُ الورَى؟
حَتَّى هَوَتْ صورُ المعَابِد سجداً ... لجلالِ من خلقَ الوجودَ صورَا
ومِن الألى حملُوا بعزمِ أكفُّهُم ... باب المدينةَ يومَ غزوةِ خيبرَا؟
أمن رَمَى نَارَ المجوسِ فأطفَئَت ... وأبانَ وجهُ الحقُّ أبلج نيرَا؟
ومن الَّذِي بذلَ الحياةَ رخيصةً ... ورأى رضاكَ أعزَّ شيءٍ فاشترَى؟

* * *

نحنُ الَّذِينَ استيقظَتْ بأذانِهِم ... دُنيَا الخَليقة مِنْ تَهَاوِيل الكرَى

نحنُ الَّذين إذا دعَوا لِصلاتِهم | والحرب تسقِي الأرضَ جاماً أحمَرا
جعلُوا الوجوهَ إلى الحجازِ وَكَبَّرُوا | فِي مسمع الرُّوح الأمين فكبَّرا
محمودُ مِثلَ أيازِ قَامَ كِلاَهُمَا | لَكَ بالخُشوعِ مُصَلِّياً مُستغْفِرَا
العبدُ والمولَى عَلَى قدمِ التُّقَى | سَجَدُوا لوجهكَ خاشِعِينَ على الثَّرَى

• • •

بلغتْ نهايةَ كُلِّ أرضٍ خَيلُنَا | وكأنَّ أبحُرهَا رِمَال البيدِ
فِي محفلِ الأكوانِ كانَ هِلالُنَا | بالنصرِ أوضحَ مِن هِلالِ العيدِ
فِي كلِّ موقعةٍ رفعنَا رايةً | للمجدِ تعلنُ آيةَ التوحيد
أُمَمُ البَرَايَا لَمْ تَكُن مِنْ قَبلنَا | إلاَّ عَبيداً فِي أسَارِ عبيدِ
بلغتْ بِنَا الأجيالُ حريَّاتِهَا | مِنْ بعدِ أصفادٍ وذلِّ قيودِ

• • •

رحماكَ رَبِّ هَلْ بغيرِ جباهنَا | عرفَ السجود بيتك المعمورِ؟
كانتْ شغافُ قلوبنَا لَكَ مصحفاً | يحوِي جَلاَلَ كتابِك المسطورِ
إنْ لَمْ يَكُنْ هذَا وفاء صَادِقاً | فالخلقُ فِي الدنيَا بغيرِ شعورِ
ملأ الشعوبُ جنَّاتها وعصاتَها | من ملحدٍ عاتٍ ومن مغرورِ
فإذَا السحَاب جرَى سَقَاهُم غَيثَه | واختصَّنَا بصواعقِ التدميرِ

• • •

قد هَبَّت الأصنامُ مِنْ بعدِ البلَى | واستيقظَتْ مِنْ قبلِ نفخ الصُّورِ
والكعبةُ العليَا تَوارَى أَهْلُهَا | فَكأنَّهُمْ مَوتَى لِغَيرِ نُشُورِ
وَقَوافِل الصَّحْرَاءِ ضَلَّ حُدَاتُهَا | وغَدَتْ منازِلُهَا ظلالَ قبورِ
أنَا ما حسدتُ الكافرينَ وقَدْ غدُوا | فِي أنعمٍ ومواكبٍ وقصورِ
بلْ مِحنَتِي ألاَّ أرَى فِي أُمَّتِي | عَمَلاً تقدِّمُه صِدَاق الحورِ

• • •

لكَ فِي البَرِيَّة حِكْمَة ومشيئة | أعيتْ مَذَاهِبُهَا أُولِي الألبَابِ

إنْ شِئتَ أجريتَ الصحارِي أنهرًا ... أو شئتَ فالأنهارُ موجُ سرابِ

ماذا دَهَى الإسلامُ فِي أبنائِهِ ... حتَّى انطوُوا فِي محنةٍ وعذابِ

فثراؤهم فقرٌ ودولةُ مجدِهِمْ ... فِي الأرضِ نهبُ ثعالِبُ وذئابِ

عاقبتَنا عدلاً فهب لعدونا ... عَنْ ذَنْبِهِ في الدَّهْرِ يومِ عقابِ

* * *

عاشُوا بثروتنَا وعشنَا دُونهم ... للموتِ بينَ الذُّلِّ والاملاقِ

الدينُ يحيَا فِي سعادة أهلِهِ ... والكأسُ لا تبقَى بغيرِ السَّاقِي

أيْنَ الّذِينَ بنارِ حُبِّكِ أَرْسَلُوا الـ ... ـأنوَار بَيْنَ مَحَافِلِ العشَّاقِ

سَكَبُوا اللَّيَالِي فِي أَنِينِ دُمُوعِهِم ... وَتَوَضَّأُوا بِمَدامِعِ الأَشْوَاقِ

والشمسُ كانَتْ مِنْ ضياءِ وجُوهِهِمْ ... تهدِي الصَّبَاحَ طَلائِعَ الإشْرَاقِ

كيفَ انطوتْ أيَّامهم وهُمُ الأُلَى ... نشرُوا الهُدَى وعلُوا مكانَ الفرقدِ

هجرُوا الدِّيَارَ فأَيْنَ أَزْمع رَكْبَهُمْ ... مَنْ يهتدِي للقومِ أَوَ من يَقْتَدِي

يَا قَلْب حَسْبُكَ لَنْ تَلُمّ بِطَيْفِهِم ... إلاَّ عَلَى مصباحِ وَجْهِ محمدِ

فازُوا مِنَ الدُّنْيَا بمجدٍ خالد ... ولهُمْ خلود الفوزِ يوم الموعدِ

يا ربُّ ألهمنَا الرشادِ فما لَنَا ... في الكونِ غيركَ من وَلِيٍّ مُرْشِدِ

ما زالَ قيسُ والغرام كعهدِهِ ... وربوع ليلَى في ربيع جَمَالِهَا

وهضاب نجدِ فِي مراعِيهَا المها ... وظباؤهَا الخفراتِ مِلْءُ جِبَالِهَا

والعشقُ فيَّاضُ وأمَّةُ أحمد ... يتحفزُ التاريخُ لاستقبالِهَا

لو حاولتْ فوقَ السماءِ مكانَة ... رفتْ علَى شمسِ الضحَى بهِلالِهَا

مَا بَالُها تلقَى الجدودَ عواثرًا ... وتصدُّهَا الأيامُ عَنْ أمَالهَا

هجْر الحبيبُ رمَى الأَحِبَّةَ بالنَّوَى ... وأصابَهُمْ بتصرمِ الأمالِ

لم يبقَ في الأرواحِ غيرَ بقيَّة ... رُحْمَاكِ يا مرأة كلِّ جمالِ

لو قد مللنَا العشقَ كانَ سبيلُنَا ... أَنْ نَشْتَكِينَ إِلَى هَوَى وضلالِ

أَوْ نَصنعُ الأصنامَ ثُمَّ نَبِيعُهَا ... حاشَا الموحِّدُ أن يذلَّ لمالِ

أيام سلمان بنا موصولة وتقى أو يس في أذان بلال
يا طيب عهد كنت فيه منارنا فبعثت نور الحق من فاران
وأسرت فيه العاشقين بلمحةٍ وسقيتهم راحاً بغير دنان
أحرقتَ فِيهِ قلوبَهُمْ بتوقد الإيمانِ لا بتلهّبُ النيرانَ
لم نَبْقَ نَحنُ ولا القلوبِ كأنها لم تحظ من نارِ الهوى بدخانِ
إن لم ينر وجه الحبيبِ بوصله فمكان حزن القلب كل مكانِ
يَا فَرْحَة الأَيّامِ حِينَ نَرَى بِهَا رَوْض التَجَلّي وارفُ الأغصَانِ
ويعُودُ محفلُنَا بحسنكِ مسفِراً كالصُّبحِ فِي إشراقِهِ الفينَانِ
قد هاجَ حزني أن أرى أعداؤنَا بين الطُّلاَ والظِّل والألحانِ
ونعالِجُ الأنفاسَ نحنُ ونصطلِي فِي الفقرِ حِينَ القَوْم فِي بستَانِ
أشرق بنوركِ وابعث البرقَ القديمِ بومضة لفراشكِ الظمآنِ

• • •

أشواقُنَا نحوَ الحجازِ تَطَلّعَتْ كحنينِ مغتربٍ إلَى الأوطَانِ
إنَّ الطيورَ وإن قصصتَ جَنَاحَهَا تَسْمُو بفطرَتِهَا إلَى الطيرانِ
قيثارتي مكبوتَة ونشيدها قَدْ مَلَّ مِنْ صمتٍ ومِنِ كتمانِ
واللحنُ فِي الأوتارِ يرجُو عازفاً ليبوحَ من أسرارِه بمعانِ
والطور يرتقبُ التَجَلّي صَارِخاً بِهَوى المشوّق ولهفةِ الحيرانِ

• • •

أكبَادُنَا احترقَتْ بِأنَّاتِ الجَوَى ودِماؤُنَا نهرُ الدُّمُوعِ القَانِي
والعطرُ فاضَ من الخمائلِ والرُّبَى وكأنّهُ شَكْوَى بغيرِ لِسَانِ
أوَ لَيسَ مِنْ هولِ القيامةِ أَنْ يَكُنْ الزَّهْرُ نماماً عَلَى البستَانِ
النملُ لاَ يَخشَى سليمانَ إذَا حَرَست قراه عناية الرحمنِ
أرشد براهمة الهنودِ ليرفعُوا الإسلاَمَ فَوْقَ هياكلِ الأوثانِ

• • •

ما بالُ أغصانُ الصنوبرَ قد نأتْ عَنْهَا قماريهَا بكلِّ مكَانِ
وتعرّت الأشجارُ مِنْ حُلَلِ الرُّبَى وطيُورُهَا فرّتْ إلَى الوِدْيَانِ
يا رَبُّ إلا بُلْبلاً لَمْ ينتظرْ وَحْيِ الرَّبيع ولاَ صِبَا نِشيَانِ
ألحَانه بحرُ جَرَى مُتلاطِماً فكأنّه الحَاكِي عَنْ الطوفَانِ
يا لَيتَ قومِي يسمعُونَ شِكَايَة هيَ فِي ضميرِي صرخة الوجدَانِ

* * *

إن الجواهرَ حيَّرتْ مرآةَ هذا القلبُ فهوَ عَلَى شفَا بركانِ
أسمعهمُوا يَا ربّ ما ألْهَمْتَنِي وأعد إلَيْهِمْ يَقْظَة الإيمَانِ
وأذقهم الخمرَ القديمَةَ أنَّهَا عَيْنُ اليَقِيْن وكوثرُ الرِّضْوَانِ
أنا أعجِمي الدن لكِنْ خمْرَتِي صُنْع الحجَازِ وكَرْمُهَا الفِتْيَانِ
إنْ كَانَ لِي نغمُ الهنودِ ولحنُهم لكنّ هذا الصَّوْت مِنْ عدنانِ

٣٧ ـ جواب شكوى

أما القصيدة الثانية فهي جواب الشكوى تخيلها إقبال صوتاً سماوياً يدوي بصيحة الحق جواباً لهذه الشكوى التي تبدو في صرخاتها المتململة المضطربة كأنها خيال جائر لا يقوم على الحجة والبرهان ولا يستقر على دليل من الواقع.

قال إقبال: كل كلام يصدر عن القلب يترك أثره في القلوب، والأفكار الصادقة لا أجنحة لها ولكنها تسبق الطيور. وكل كلام قدسي المنبع فهو أبداً يتجه إلى العلا ومن عجب أنه نجم من التراب ومتى صعد كان أول منازله السحاب.

كان عشقي فاتناً ساحراً جموحاً فشق ستار السماء بأنين لا يتهيب ولا يرتعد ولما سمع الشيخ السماء زفرات الشكوى والبكاء قال إنه «في مكان ما كائن يتكلم» فتساءلت النجوم والسيارات في عجب وإنكار «وكيف اقترب هذا

الكائن من بساط العرش الرفيع؟» فقال القمر: «إنه أنس من أهل الأرض» وقالت الجرة: «عجبت لهذا الإنسان كيف يستتر عن العيون ويختفي عن المادة خلف الظنون».

هكذا كان الجميع يتشاجرون في أمري فلا يهتدون ولئن كان من بينهم من فهم الشكوى وعرف النجوى فهو رضوان إذ قال: «إنه الذي أخرج أبواه من الجنة وهو قوي العنصر رفع الله مكانته وأسجد له ملائكته».

وسأل سائل: كيف تعلمت هذه القبضة من التراب أن تخترق من العناصر كل حجاب... حقاً إن سكان الأرض المستخلفين فيها لمخلوقات جامحة...

هذا هو نفس آدم ما أقدره في علم الكيف والكم ولكن ما أجهله بأسرار العجز والفناء.

وأخيراً دوى صوت تفزعت له الجنيات واخترق بجلجلته ذرات النيران: «يا هذا... إن قصتك محزنة شائكة وقدحك مليء بدموع مضطربة حيرى، ولقد أطافت صيحتك بالسموات فما أبعد قلبك المجنون عن قرار السكون ولكنك على كل حال أعلنت شكواك فأثبت قدرة الخالق فيك».

لقد مددنا بساط الكرم فأين السائلون ومهدنا الطريق إلى المجد فأين السالكون؟.

لقد أنزلنا الأنوار على الفطر ولكن الجواهر ظلّت غير قابلة وكأن هذا التراب ليس الذي جبلت منه البداية الأولى للإنسانية العالية.

إن الأنس كما ترى، قد نسوا ناموس فطرتهم وتغير ترابهم ولو أنهم أدركوا سر خلقهم وحكمة وجودهم لأعطوا فوق مما يطلبون ونالوا من العظمة فوق ما ينشدون، ولكن الأداة أدركها الفساد ومالت القلوب إلى الإلحاد... وهؤلاء المتأخرون في هذه الأمة قد أصبحوا خجلاً لماضيها وتوهيناً لعظمتها. لقد انقرض الذين هدموا الأصنام وجعلوها جذاذاً تحت الرغام. أما هؤلاء فقد جددوا

لها البنيان وأصبحوا صناعها في هذا الزمان. كانوا هم أبناء إبراهيم غير أنّهم أقرب إلى آزر القديم.

الشارب والخمر جديدان والدن أيضاً جديد وها هي أصنام جديدة تطيع الأجيال الحديثة على غرارها.

لقد انطوى عهد أولئك الذي لهم من سمات الجلال ما خليق بالدلال. إنهم كانوا مرآة متاع العظيمة وصفا موسم الورود وشقائق نعمان الصحراء وأغنية أحلام البيداء.

ويومئذٍ تفانى كل مسلم في الله وكان يوم محمد المحبوب مهرجاناً للشعوب.

هل لكم في عهد جديد تكونون فيه عبيداً لله وجنوداً لمحمد ﷺ وجواهر في عقد الملة...

إني وقد أصبح عسيراً عليكم وثقيلاً على أجفانكم أن تستقبلوا نور الصباح بتكبيرة صلاتكم وصحو حياتكم لكأن الطبائع فقد نامت مع الأجفان وما أشبه نهار المنام بليل الظلام.

أليس رمضان يقيد حريتكم ويخالف مدنيتكم... فاشهدوا على أنفسكم... أهذا هو الوفاء لماضيكم وملتكم؟.

إن وجود الشعب من وجود الملة، والدين في الأمة هو قوام الدولة، فإذا ذهب الدين فما أنتم بباقين.

الدين هو الذي يجمعكم صفاً واحداً ولولا التساند بين الكواكب لم ينعقد حفل النجوم ولم يسطع جمال القمر الساحر.

من هؤلاء الذين ضاعت علومهم وفنونهم من الدنيا ومن أولئك الذين أصبحوا لا يبالون أن يعيشوا بلا مأوى. بل ما هذا البيدر الذي لم تجد الصواعق مكاناً تستقر فيه نيرانها سواه... ثم من هؤلاء الذين يبيعون تركة الآباء ويحاولون الشهرة بتجارة القبور، لعلكم تستطيعون بأنفسكم أن تدركوا الجواب عما

تسألون فأي هذه الحقائق تنكرون ومن أولئكم الأبرار الأخيار الذين محوا الأباطيل من صحائف الأجيال والأمصار.

من الذين حرروا شعوب الإنسانية من الذل ومن الذين عمَّرُوا الكعبة بجباههم ومن الذين ضمُّوا القرآن إلى صدورهم...

أليسوا آباءكم وأجدادكم وقد بقيتم بعدهم تضعون يداً على يد وترتقبون ما يأتيكم به الغد.

لقد وعد المسلمون جمال الحور ونعيم القصور ووعدوا خلافة الأرض وأن تدين لهم الدنيا بكنوزها والأرض بخيراتها والسماء بنجومها وملائكتها والآخرة بجناتها ونعيمها وها هي الدنيا، قد أفلتت من أيديكم لأن أيديكم قد أصبحت طليقة من سنن الفطرة ومن عروة الدين أليس ربّكم هو الذي يقيم العدل والحق وهو أحكم الحاكمين.

أكنتم تنتظرون أن يعمل أعداؤكم في الأرض وأن يتخلقوا بأخلاق أسلافكم في الجهاد وينفقون أوقاتهم في الزراعة ثم يحرمون الحصاد.

لقد سار الكافر في طريق المسلم الأول فأعطي حظاً من الدنيا ولكنكم لا تنشدون اليوم مَحاسن الحور ولا كنوز القصور ألا لقد بقي تجلي النور ولكن ذهب الكليم من الطُّور إنّ أمر المسلمين في الخسارة والربح واحد والذي يقع لأقصاهم ينال أدناهم... أليس نبي الجميع واحداً وكذا الدين والإيمان والحرم والقرآن...؟

وإلهكم إله واحد فهل كان من الصعب أن تحيوا متحدين.

نار العصبية هنا وجذوة الجنسية هنالك فحدثوني عن قوم أدركوا نجاحهم بالفراق ونالوا سعادتهم بالشقاق.

لقد تركتم القرآن وجعلتم مقياس رقيّكم صلاحية الزمان واتخذتم من المدنية كل شعار واتبعتم سبيل الأغيار فلم يبق في القلوب مذاق ولا للوعة احتراق.

ها هي مساجد الله لا يعمرها غير فقرائكم فهم الصائمون والمصلون وهم العابدون والذاكرون وهم الساترون لعيوبكم وأنتم بهم ترحمون. أمّا الأغنياء فهم في سكر غفلتهم معرضون.

ومن عجب أن الملّة البيضاء ما تزال قويمة البناء ممتدّة النماء بحرارة أنفاس الفقراء... ولقد فقدتم القوة في سحر الكلام ومررتم بالمواعظ مرّ الكرام ولولا روح من بلال ما بقي للآذان جمال.

مساجدكم تبكي قلة صفوفها والمحراب موحش من المصلين والمنابر ساخرة من سيوف تحول حديدها إلى خشب لا يقاوم النار.

أما دياركم فقد امتلأت بالمفاخر والرتب والألقاب فالميرزا في إيران وفي غيرها الصاحب والخان ولكننا ننشد رتبة المسلم في هذه الأوطان.

عندما كان المسلم ينهض إلى طلب المجد فكم اقتحم الصعاب وعزمه غير هياب وكم كان عدله ميزاناً للصواب لم يلوّنه رياء ولم يفسده دهاء تخطّى بشجاعته الأوهام وفاق الأحلام... كان خالياً من المقاصد الشخصية والمتع النفسية مثل الكأس المليئة بالشراب وشرابها لغيرها.

كان المسلم مشرطاً لعروق الباطل وكان العمل في قانون حياته هو الجوهر لا العرض معتمداً على قوة ساعده بعد ربّه... وإذا كنتم تخافون الموت فقد كان خوفه من الله الذي خلق الموت والحياة.

أين فيكم دولة عثمان ورغده وفقر عليّ وزهده... وما الذي بقي لديكم من فضائل المسلمين الأولين وتراث المؤمنين السابقين لقد أصبح بعضكم يبغي على بعض بينما هم كانوا هم متراحمين... كم تخطئون وتغتابون الصالحين... وكم ستروا عيوب الخلق وهم أئمة المتقين.

أيطمع كل امرىء منكم أن يبلغ أوج الثريا بلا عزم قويم ولا قلب سليم لقد ملكوا عرش (كسرى) وسرير (كيقباد) وتاج (فحقور) وعظمة القياصرة أما أنتم فقد أفتنيتم الكلام وأكثرتم الأوهام. لقد كانوا حكام أنفسهم قبل أن يكونوا حكام

الخلق وكانوا بناة الأخوة والاتحاد في الأمة وأنتم تفقدون المودة حتى في الأسرة. كانت حياتهم عملاً وأصبحت حياتكم أملاً تبحثون عن الزهرة فلا تجدونها أمّا هُمْ فقد كان لهم من الدنيا بستانها وصار لهم من الآخرة رضوانها لا تزال الشعوب تؤلف من مجدهم الأنغام ولا تزال عاطرة بذكرهم الأيام... فهم نجوم الآفاق ونور الأخلاق.

عاشوا حياتهم أحرار القلوب وبراهمة بيت المحبوب.. ابتعدوا عن الأوكار وهجروا الديار وأقاموا على النجوم المطار... أما شباب اليوم فالعطلة والفقر والشقاء وينسبون إلى الدين ما لحقهم من بلاء ومنهم بليتهم ولكن لا يشعرون. لقد أطلقتهم المدينة من القوانين فعاشوا مستهترين صنعت لهم هيكل الصنم فألهتهم عن جلال الحرم... فلم يبق قيس يجن إلى ليلى بين الشعاب... بل يتمنى في حرية العشق أن يرى ليلى بغير حجاب وأن يشهد جمالها بغير نقاب.

هذا الشباب يستطيع لو شاء في عهد جديد أن يجدد قوة الإيمان وأن يحمل شعلة الهداية يوقدها من تعاليم خاتم الأنبياء والرسل فتنشر في الربوع إيمان إبراهيم... فالنار وقد تنضج أيها الشاكي الولهان... لا تحزن من رؤية البستان وقد فقد زاهي الألوان فسرعان ما تلمع الأزهار من كواكب البراعيم ويتلألأ دم الشهداء على شفاه الورود... ألا ترى السماء يلونها العنّابي أليس هذا لمعان الأفق يستقبل اليوم الجديد ويستبشر بالشمس الطالعة.

انظر إلى الأرض... هلا ترَى قوماً يلتقطون الثمار وآخرين في البوار ألاَ ترَى مئات النخيل خاوية الأعجاز بينما مئات أخرى في باطن الأرض في طريقها إلى ربيع الحياة فلو سقيناها من تعاليم الملة السمحة لأينعت ونمت فتخيل الإسلام أنموذج للاثمار والنماء.

واستطرد إقبال يبين أنّ المسلم لا وطن له ولا مكان ولن يفنى مسلم بفناء الأزمنة والأوطان إذ لا علاقة بين الكأس وسكر الشراب، ولقد تعرضت الأوطان

الإسلامية لهجمات التتار وما حدث من غوغاء أثر حملات البلقان وكان كل ذلك امتحاناً لذاتية المسلم فما ارتاع ولكن بقي الإسلام والمسلم في كل البقاع.

فلماذا إذاً يرتاع مسلم اليوم من صهيل خيل الأعداء ولن يطفىء ذلك نور الحق الوضاء.

فيها أظهر حقيقتك للأقوام والشعوب فمحافل الأكوان في حاجة إليك ترنوا إلى حرارة أنفاسك ومضاء عزمك... فلتتدفق دماؤك بالحرارة ليحيا الدهر في حماية دينك.

إن خلافة الأرض لك فكن بها خليقاً... وقم لتثبت وجودك فيتم بك نور التوحيد... فإنك عطر ولكن حبستك عن العالم براعم وزهرات... فقم واحمل الأمانة في عنقك وانشر أنفاسك حتى تعطر نسيم البستان.

لا تكن كنغمة الأمواج حبيسة الشواطىء ولكن كن فيضاناً بالعمل وانشر جناحك حول الآفاق وأنر الدهر بنور إيمانك وأرسل الضياء بقوة يقينك وباسم نبيك.

فلو لم يكن الزهر في البستان ما تغنى قمري على الأغصان وما صدحت العنادل بأعذب الألحان ولو لم تبتسم البراعيم بين الأوراق ما رأيت ابتسام الزهر في حديقة الدهر. ولو لم يكن اسم محمد لما نبض الوجود بالحرارة.

٣٨ ـ جواب شكوى

كلامُ الرُّوحِ للأرواحِ يَسْرِي وتدركُه القلوبُ بِلاَ عَنَاءِ
هتفتُ بِهِ فطارَ بلاَ جَنَاحٍ وشَقَّ أَنِينُهُ صَدْرَ الفضاءِ
ومعدنه تُرَابِي ولكن جرتْ فِيَ لفظِهِ لُغَةُ السماءِ

لقدْ فَاضَتْ دمُوعُ العشقِ مِنِّي ... حديثاً كَانَ عِلوي النِّدَاءِ
فحلَّق فِي رُبَى الأفلاكِ حَتَّى ... أَهَاجَ العالم الأَعْلَى بُكَائِي

* * *

تحاورتْ النُّجُومُ وقلنَ صَوْت ... بقربِ العرشِ موصُولَ الدُّعَاءِ
وجَاوَبَتْ المجرَّةِ على طَيفاً ... سَرَى بَينَ الكَواكِبِ فِي خفاءِ
وقالَ البدرُ هذَا قلبُ شَاكٍ ... يواصلُ شَدْوَهُ عِنْدَ المَسَاءِ
ولم يَعْرِفْ سِوَى رُضْوَان صوتِي ... وما أحرَاه عِنْدِي بالوفاءِ
أَلَمْ أَكُ قبل في جَنَّاتِ عدنٍ ... فأخرجنِي إلَى حين قضائِي
وقيلِ هُوَ ابن آدم في غرورٍ ... تجاوزَ قدره دونَ ارعواء
لقد سَجَدَتْ ملائكةُ كرامِ ... لهذَا الخلقُ من طين وماءِ
يظنُّ العلمُ في كيف وكم ... وسر العجز عنه في انطواءِ
وملء كؤوسه دمعُ وشكوَى ... وفي أنغامِهِ صوت الرجاء
فيا هذَا لقد أبلغت شيئاً ... وإن أكثرت فِيهِ من المراءِ

* * *

عَطَايَانَا سحائِبُ مُرْسَلاَت ... وَلَكِنَّ مَا وَجَدْنَا السائِلِينَا
وكلّ طريقُنَا نُور ونُورُ ... ولكِنَّ ما رأينَا السالكِينَا
ولم نجدْ الجواهرَ قابلاتُ ... ضياء الوحي والنور المبينَا
وكان ترابُ آدم غيرَ هذَا ... وإن يكُ أصلُه ماءً وطينَا
ولو صدقُوا وما في الأرضِ نهر ... لأجرينَا السَّمَاءَ لهم عيُونَا

* * *

وأخضعنَا لملكهم الثُّريا ... وشيَّدنا النجومَ لهم حصونَا
ولكن ألحدُوا في خيرِ دينِ ... بنى في الشمسِ مُلكِ الأولِينَا
تراثُ محمد قد أهملُوه ... فعاشُوا في الخلائقِ مهملِينَا
تَولَّى هادمُو الأصنام قدمًا ... فعادَ لَهَا أولئِكَ يصنعُونَا

أبَاهم كَان إبراهيم لكن	أرى أمثالَ آزرَ في البَنِينا

* * *

وفِي أسلافِكم كانَتْ مَزَايَا	بِكُلِّ فَمٌ لِذِكْرَاهَا نَشِيد
تضوعُ شقائقَ الصحراءِ عطراً	برِيَاهَا وتَبتسمُ الورودُ..
فهل بقيت محاسِنَهم لديكُمْ	فيجمل في دلالكم الصدُود
لقد هامُوا بخالقهم فنَاء	فلم يكتبْ لغيرِهم الخلود
وكوثرُ أحمدُ منكم قريب	ولكنّ شوْقكم عَنْهُ بَعِيد

* * *

وكم لاحَ الصَّبَاحُ سنا وبشرَى	وأذنَت القماريِ والطُّيُورَ
وكبَّرت الخمائلُ فِي ربَاهَا	مُصَلِّيَة فجاوبَهَا الغديرَ
ونومُ صباحِكم أبداً ثقيل	كأن الصبحَ لم يدرِكه نُور
وأضحَى الصوم في رمضَان قيداً	فليسَ لكم بِهِ عَزم صَبُورَ
تمدّن عصركُم جمع المَزَايَا	وليسَ بغائِب إلاّ الضّمِير

* * *

لقد ذهبَ الوفاءُ فلا وفَاء	وكيفَ ينالُ عهدِي الظَّالِمِينَا
إِذَا الإيمانُ ضَاعَ فلا أمَانٌ	ولا دُنْيَا لِمَنْ لَمْ يحي دينَا
ومَن رضَى الحياةُ بغيرِ دينِ	فقد جعلَ الفناءَ لَهَا قرينَا
وفِي التَّوحِيد للهمم اتّحادُ	ولنْ تَبْنُوا العُلاَ مُتَفرِّقِينَا
تساندَتْ الكواكِبُ فاستقرَتْ	ولولا الجاذبِيّة ما بقِينَ

* * *

غدوتُم فِي الدِّيَار بلا ديَار	وأنتُم كالطيُور بلا وكُورِ
وكل صوَاعِق الدُّنْيَا سِهَام	لبيدركم وأنتم في غرور
أهذا الفقرُ في علم ومالِ	وأنتم في القطيعة والنفورِ
وبيعُ مقابِر الأجدَاد أضْحَى	لدَى الأحفاد مدعاة الظهورِ

سيعجبُ تاجرُو الأصْنَام قدماً إذا سمعُوا بتجّارِ القُبُورِ

* * *

من المتقدمُون إلى المعَالِي على نهج الهدايةِ والصَّوابِ
ومَنْ جبَهَاتِهِمْ أَنْوَار بَيْتِي وَفِي أخلاقِهِمْ يُتْلَى كِتَابِي
أمَا كَانُوا جُدُود كم الأوَالِي بناةَ المجدِ والفنِّ العجابِ
وليس لكُمْ مِنَ الماضِي تُرَاث سِوَى شَكْوَى اللغُوب والاكتِئَابِ
ومَنْ يَكُ يَومه فِي العيشِ يَأْساً فَمَا غده سِوَى يَوْم الْعَذَابِ

* * *

أتشكُو أَنْ تَرَى الأقوامَ فازوا بجدٍ لاَ يَرَاهُ النائِمُونَا
مَشُوا بِهُدَى أوائِلكُمْ وَجَدوا وضيَّعتُمْ تُرَاث الأوَّلِينَا
أيحرمُ عَامِل ورد المعَالِي ويسعدُ بالرُقَى الخامِلُونَا
ألَيْسَ مِنَ العدالةِ أَن أرْضِي يكونُ حصَادُهَا للزَّارِعِينَا
تجلّي النورُ فوقَ الطورِ باقِ فهلْ بَقِي الكليمُ بطورِ سِينَا؟

* * *

أَلَمْ يبعثْ لأمّتكُمْ نبيٌ يوحدُكُمْ على نهجِ الوئَامِ
ومصحفكُمْ وقبلتكُمْ جميعاً منار للأخوةِ والسَّلاَمِ
وفوقَ الكُلِّ رحمنُ رَحِيم إلَهٌ واحدٌ رَبُّ الأنَامِ
فَمَا لِنَهَارِ أُلفتكُمْ تَوَلّى وَأمسَيتُمْ حَيَارَى فِي الظَّلاَمِ
وحسنُ اللُؤلُؤ المكنونُ رَهْنٌ بصوغ العقد في حسنِ النظامِ

* * *

وكيفَ تغيّرتْ بِكُمْ اللّيَالِي وكيفَ تفرّقت بِكُمْ الأمَانِي
تركتُمْ دِينَ أحمدَ ثمّ غُدْتُمْ ضَحَايَا لِلْهَوَى أَوْ لِلْهَوانِ
رقي الشَّعب قَدْ أضحَى لَدَيْكُمْ تقرره صَلاَحِيَّة الزَّمَانِ
وكيفَ تُقَاس أَوْهَامُ ولَغْو بحكمةِ منزلِ السَّبْعَ المثانِي

أَرَى نَاراً قَدِ انقلبَتْ رمَاداً ... سِوَى ظِلٍّ مَرِيضٍ مِنْ دُخَانِ

* * *

أَرَى الفقراءَ عباداً تُقَاة ... قِيَاماً فِي المَسَاجِدِ رَاكِعِينَا
هم الأبرَار فِي صومٍ وفطرٍ ... وبالأسحارِ هُمْ يستغفِرُونَا
وليسَ لَكُمْ سِوَى الفقراءِ ستر ... يُوَارِي عَنْ عِيُوبكم العيونَا
أضَلَّت أغنياءكُمَ الملاَهِي ... فهمْ فِي رَبِّهِمْ يتردَّدُونَا
وأهلِ الفقر ما زالُوا كنوزاً ... لدينِ الله رَبِّ العالمِينَ
أرَى التفكيرَ أدركَهُ خمولُ ... ولم تبْقَ العزائِمَ فِي اشتعالِ
وأصبحَ وعظُكم من غير سحرٍ ... ولا نورٍ يطلُّ من المقالِ
وعندَ النَّاسِ فلسفة وفكر ... ولكِنْ أَيْنَ تلقينَ (الغزالي)
وجلجلةُ الآذان بكلِّ أرضٍ ... ولكنْ أينَ صوت من بلالِ
منائِرُكُمْ عَلَتْ فِي كلِّ حيٍّ ... ومسَاجِدُكُمْ مِنَ العبادِ خالِي

* * *

وأَيْنَ أَئِمَّة وجنودِ صِدقٍ ... تهابُ شباةُ عزمهم الحراب
إِذَا صنعُوا فصنعهم المَعَالِي ... وإِنْ قالُوا فقولهم الصَّوَابِ
مَرادُهُمْ الإِلَه فلا رِيَاء ... ونَهْجُهُمْ اليَقِينَ فَلاَ ارْتِيَابِ
لأُمَّتهم وللأوطانِ عاشُوا ... فليسَ لَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا طلابِ
كمثلِ الكأسِ تبصرِهَا دِهَاقاً ... وليسَ لأجْلِهَا صُنْعَ الشرَابِ

* * *

جهادُ المؤمنينَ لهُمْ حَيَاةُ ... أَلاَ إِنَّ الحيَاةَ هِيَ الجِهَادِ
عقائِدهُمْ سَوَاعدنَا طقَاتُ ... وبالأعمالِ يثبتُ الاعتقاد
وخوفُ الموت للأحياءِ قبر ... وخوفُ الله للأحرارِ زادِ
أرَى مِيراثهُمْ أضْحَى لَدَيْكُمْ ... مُضَاعاً حيثُ قَدْ ضَاعَ الرشَاد
وليسَ لوارثٍ في الخيرِ حظٌّ ... إِذَا لَمْ يحفظُ الإرثُ اتِّحَاد

لأيِّ مـآثـرِ الـقـومِ انْـتَـسَـبْـتُـمْ؟ لـتـكـتـسِـبُـوا فـخـارَ الـمـسـلـمـينَا
فَـأيْـنَ مـقَـامَ ذِي الـنـوريـن مـنـكُـمْ ودولـة عِـزة دُنْـيَـا وَدِيـنَـا
وفَـقْـر عَـلَـى الأوَّابِ هَـلاَّ رَبِـحْـتُـمْ فِـيـهِ كـنـز الـفَـاتِـحِـينَا
أقـمتُـمْ فِـي الـذنوبِ وفِـي الـخَـطَـايَا وتـغـتـابُـونَ حَـتَّـى الـصَّـالـحِـينَا
وهُـمْ سَـتَرُوا عيوبَ الـخلـقِ فَـضْـلاً وَإنْ كَـانُـوا أَبـر الـمُـتَّـقِـينَا

* * *

أريـكُـم قـيـصـرَ وسـريـرِ كِـسْـرَى قَـدْ احـتـمَـيَـا بمـلـكـهُـم الـعـمِـيـمِ
وأنْـتُـمْ تـطـمـحُـون إلَـى الـثـريَـا بِـلاَ عَـزمٍ ولا قـلـبٍ سـلِـيـمِ
تُـضـيِّـعُـونَ الاخَـاءِ وهـم أقَـامُـوا صـروحَ أخَـائِـهـم فـوقَ الـنـجـومِ
طـلـبـتُـمْ زَهْـرَةَ الـدُّنْـيَـا وعُـدْتُمْ بِـلاَ زَهْـرٍ بـضـوعُ وَلاَ شَـمِـيـم
وكَـانَ لـديـهُـمْ الـبـسـتـانَ مَـحْـضـاً وهُـمْ أَصْـحَـابُ جَـنَّـاتِ الـنـعـيـمِ
يـعـيـدُ الـكـونُ قـصـتَـهـمْ حـديـثـاً ويـنـشـيءُ مـن حـديـثِـهِـم الـفـنـونَـا
فـكَـمْ نـزَحُـوا عَـنْ الأفـكـارِ شـوقـاً إلَـى الـتـحـلـيـقِ فـوقَ الـعـالـمِـينَا
وبـأسُ شـبـابـكُـمْ أدمَـى خَـطَـاهُـمْ فـظـنُّـوا فِـيـهِ بـالـديـنِ الـظـنُـونَـا
هـيَ الـمـدنـيـة الـحـمـقـاءُ الْـقَـتْ بِـهِـمْ حـولَ الـمـذاهِـبِ حـائِـرِيـنَـا
لَـقَـدْ صـنَـعَـتْ لَـهُـمْ صَـنَـمَ الـمـلاهِـي لـتـحـجُـبَ عَـنْـهُـم الـحـرمُ الأمِـينَا

* * *

لـقـد سَـئِـمَ الـهَـوَى فِـي الـبـيْـدِ قَـيْـسُ ومَـلَّ مـنَ الـشَّـكَـايَـةِ والـعـذابِ
يـحـاولُ أنْ يـبـاحَ الـعـشـقُ حَـتَّـى يَـرَى لـيـلاهُ وهِـيَ بِـلاَ حِـجَـابِ
يـريـدُ سـفـورَ وجـهِ الـحـسـن لَـمَّـا رأىَ وجْـهَ الـغـرامِ بِـلاَ نِـقَـابِ
فـهـذَا الـعـهـدُ أحـرقَ كـلَّ غـرسٍ مِـنْ الـمـاضِـي وأغـلـقَ كُـلَّ بَـابِ
لَـقَـدْ أفْـنَـتْ صـواعـقُـه الـمـغـانِـي وعـاشَـتْ فِـي الـجِـبَـالِ وفِـي الـهـضـابِ

* * *

هـيَ الـنـارُ الـجـديـدةُ لـيـسَ يُـلْـقَـى لَـهَـا حـطـبٌ سِـوَى الـمـجـدُ الـقـديمُ

خـذُوا إيمـانَ إبـراهـيـمَ تـنـبـتْ ... لـكـمْ فِـي الـنـارِ روضـاتُ الـنـعـيـمِ
ويـذكُـو مـن دمِ الـشـهـدَاء وَرْدُ ... سَنِـيُّ الـعـطـرِ قُدْسِـيُّ الـنَّـسِـيـمِ
ويلـمَـعُ فِـي سمـاءِ الْكَوْنِ لَوْنٌ ... مـن الـعـنـابِ مـخـضـوبِ الأديمِ
فـلاَ تَـفْـزَعْ إذَا الـمـرجـانُ أضحَى ... عُـقُـوداً لِـلْـبَـراعـمِ والـكـرومِ

* * *

فـكـمْ زَالَـتْ رِيـاضٌ مِـنْ رُبَـاهَـا ... وكَـمْ بَـادَتْ نَـخِـيـلٌ فِـي الـبَـوَادِي
ولَـكِـنْ نـخـلـةُ الإسـلامِ تَـنْـمُـو ... عَـلَـى مَـرِّ الـعـواصِـفِ والـعَـوَادِي
ومـجـدُكَ فِـي حِـمَـى الإسـلامِ بـاقٍ ... بـقـاءَ الـشـمـسِ والـسـبـعِ الـشِـدَادِ
وأنَّـكَ يـوسُـفُ فِـي أيِّ مـصـر ... يَـرَى كـنـعـانـه كـلَّ الـبِـلاَدِ
تـسـيـرُ بِـكَ الـقـوافِـلُ مُـسـرِعـاتٍ ... بِـلاَ جـرسٍ ولا تـرجـيـعِ حـادِي

* * *

ضـيـاؤكَ مـشـرقٌ فِـي كـلِّ أرضٍ ... لأنَّـكَ غَـيْـرُ مـحـدود الـمـكـانِ
بـغـتْ أمـمُ الـتـتـارِ فـأدرَكـتـهَـا ... مِـنَ الإيـمـان عـاقِـبَـةُ الأمَـانِ
وأصـبـحَ عـابـدُو الأصـنـامِ قـدمـاً ... حـمـاةَ الـحـجـر والـرُّكـن الـيَـمَـانِ
فـلا تَـجْـزَعْ فـهـذَا الـعـصـرُ لـيـلٌ ... وأنـتَ الـنـجـمُ يـشـرقُ كُـلَّ آنِ
ولا تـخـشَـى الـعـواصـفَ فـيـهِ وانـهـضْ ... بـشـعـلـتـكَ الـمـضـيـئـة فِـي الـزمـانِ
أعـد مـنْ مـشـرقِ الـتـوحـيـد نـوراً ... يـتـمُ بـهِ اتـحـادُ الـعـالـمـيـنَا
وأنـتَ الـعِـطْـرُ فِـي روضِ الـمـعـالِـي ... فـكـيـفَ تَـعِـيـشُ مـحـتـسـبـاً دفـيـنا
وأنـتَ نـسـيـمُـهُ فـاخـيـلْ شَـذَاهُ ... ولا تَـخْـيـلْ غُـبَـارَ الـخـامِـلِـيـنَا
وأرسِـلْ شـعـلـةَ الإيـمـانِ شـمـسـاً ... وصُـغْ مِـنْ ذَرةٍ جَـبَـلاً حَـصِـيـنا
وكُـنْ فِـي قـمـةِ الـطـوفـانِ مَـوْجـاً ... وَمُـزْنـاً يـمـطـرُ الـغَـيْـثَ الـهـتُـونَـا

* * *

فـبـاسـم مـحـمـدٍ شـمـسُ الـبـرايَـا ... أقـيـمـتْ خـيـمـةُ الـفـلـكِ الـمـنـيـرِ
تـلألأَ فِـي الـريـاضِ وفِـي الـصـحـارِي ... وفـوقَ الـمَـوْجِ والـسـيـلِ الـمـغـيـرِ

ونبضُ الكون مِنهُ مستمد حرارتُهُ على مَرِّ العُصُورِ
ومن مراكش يغزو صداهُ رُبُوعَ الصين بالصَّوتِ الجَهيرِ
وَمَا مِشكاةُ هذا النورِ إلاَّ ضميرُ المسلمِ الحُرُّ الغَيُورِ

* * *

وَرَفعُ الذكر للمختارِ رفعٌ لقدرِكَ نحوَ غاياتِ الكَمالِ
فكُنْ إنسان عينِ الكونِ واشهدْ مقامَكَ عالياً فوقَ المعالِي
بخنجر عزمِكِ الوثابِ لاَحَتْ عَلَى الأعلامِ أنوارُ الهلالِ
نداؤكَ فِي العَناصِرِ مُستَجابٌ إِذَا دَوَّى بصَوتٍ مِنْ بِلاَلِ
وعقلُكَ فِي الخطُوبِ أجلُّ دِرْعٍ وعشقكُ خيرُ سيفٍ للنضال

* * *

خلافةُ هذه الأرض استقرتْ بمجدِكَ وَهُوَ للدنيَا سماءُ

وَفِي تكبيركَ القدسيِّ يَبدُو صغيراً كلُّ ما ضَمَّ الفضاءُ
فيَا مَنْ هَبَّ للإسلاَمِ يَدْعُو وأيقظَ صدقَ غيرته الوفَاءُ
سترفعُ قدرَكَ الأقدَارُ حتَّى تشاهِدَ أنْ ساعدَكَ الفضاءُ
وقيلَ لَكَ احتكِمْ دُنيَا وأُخرَى وشأنك والخلود كمَا تَشَاءُ

* * *

٣٩ ـ كتاب هام عن باكستان
أجنحة جبرائيل

كان قد كتب فيما مضى عن الكتاب القيم الذي دبجته يراع البحاثة الكبيرة في الإسلام العلامة آنا ماري شيمل عن رحلتها إلى الباكستان. ولقد عثرت لنفس المؤلفة على كتاب بحجم ٤١٣ صحيفة من القطع المتوسط نشر

بريل في لايدن (هولاندا) ١٩٦٣ باللغة الإنكليزية بعنوان «أجنحة جبرائيل» يحتوي على دراسة في المثل العليا الدينية للسيد محمد إقبال.

يحتوي الكتاب عن دوافع التأليف ثم ذكر تاريخ حياة هذا المفكر الكبير وثقافته من مختلف المصادر الشرقية والغربية. ومما تقوله أن باكستان عندما تشكلت عدت إقبال أباها الروحي وتذكر أيضاً بأن إقبال يرى الدين أسمى من الشعر وهو بحركة دائمة من الفرد إلى المجتمع. وتروي عنه قوله: «أنا لا أريد شيئاً من الفلسفة ولا من المولا، لأن في الأولى موت القلب وفي الثانية انهيار الأفكار والرؤى»، ويفسر إقبال الإيمان بأنه الطريق الحيوي للاتصال بالكون، فهو في نظره من الدين الحركي (الديناميكي). ومما يقوله: «إني أؤمن إيماناً لا شك فيه بأن العالم شاهد على وحدة الله المطلقة. وبذلك تكون أهميتنا بين الأقوام واضحة».

إن المؤلفة تعالج أركان الإسلام نظراً لإقبال مفصلاً كما يلي:

لا إله إلا الله، في البدء النفي وبعد ذلك الإثبات ومما يرويه عن ينتشه بأنه وقف عند النفي فقط. ويرى مبدأ الوحدة ملائم للحياة. والوحدة تنفي التفريق بين الجسم والروح. ومما ترويه عنه: «عندما فرق الأوروبيون بين الروح والجسد، عند ذلك فرقوا بين الدين والدولة. وإن كل شيء حسب رأيه ينتهي إلى الله» ويروى عن الشاعر الألماني غوته:

«إن كل بحوثنا وكل جهودنا. نجد راحتها عند الله ربنا».

بقلم العلامة الكبيرة آنا ماري شيمل

تقريظ الدكتور محمد يحيى الهاشمي

(لمجلة الوعي)

إن هذا الإيمان يلزم أن ينعكس على النفس أو الذات، ويأتي إقبال بالمثل الشهير في تصور الشرقيين بانعكاس العمل الصالح على الذات كما تنعكس قطرة الغيث على الصدفة فتحيلها لؤلؤة ثمينه أو كما يروى عن بعض الشعراء:

تَرَى الوعدَ عندَ الحُرِ دَيْنٌ وعِنْدَ النذْل مَقْبَحَةٌ وَذَمَّا

كقطرِ الغيثِ في الأصدَافِ دُرّاً وَفِي جَوْفِ الأفَاعِي صَارَ سُمّاً

يجد إقبال رسالة الإنسان سامية، فهي تساهم في المخطط الإلهي، وبذلك ينظم (حسب ترجمة عزام):

بين الله والإنسان:

خلقتَ الأنامَ لطينٍ وماءٍ خلقتَ تتاراً وزِنْجاً وفُرْسَا

خلقتَ مِنَ التراب هذا الحديد وسَهْماً خلقتَ وسَيْفاً وتِرْسَا

وفَأساً خلقتَ لجِذْعِ وَغُصْنٍ وَسَجْنٍ صنعتَ لطيرٍ مُغَنِّي

الإنسان:

خلقتَ الظلامَ فصغتَ السراجَ وطيناً خلقتَ فصَغْتِ الكُؤوسَا

خلقتَ جبالاً وبيداً ومرجاً خلقتَ حدائِقَهَا والغرُوسَا

أَنَا مِنْ حجارٍ صنعتُ مَرَايَا أَنَا مِنْ سُمُومٍ صَنَعْتُ دَوَايَا

تكملة لشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، وفي هذه الديانة كما في الديانات الكبرى لا يلعب المؤسس دوراً رئيسياً. ويرى إقبال الرسول

الأعظم رمز الكمال «ولكم في رسول الله أسوة حسنة».

تنتقل المؤلفة بعد ذلك في ذكر رأي إقبال في الصلاة، والعبادة هي التحرر، ومما ترويه عنه:

«إن كافراً يقف بقلب خاشع أمام صنم خير من مسلم ينام في الكعبة».

مصداق لآية القرآن الكريمة ﴿ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، وليست الغاية من الصلاة كما تروي عنه الإتصال بالله فحسب، بل العمل على تنفيذ إرادته وتحقيق شرعه، وهذا تلميح للآية الكريمة: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

الصيام والحج والزكاة والجهاد. لم يتطرق إقبال إلى الصيام كثيراً لكنه سعى ليفسره بأنه تطهير روحي. أما الزكاة فكما تقول المؤلفة عنه بأنها تجعل المسلمين في موقف وسط بين الرأسمالي البرجوازي وبين البلشفيكية الشيوعية، وفي رأي الكاتبة هي من القضايا الهامة في تفاهم الشعوب اليوم. وتجد المؤلفة إقبال من أكبر المدافعين عن مثل هذا الحل الوسط المستمد من الإسلام.

يرى إقبال في الحج الفرصة الهامة لجميع المسلمين من الأقطار المختلفة واجتياز حدود العصبية والعنصرية الضيقة، وهذا الاجتماع كما ترويه هو من الممهد لعصبة الأمم، وإن أحسن علاج للشعوب اليوم اجتياز رقعة العنصرية للوصول إلى الفكرة الإنسانية الشاملة.

أما الجهاد فلم يعلق عليه إقبال كبير أهمية وهو في نظره ليس من أركان الإسلام، بل فرض كفاية إذا قام به بعضهم سقط عن كلهم، ويكون فرض عين في الأخطار المحدقة. والأهم من ذلك جهاد النفس ألا وهو الجهاد الأكبر. وإقبال في رأي بحاثتنا ضد الحروب التعصبية ولا يجوز الحرب للدعاية للدين مطلقاً، مصداقاً للآية الكريمة: ﴿لا إكراه في الدين﴾.

بعد ذلك تروي الكاتبة الأركان الأخرى ألا وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى. وتروي الكاتبة بأن

إقبال يرى في الملائكة رموزاً دينية، فاسرافيل لنفخ الصور وجبرائيل للوحي وغير ذلك، ومما يروى عن النبيّ بأن له مواقفاً لا يصل إليها جبرائيل ويقول إقبال:

«ليس كل قلب مأوى لجبرائيل، فإن الله وحده يعطي هذه الهداية».

ومما ترويه أيضاً بأن الشيطان الذي عصى الله ظاهراً كان منفذاً لإرادة الله الخفية ومخطَّطَهُ الذي يدق فهمه على الإنسان الذكي.

أما ما يخص الإيمان بالإسلام والكتب السماوية كالتوراة والإنجيل، وفهمنا للقرآن والوحي الإلهي لا يحدث إلا بوحي خاص:

«إذا لم توحِ الكتب نفسها إلى القلب شيئاً، فلا ينفع معها لا تفسير الرّازي ولا الكشاف».

ويذكر إقبال في پيام مشرق (رسال المشرق) حسب ترجمة عزام -:

دع الـرازيّ فــي تـفـسـيـر أيْ فـإنّ ضـمـيـرَنَـا نِـعْـمَ الـدَّلِـيـلُ
يـضـرمُ عـقـلَـنَـا والـقَـلـب يَـضْـلِـي بِـذَا نُمْـرُودُ فـسـر والـخـلـيـلَ

أما الإيمان بالرسل فيبتدىء بآدم وينتهي بالرَّسُولِ الأعظم. ويجد بآدم رمز الإنسانية والتي ليست غايتها الراحة بالجنة، بل البحث والعمل ﴿وقل أعملوا﴾ ومما ترويه عنه:

«إني أضحي باليقين التام في سبيل الشك، فأنا شهيد البحث».

هنا يقتضي أيضاً الرجوع إلى ترجمة عزّام «حياتك فابغ في الخطر الجليل».

ففي الأخطار للهمم اختبار الأرواح وأجساد عيار، يرى معجزة موسى اليد البيضاء ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء﴾ ألا وهي أعمال الخير، وإن الحب يعطي اليد البيضاء للرجل الأسود. يمجد إقبال المسيح ولكنه ينقد المسيحين أو كما جاء في ضرب الكليم من ترجمة عزام «أوروبا وسوريا»:

أَهْـدَتِ الـشَّـامُ إِلَـى الغرب نـبـيـاً هُـوَ عَـفٌّ ومـواس وصـبـورُ
ومِـنَ الـغَـرْبِ إِلَـى الـشـامِ هِـدَايَـا مِـنْ قـمـارٍ ونـسـاءٍ وخـمـورِ

أما معالجته يوم الآخر فيعالج إقبال فكرة الأبدية والخلود ومما ترويه عنه:

«الزمان هو المحتوى الذي يملأ إدراكنا».

وهنا يتكلم عن الفعالية والحركة، فيقول: «أنا هو طالما تحركت وفي عدم ذلك فلست بأنا».

أما ما يخص الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى فهو حسب تحقيق علامتنا لا ينفي المسؤولية:

«أيها الرجل الشاب لا تتخذ القدر معذرة لأعمالك».

وهنا تنطبق الآية الكريمة: ﴿فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾:

في البحث عن الله يلزم عمل ذلك في ضميرنا مصداقاً للحديث القدسي:

«ما وسعتني سماواتي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن».

أخيراً تقول الكاتبة: لا أحد يمكنه الادّعاء بأن إقبال كان نبياً، لأن ذلك يتعارض مع العقيدة الإسلامية، ولكن فهمه للإسلام كان بروح النبوة ونسمح لأنفسنا الاعتقاد بأن أجنحة[1] جبرائيل قد مسته ويصح في حقه ما أورده إقبال عن جامي في جلال الدين الرومي (حسب ترجمة عزام):

شَاعِرٌ يشبـهُ ذَا العَالِي الجنابِ مَا نَبِياً كَانَ لَكِنْ ذُو كِتَابِ

ذكرت المؤلفة كثيراً من المصادر لإقبال من شرقية ومن غربية وكان من دوافعه «أن الحب والشوق مفتاح كل حكمة» إننا في الحقيقة لنعجب أشد الإعجاب للفهم العميق لهذه المؤلفة وقابليتها للتمثل الفريد، وإن ما أتت به ليس جديداً على عالم الغرب فحسب، بل على عالم الشرق أيضاً، ودليلنا على ذلك أنها عندما ألقت خطابها التاريخي عن إقبال في الباكستان ذاتها باللغة الأردية

(١) يحتمل أن تكون الكاتبة قد وضعت نصب أعينها قول الله تعالى: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفُسُكم ولكُم فيها ما تدّعون، نُزلاً من غفور رحيم﴾. الآيات: ٣١، ٣٢ من سورة فصّلت.

نالت إعجاب الباكستانيين أنفسهم وأتت لهم بجديد عن هذا المفكر الإسلامي والإنساني الكبير.

٤٠ ــ لمحة عن حياة محمد إقبال
للدكتور إحسان حقي الشامي
زميل إقبال

عرف محمد إقبال في الشرق والغرب منذ نعومة أظفاره وطار صيته في الآفاق حيثما حلّق شعره الذي ترجم إلى لغات كثيرة وكتب عنه كثير من العلماء أشياء كثيرة، ولكن محمد إقبال لم يكن شاعراً فقط بل كان عالماً في واحد وعبقرياً في شخص فهو شاعر فذ وأديب مجلى وفيلسوف مبدع وحكيم مفكّر وحقوقي بارع وزعيم سياسي مرموق، فنواحيه إذن عديدة والكلام عنه للحصول على درجة الدكتوراه.

عَرِفْتُ فقيد الإسلام محمد إقبال يوم كنت في الهند فأحببته حباً جماً وامتزجت روحي بروحه على الرغم من فارق العمر بيني وبينه وأصبحنا صديقين حميمين، وكنت كلما سنحت لي الفرصة بزيارة لاهور أزوره في دارته وأقضي معه الساعات الطويلة، كما أننا كنا نتكاتب بالمناسبات، وإذا قلت بأني لم أكن أمل صحبته الهادئة المليئة بمعاني السمو والإنسانية فهذا شيء طبيعي ليس فيه من عجب ولكن العجب أن أراه هو أيضاً لا يملُّ صحبتي بل يدعمها بما يكنّه ويظهره لي من آيات المحبة والوداد وكان يعجبه تمكني من اللغة الأردية ويقول لي: إن كثيراً من أصدقائنا يذهب بهم الظن إلى أن فيك دماً هندياً كما أن كثيراً من الناس ادَّعُوا يوم قلت الشعر بالفارسية بأن فِيَّ عرقاً إيرانياً.

قلت بأن المغفور له كان يظهر لي الود ويصرح به وكنت إذا دخلت عليه

وكنت أول الزائرين لا يسمح لي بالانصراف إلاّ آخرهم. ومما لاحظته فيه أنّه كان ميّالاً إلى العرب لا بل وكان يحترمهم إكراماً للنبيِّ العربي ﷺ.

كان محمد إقبال لطيف المعشر متواضعاً أنيساً هادئاً قليل الكلام وإذا تكلم، تكلم بهدوء وبصوت منخفض ولم أره في يوم من الأيام ثائراً أو غاضباً مهما كانت الأحوال بل كان يلتقي كل شيء كأنه شيء عادي لا يمكن أن يكون غير ما كان. وكان الداخل عليه إذا كان لا يعرفه، لا يميّزه عن غيره من جلسائه بشيء لما كان يتحلى به من بساطة وهدوء.

كان محمد إقبال، مثل كل الوجهاء في كل بلاد الشرق، يجلس لزائريه جلستين في اليوم، جلسة في الصباح وهي للخاصة من أصدقائه وجلسة بعد العصر وهي لكل زائر أو صديق وقد يجلس داخل دارته، إن كان الوقت بارداً، أو يجلس في صحن الدارة إن كان الجو حاراً، وكانت داره مفتوحة لكل زائر من غير سبق سواء أكان من أهل البلاد أم من خارجها، فيجلس لزائريه باللباس الوطني - السراويل الفضفاضة والقميص - جلسة هادئة ليس فيها تصنّع ولا امتياز ويجلس الزائرون بلا تمييز وتدار عليهم كؤوس الشاهي وورق التنبول والحقق (النرجيلات الهندية) ويأخذ هو بأنبوب حقته بيده يمصه حيناً بعد حين وهو لا يبدي حركة بل يستمع إلى ما يروى وما يقال من أحاديث ونكات، وتراه يجول ببصره كالحالم وكأنّه في عالم آخر ولكنه يستوعب كل ما يقال له أو في حضرته وقد يشارك بالحديث إذَا سُئِلَ أو رأَى حاجة للقول وإذا تكلم أنصتَ الجميع بكل خشوع واحترام.

كان محمد إقبال مثل كل الفلاسفة والمفكرين، كثير التفكير كثير التدبر، قليل الكلام، وكان سكوته وقوداً لما يعتلج في نفسه من أمور ينفثها شعراً وحكماً، وكان أمر المسلمين شغله الشاغل ووضعهم يؤلمه ويعذبه، وقد أدرك بثقاب رأيه وبعد نظره الخطر الذي يهدد مسلمي الهند فأيقظ المسلمين وحذّرهم من التمادي في السير في مجال القومية الذي ابتدعه الهنادكة ليقضوا على المسلمين. ولكن زعماء المسلمين لم يكونوا يدركون ما أدرك فساروا وراء

غاندي وجماعته، ولكنهم لم يتموا الطريق إلى النهاية بل أيقظتهم الأحداث إلى المخاطر فعادوا إلى طريق الحق بعد أن لمسوا لمس اليد سوء نوايا الهنادكة الذين كانوا يدسون لهم السم بالعسل ليخدعوهم، فلما تبيّن لهم الحق عادوا إلى إقبال وساروا برأيه وأعلنوا انفصالهم عن الهنادكة وطالبوا بتأسيس دولة إسلامية فكانت باكستان التي ابتدع محمد إقبال لها هذا الإسم الذي يعني (بلاد الأطهار) في مقابل هندوستان: (بلاد الهنادكة).

كان محمد إقبال بفطرته بعيداً عن السياسة وما كان له أن يكون سياسياً وهو الفيلسوف الشاعر، ولكن السياسة هي التي كانت تطلبه وتحتاج إليه، المفكرون من الناس كانوا بحاجة إلى الاسترشاد بآرائه في القضايا الوطنية بالنظر إلى مكانته العلمية والاجتماعية في البلاد، فكان، إذن، مرغماً على خوض ميادين السياسة من غير أن يكون سياسياً محترفاً أو سياسياً محترفاً طامعاً بجاه أو منصب. بل أن وجاهته وعلمه وأدبه كانت تفرض عليه أن يكون خادماً لبلاده وكان يجيب نداء هذا الواجب.

خدم محمد إقبال بلاده عن طريق الشعر وعن طريق العلم وعن طريق المحاماة وعن طريق السياسة ولكنه لم يكتفِ بذلك بل رأى أن المسلمين بحاجة إلى دراسة دينهم دراسة علمية لكي يستطيعوا الوقوف أمام الدعايات المعادية فأسس (المجمع العلمي الإسلامي للأبحاث) وضم إليه فريقاً كبيراً من الزعماء والعلماء المرموقين، وكان يرمي من وراء ذلك إلى إيجاد حركة إسلامية علمية تقوم على طريق البحث العلمي الحديث لمقاومة التيارات المعادية التي تكالبت على الإسلام والمسلمين.

بمجرد ظهور هذا المجمع العلمي سرت موجة من السرور والأمل في صدور المخلصين من المسلمين وعلقوا عليه آمالاً جساماً في سبيل وضع الأمور في نصابها كما أن ظهوره أزعج الإنكليز والهنادكة معاً إذ حسبوا له ألف حساب لا سيما وأنهم كانوا يعلمون مراميه الإسلامية.

كان محمد إقبال ينوي أن يجعل من هذا المجمع مؤتمراً إسلامياً عالمياً يوصل بواسطته صوت الحق إلى كل مكان ويحدث انقلاباً في تعريف الإسلام وفي الدفاع عنه، وبعد أن عقدت الجلسة الافتتاحية لهذا المجمع سافر المغفور له محمد إقبال إلى لندن لحضور جلسة الطاولة المستديرة الذي دعت إليه الحكومة الإنكليزية لبحث القضية الهندية، وكان ينوي أن يمر بطريق عودته من إنكلترا إلى الهند، بإسبانيا للاطلاع على آثارها الإسلامية مِمّا خلفه المسلمون فيها من مدنية، واتفقنا على أن التقي به في إسبانيا لنزورها معاً ثم نعود إلى الهند للإنصراف إلى شؤون المجمع العلمي على أن ينشر كل دراساتنا باللغتين الأردية والعربية ثم تترجم إلى لغات أخرى.

وقد أردت أن أغتنم فرصة وجود المغفور له في مؤتمر الطاولة المستديرة وأن أقوم بجولة دراسة في ألمانيا وفرنسا قبل أن أذهب إلى إسبانيا فزودني بكتاب لتعريفي إلى بعض الأوساط العلمية أنشره كما هو مع ترجمته العربية.

عملنا ما عملنا وقررنا ما قررنا وكنا كما قال النبيّ ﷺ: يقدر المقدرون والقضاء يضحك. إذا ما كاد المغفور له يغادر الهند إلى لندن وبينما كنت أعد عدة السفر للقيام برحلتي وإذا بي أتلقى أمراً من الحكومة الإنكليزية بطردي من الهند في مهلة ٤٨ ساعة فغادرتها بعد أن أغلق باب العودة إليها ورائي وقصدت فرنسا وهناك تلقيت رسالة من المرحوم يقول فيها أنه لأسباب اضطرارية قر ر إلغاء الرحلة إلى إسبانيا وكان آخر اجتماع لي به هو اجتماعنا في المجمع العلمي.

هذه ناحية من نواحي إشعاع المغفور له محمد إقبال في العالم الإسلامي وقد انطفأت بموته واعتقد أن قليلاً من الناس الذين مازالوا أحياء يعرفون هذه الناحية إذ أني كنت آنذاك أصغر أعضاء المجمع سناً، ولذا أرى من واجب الأمانة التاريخية بأن أنوه بها للتاريخ.

إحسان حقي

(مجلة الوعي)

٤١ ـ خلوة

للشاعر الفيلسوف محمد إقبال

إنَّ فِي خَلْوَةِ النُّفُوسِ لأُنْسَا	لَيْسَ كُفْئاً لِخَلْوَةٍ كُلُّ نَفْسِ
هِيَ فِي ضَجَّةِ الأَنَامِ سكونُ	يسمعُ القلبُ عِنْدَهُ كلَّ هَمْسِ
هِيَ فِي فُرْقَةِ النفوسِ اجتماعُ	ترهفُ النفسُ عِنْدَهُ كلَّ حسِ
هيَ فِي فَسْحَةِ الخيالِ انطلاقٌ	دونَ قيدٍ مِنَ الجليسِ وَحَبْسِ
هِيَ هدَى العقولِ بعدَ ضلالٍ	فِي خداعٍ مِنَ الحَيَاةِ وَلَبْسِ
هِيَ فِي ظلمةِ الليالِي ضِيَاءُ	لاَ تَرَاهُ النفوسُ فِي ضَوْءِ شمسِ
فِي ضيقٍ بالخلاءِ نفساً فإنِّي	أَجِدُ الخلوةَ الطويلةَ أُنْسِي

ترجمة الرسالة

لاهور في ١٧ نيسان ١٩٣٣

إنني أشعر بسرور عميق بأن أقدم صديقي العزيز والعضو الممتاز في المجمع الإسلامي البروفيسور إحسان حقي إلى جميع المعاهد العلمية والشخصيات الأدبية البارزة وأرجوهم جميعاً بأن يقدموا إليه كل مساعدة يحتاجها.

وإني لعلى ثقة بأن المحافل ستشعر بالفخر العميق بأن ترى بينها مثل هذا العالم الجليل.

التوقيع

رئيس المجمع العلمي للأبحاث

دكتور سر محمد إقبال

٤٢ ـ حديث الروح

غناء كوكب الشرق السيدة أم كلثوم

من قصيدتي (شكوى) و(جواب شكوى) لشاعر باكستان وفيلسوفها الكبير

الدكتور محمد إقبال

ترجم القصيدتين إلى العربية الأستاذ محمد حسن الأعظمي

ونظمها شعراً فضيلة الشيخ الصاوي علي شعلان

حديثُ الروحِ للأرواحِ يُسْرِي ... وتدركُهُ القلوبُ بِلاَ عَنَاءِ

هتفتُ بِهِ فطَارَ بِلاَ جَنَاحٍ ... وشَقَّ أَنِينُهُ صدرَ الفَضَاءِ

ومعدنُهُ تُرَابِي ولكنْ ... جرتْ فِي لَفْظِهِ لغةُ السماءِ

لقدْ فاضَتْ دموعُ العِشْقِ مِنِّي ... حَدِيثاً كانَ علوِيَّ النِّدَاءِ

فحلَّقَ فِي رُبَا الأفلاكِ حَتَّى ... أَهَاجَ العَالَمَ الأَعْلَى بكائِي

* * *

تحاوَرَتْ النجومُ وقلَّ صوتٌ ... بقربِ العرشِ مَوْصُولِ الدعاءِ

وجاوَبَتْ المَجَرَّةُ عَلَّ طَيْفاً ... سَرَى بَيْنَ الكواكِبِ فِي خِفَاءِ

وقالَ البدرُ هذَا قلبُ شاكٍ ... يواصِلُ شَدْوَهُ عِنْدَ المَسَاءِ

وَلَمْ يعرفْ سِوَى رضْوَانُ صوتِي ... وما أَحْرَاهُ عِنْدِي بالوفاءِ

شَكْوَايَ أَمْ نَجْوَايَ فِي هَذَا الدُّجَى ... ونجومُ ليلِي حسدِيَ أَمْ عُودَى

أمسيتُ فِي الماضِي أَعيشُ كأنَّمَا ... قطعَ الزمان طريقَ أمسِي مِنْ غدِي

والطيرُ صادحةٌ عَلَى أَفْنَانِهَا ... تبكِي الرُّبَى بِأَنِينِهَا المتجدِّدِ

قَدْ طَالَ تسهيدِي وطَالَ نشيدُهَا ... ومدامِعِي كالطَّلِّ فِي الغصنِ النَّدِي

فإلَى مَتَى صَمْتِي كأنّي زَهْرَةٌ خرساءُ لَمْ تُرزَقْ بَرَاعَةَ مُنْشِدِ

• • •

قِيثَارَتِي مُلِئَتْ بِأنَاتِ الجَوَى لاَ بُدَّ للمكبُوتِ مِنْ فَيَضَانِ
صَعِدتْ إلَى شفتِي خَوَاطِرُ مُهْجَتِي لِيَبِينَ عَنْهَا مَنْطِقِي وَلِسَانِي
أَنَا ما تعديتُ القناعةَ والرِّضَا لكِنَّمَا هِيَ قصةُ الأشجانِ
يشكُو لَكَ اللهمّ قلبٌ لَمْ يَعِشْ إلاَّ لِحمدِ عُلاكَ فِي الأكْوَانِ

• • •

مَنْ كَانَ يهتفُ باسم ذَاتِكِ قَبْلَنَا مَنْ كَانَ يَدْعُو الواحِدَ القَهَّارَا
عَبدُوا الكواكبَ والنجومَ جهالةً لَمْ يَبْلُغُوا مِنْ هديِهَا أنوارَا
هَلْ أَعْلَنَ التوحيدَ داعٍ قَبلَنَا وهدَى القلوبَ إلَيْكَ والأنظَارَا
ندعُو جهاراً لا إله سِوَى الَّذِي صنعَ الوجودَ وقدَّرَ الأقْدَارَا

• • •

إذَا الإيمانُ ضاعَ فلا أمَانَ ولا دُنْيَا لِمَنْ لَمْ يُحْيِ دِينَا
وَمَنْ رضِيَ الحياةَ بغيرِ دينٍ فقدْ جَعَلَ الفناءَ لَهَا قرينَا
وفِي التوحيدِ لِلْهِمَمِ اتحادٌ ولَنْ تَبْنُوا العُلاَ متفرقِينَا

• • •

ألَمْ يبعث لأمتِكُمْ نَبِيٌ يوحدُكُمْ عَلَى نَهْجِ الوئَامِ
ومصحفكُمْ وقبلتكُمْ جَمِيعاً منارٌ للأخوةِ والسَّلامِ
وفوقَ الكلِّ رحمنٌ رَحِيمٌ إلهٌ واحِدٌ رَبُّ الأنَامِ

• • •

٤٣ - ومن روائع ما يذكر في التضرع إلى الله عزّ وجلّ(١)

يَا فَاطِرَ الخَلْقِ البَدِيعِ وكَافِلاً ... أَرْزَاقَ مَنْ هُوَ صَامِتٌ أَوْ سَائِلُ

أَوْ سَغْتَهُمْ جُوداً فَيَا مَنْ عِنْدَهُ ... رِزْقُ الجَمِيعِ سَحَابُ جُودِكَ هَاطِلُ

يا مُسْبِغَ البِرّ الجزيل ومُسْبَلَ العَفْوِ ... العَظِيمُ عَظِيمُ فَضْلِكَ وابِلُ

يا صَاحِبَ الإِحْسَانِ يَا مُرْخِ لَنَا السِتْرَ ... الجَمِيلَ عَمِيمُ طُولِكَ طَائِلُ

يَا عَالِمَ السِّر الخَفِي ومُنْجِزَ الـ ... ـمِيعَادِ صدقي قَدْ حَكَاهُ الفَاصِلُ

يَا مَنْ عَلَى العَرْش استوى يا صَادِقَ الـ ... ـوَعْدِ الوَفي قَضَاءُ حُكْمِكَ عَادِلُ

عَظُمتْ صِفَاتُكَ يَا عَظِيمُ فَجلّ أَنْ ... يَأْتِي المُشَبِّه ظَالِماً وَيُشَاكِلُ

جَلَّتْ فَضَائِلُكَ العظَامُ فَلَمْ نَجِدْ ... يُحْصِي الثَنَاءَ عَلَيْكَ فِيهَا قَائِلُ

الذَّنْبُ أَنْتَ لَهُ بِمَنِّكَ غَافِرُ ... مَا لَمْ يَكُنْ شِرْكاً فَفَضْلُكَ حَاصِلُ

يَعْصِيكَ جَمٌّ ثُمَّ تَصْفَحُ عَنْهُمْ ... ولِتَوْبَةِ العَاصِي بِحِلْمِكَ قَابِلُ

ربٌّ يُرَبِّي العَالَمِينَ بِبِرِّه ... وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَيُوَاصِلُ

يُعْطِيهِمُوا ما أَمَّلُوا مِن جُودِهِ ... ونَوَالُهُ أبداً إليهم وَاصِلُ

تَعْصِيهِ وَهْوَ يَسُوقُ نَحْوَكَ دَائِماً ... نعماً وعن شُكْرٍ لَهَا أَنْتَ غافِلُ

سَتَرَ الذُّنُوبَ وَزَادَ فِي بَذْلِ العَطَا ... مَا لاَ تَكُونُ لِبَعْضِهِ تَسْتَاهِلُ

مُتَفَضِّلٌ أبداً وأنتَ لِجُودِهِ ... تَنْسَى وَتَغْفُلُ هَلْ تَعِي يا غَافِلُ

---

(١) هذه الأبيات للعالم العلامة الورع الزاهد الشيخ عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن السلمان، أبو محمد، من الأساعدة من الروقة من قبيلة عتيبة القبيلة العربية المشهورة، له مؤلفات عديدة بلغت عشرين مؤلفاً: في التفسير وعلوم القرآن والعقيدة والفقه والوعظ والإرشاد، أدام الله النفع بمؤلفاته.

يَدْنُو وَتُبْعِدُ ثُمَّ أَنْتَ لِفَضْلِهِ ... بِقَبَائِحِ العِصْيَانِ مِنْكَ تُقَابِلُ

وَإِذَا دَجَى لَيْلُ الخُطُوبِ وأَظْلَمَتْ ... طُرُقُ السَّلاَمَةِ بَلْ قَلاَكَ النَّازِلُ

وَعَلِمْتَ أَنْ لاَ مُنْجِي ثُمَّ تَلاَحَمَتْ ... سُبُلُ الخَلاَصِ وخَابَ فِيهَا الآمِلُ

وأَيِسْتَ مِنْ وَجْهِ النَّجَاةِ فَمَا لَهَا ... طُرُقٌ وقَدْ عَظُمَ البَلاَ المُتَنَازِلُ

وقَنِطْتَ مِنْ ضعْفِ اليَقِينِ ولَمْ يَكُنْ ... سَبَبٌ ولا يَدْنُو لَهَا متناوِلُ

يأْتِيكَ مِنْ أَلطَافِهِ الفَرَجُ الذِي ... فِيهِ نَجَاتكَ لَيْسَ ليَشْغل شَاغِلُ

فِي لَحْظَةٍ يَأْتِيكَ لطفٌ فارجٌ ... لَمْ تَحْتَسِبْهُ وأَنْتَ عَنْهُ غَافِلُ

يَا مُوجِدَ الأَشْيَاءِ مَنْ أَلْقَى إِلَى ... أَحَد سواكَ فَإِنَّ ذَلِكَ بَاقِلُ

يا طَيِّبَ الأَسْمَاءِ مَنْ يَقْصُد إِلَى ... أَبْوَابِ غَيْرِكَ فَهْوَ غِرٌّ جَاهِلُ

وَمَنِ اسْتَرَاحَ بِغَيْرِ ذِكْرِكَ أَوْ رَجَا ... مَنْ غَيْرِكُمْ فَضْلاً فَذَاكَ المائِلُ

وَمَنِ اسْتَظَلَّ بِغَيْرِ ظِللكَ رَاجِياً ... أَحَداً سِوَاكَ فَذَاكَ ظِلٌّ زَائِلُ

ومن اسْتَعَاذَ إِذَا عَرَتْهُ مُلِمَّةٌ ... بِجَلاَلِكُمْ ذَا الرَّأْي رأْيِ بَاسِلُ

والرأي فِي عَكْسِ الذي حَبَّرْتُهُ ... بِسِوى جَنَابِكَ فَهْوَ رأْيٌ مَائِلُ

عَمَلٌ أُرِيدَ بِهِ سِوَاكَ فَإِنَّهُ ... عَمَلٌ يُرَدُّ عَلَى الذِي هُوَ عَامِلُ

لَوْ صَلَّى ذَاكَ وصَامَ حَجَّ فإِنَّ ذَا ... عَمَلٌ وَإِنْ زَعَمَ المُرَائِي بَاطِلُ

وإِذَا رَضِيتَ فَكُلُّ شَيْءٍ هَيِّنٌ ... حَسْبِي رِضَاكَ فكلُّ شيءٍ حَاصِلُ

أَنَا عَبْدُ سُوءٍ آبِقٌ كَلٌّ عَلَى ... مَعْبُودِهِ يَا بِئْسَ مَا أَنَا فَاعِلُ

وَلَقَدْ أَتَى العَبْدُ المُسِيء مُيَمِّماً ... مَوْلاَهُ أَوْزَارُ الكَبَائِرِ حَامِلُ

قَدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرِيَ الذُّنُوبُ وَسَوَّدَتْ ... وَجْهِي المَعَاصِي ثُمَّ ذَا أَنَا سَائِلُ

مَا لِيَ سِوَاكَ وَلَسْتُ أَرْجُو غَافِراً ... صفح العُيُوب وستْرُ عَفْوِك شَامِلُ

هَا قَدْ أَتَيْتُ وَحُسْنُ ظَنِّي شَافِعِيْ ... إِذْ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ لَدَيَّ يُقَابِلُ

وَلَبِسْتُ ثَوْبَ الخَوْفِ مِنْكَ مَعَ الرَّجَى ... وَوَسَائِلِي نَدَمٌ ودمعٌ سَائِلُ

فاغْفِرْ لِعَبْدِكَ مَا مَضَى وارْزُقْهُ تَوْ ... فِيقاً لِمَا تَرْضَى فَفَضْلُكَ كَامِلُ

وَافْعَلْ بِهِ ما أَنْتَ أَهْلُ جَمِيلِهِ ... يَا مَنْ لَهُ اسْماً حسانٌ فَوَاضِلُ

فَإِذَا فَعَلْتَ فَحُسْنُ ظَنِّي صَائِبُ   وَالظَّنُّ كُلُّ الظَّنِّ أَنَّكَ فَاعِلُ[1]

٤٤ ـ مد القوى الخيرة

القوى الخيرة طاقة هائلة مستمرة متفرعة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها بإذن ربها خالقها ومفرعها ومنظمها ومدبرها ومبدعها. والقوى الخيرة لن تفنى من الوجود أبداً بإذن الله ولولا قوى الخير لأصبحت الدنيا جحيماً لا تطاق وناراً، تكوي وتشوي تهلك وتدمر وتفني ولأصبح النور ظلاماً والبناء حطاماً والناس وحوشاً كاسرة ولقامت قيامة الظلم والجبروت والعصيان والشقاء والمجاعات والفناء ولعمّ البلاء ولذلك نجد حكمة الله المديرة قد جعلت كفة الخير راجحة فالله خير ولا يحب إلا الخير.. ولذلك فطاقات الخير تترى على الدوام وتغلب طاقات الشر وهذا أمر بديهي وإلا فلو كان الشر غالباً فما الذي منعه أن يلعب دوره كاملاً فيحطم الوجود ورونقه وأنظمته وقواعده الفكرية وتراثه الغني؟

ومن ثم فواضح تماماً أن موجات الخير غالبة قاهرة منتصرة فالكفر بالله ليس له قواعد راسخة من العلم وهو متهالك القوى المعنوية مريضها أعمى لا يرى ضعيف لا يقاوم مهزوم محاصر مخذول ذلك لأن فيض العقل القوي تجذبه مثاليات السماء إلى أعلى، وهذا الصعود في طاقة الفكر لدليل عظيم على أن الكيان الأعلى المحيط بالوجود موجود وإلا لما كان هذا الصعود، وكتاب السلام عديدون ونظريات السلام مقتحمة تقول آيات خالدات من النور للإنسانية وتصرخ في قوى الشر تتراجع وتنهار.. والعلم أصبح يجري جرياً وراء الحقائق ويقدم للإنسانية كل يوم روائعه ومدهشاته وآياته.

---

(١) انظر كتاب: من محاسن الدين الإسلامي، ص ٢٧ ـ ٣١ لعلاّمة الإسلام الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان.

والأمراض الخطيرة أصبحت قاب قوسين أو أدنى من وقوعها في شرك الهزيمة وهي الآن محاصرة ولا بد آن ترفع راية الاستسلام عن قريب بإذن الله.. والأمم أصبحت تقدر معنى السلام بفهم جاد وأصبحت تتردد كثيراً في اللعب بالنار.. ومستوى المعيشة في العالم صار مرتفعاً عن ذي قبل... والحضارة المادية لا يستطيع إنسان أن يجادل في صحة عظمتها في العصر الحديث للدنيا أصبحت جنات.. ولقد اختفت صيحات التعصب الديني وانتشر العلم والفن انتشاراً جباراً مدهشاً وأصبح الناس في الدنيا وكأنهم في جنة الفردوس. وإني أرى أن مد قوى الخير سيصل إلى غايته ومداه وسيأتي الوقت غير البعيد الذي ستكون الشرور فيه أصبحت لوحة تذكارية بسيطة كلما مر عليها قوم حمدوا الله إذ هم يرون أثراً لشيء أفنته قوى الخير الغالبة.

والقوى الخيرة التي يبثها الله الوجود لا ينقطع مدها أبداً، والملاحظ أن عناصر الخير المادية والمعنوية في زيادة مستمرة ولهذا فإني أرى والفضل من الله بأن روائع الفكر ستزداد وكذلك آيات العلم والفن وحب الإنسان لله سينمو نمواً مدهشاً وسينتهي التعصب الفكري والتعصب الديني والتعصب السياسي والإنسان بطبيعته متطور إلى السمو ولذلك يحدثنا التاريخ بأن الإنسان قديماً كان متوحشاً متأخراً في ميادين العلوم والفنون والصناعات والحرب والسلم وبالاختصار كان إنساناً يختلف عن الإنسان العصري كل الاختلاف وهذا يؤيد ما أراه بأن مد قوى الخير سيصل إلى مداه بإذن الله وبفضله، فطريق الإنسانية أوله نار وخلاله أشواك وأزهار وآخره جنة فإلى الأمام أيتها الإنسانية الخالدة ولوذي بقوى الخير فقوى الخير منتصرة وقوى الشر مهزومة مكسرة بإذن الله.

٤٥ ـ تنمية المواهب الفطرية

هذه المواهب التي هي روح الإنسانية وحياتها العليا وكمال وجمال وجودها لكي تنتج الإنتاج الرفيع الكامل الباهر المدهش لا بد أن تنمي، وهذه التنمية لها أصول وقواعد وحتى تكون تنمية مجدية لخير الفن والعلم وهما وسائل تهذيب الإنسانية وترقيتها يجب اختيار العناصر أصحاب المواهب الفنية والعلمية وهم العناصر التي تقوم بدورها في الفن أو العلم، فيلزم اختيار الأشخاص ذوي المواهب الفطرية الحقيقية فإن الفن والعلم الخاص وهو غير الثقافة العامة لا يؤديان رسالتهما إلا عن طريق ذوي المواهب والاستعدادات الفطرية الفذة العبقرية، وبهذا يكون الاختيار قد وقع على العناصر الإنسانية ذات التجاوب الطبيعي العبقري مع رسالة الفن أو العلم.

وهذا الاختيار لأصحاب المواهب يجب أن تكمله الدراسة الكاملة الشاملة ذات المواضيع المتطابقة مع هؤلاء المختارين ويلزم أن تكون الدراسات ذات مناهج كاملة تفصيلية حتى يكون دور الصقل للمواهب الفطرية وتنميتها بالغذاء الفني أو العلمي قد حالفه التوفيق فتظهر العبقريات في الفنون والعلوم ويحصل منها الفيض الذي هو روح الإنسانية وجمالها وكمالها ورقيها.

ويلاحظ أن أصحاب المواهب الفطرية الذين اكتملت مراحل تكوين طاقاتهم إذا لم يصاحبهم التشجيع الأدبي والمادي فإن فيض فنونهم وعلومهم يتعثر في منهجه من ناحية الموضوع ومن ناحية الكيف المتعلقين بالخلق الفني والإنتاج العلمي، ولذلك فالملاحظ أن الجوائز تنهض همم رجال الفنون وعباقرة العلماء ومن ثم فهذا التشجيع لازم لهؤلاء.

٤٦ ـ الإنسان كما أريد أن يكون

الإنسان هو الطاقة الإيجابية التي تسعى على وجه الأرض بعقلها وإرادتها، وهذه الطاقة هي سيدة الطاقات التي تنهمر كياناتها على الدنيا.. والإنسان ذو عقل مفكر وذو جسم هو خضم من عناصر التشكيل والتكوين وذو روح يعلم الله أمرها ويحاول العلم جاهداً أن يعرفها، وهذه الأدوات الثلاث على جانب خطير من الأهمية إذ كلاها ذات فعل وأثر ومن ثم فالواجب حتى تكون الرسالة المشتركة التي تؤديها هذه الفروع الثلاثة متناسقة متكاملة تبعث في الإنسان نور الدين والدنيا والفضيلة لذلك فالإنسان يجب أن يتحكم في إنتاج هذا الثالوث حتى يصير الإنتاج عبقرياً ونابعاً من مصادر الفضيلة والعلم ومتجهاً إلى المثالية الإنسانية ومتضمنا سعادة الإنسان وإنا نرى أن الواجب أن تسري على مصادر الآثار الإنسانية وهي الأدوات الثلاث المذكورة وجوبية الاعتدال والعبقرية والفضيلة والمثالية وطاعة الله فلو أن كل إنسان سار على هذا النمط لأصبح المجتمع الإنساني مكوناً من أفرادهم على النمط المثالي من كافة فروع تكوين المثالية... فالواجب أن يفكر الإنسان تفكيراً سليماً وأن يتصرف التصرفات السليمة وأن يؤدي للإنسانية أكثر مما يأخذ فإن ما يؤديه الأفراد للإنسانية على أساس قاعدة الإعطاء أكثر من الأخذ إنما يترتب عليه تشكيل رصيد ضخم من مقومات الإنسانية.. ويجب أن يكون الإنسان فاضلاً فإن الفضيلة هي مصدر الارتقاء العقلي والروحي والجسدي والارتقاء مثالية بدون شك...

كما يجب أن يحب الإنسان الله ويطيعه الطاعة التي يريدها الله فالله لا يرسم للإنسان إلا الكمال ونحن إذا ما حللنا كل تعاليمه وجدنا تشكيلاً لدائرة من الكمال يؤدي فيها الإنسان رسالته ومن ثم فما الذي يضير الإنسان لو أطاع ربه؟ إنه لا ضير عليه إذا سار على الدرب الذي رسمه الله له، والإنسان يريد أن يكون سعيد والمجتمع الإنساني المثالي لا يرضى للفرد الإنساني إلا السعادة

ولما كان الفرد هو لبنة المجتمع التي يتشكل من أمثالها كان الفرد هو الأساس ولذلك فواجب على الأفراد أن يبدأوا بأن يأتي كل منهم ما يشكله على النسق الأعلى الأكمل الذي سبق إيضاحه وهكذا سرعان ما يتم وجود التشكيل الجماعي المثالي... والمجتمع الإنساني المثالي لا شك أنه يؤدي للفرد بدوره كل ما يجعله سعيداً وهكذا يتضح أن سعادة الفرد الإنساني مصدرها الأول هو ذاته فلو أصلح الفرد نفسه صلح المجتمع والمجتمع الصالح مستحيل أن يشقى الناس فيه وفي عبارة قصيرة أرى أن سعادة الإنسان تتوقف على مدى تحكمه في طاقاته العقلية والجسدية والروحية فإن هذا التحكم الحكيم هو مصدر الخير للفرد وللمجتمع الإنساني.

وقد عالجت هذا البحث في هذا الكتاب لأني أرى أن الفرد لا بد أن يكون سعيداً لأنه هو القوة الإيجابية المسيطرة معنى الكلمة على كيان الدنيا فالواجب أن تكون هذه سيطرة في حدود سعادته وإلا لانتفت حكمة وجوده.. كما أني أؤكد أن السعادة المثالية هي السعادة التي تهبط على رأس الإنسان مظلة من الفضيلة فتسري السعادة في كيان الإنسان وتظل الفضيلة تاجاً على رأسه فيستلهمها هذا الرأس في كل ما يخط من أقوال وأفعال وتصرفات وبهذا يكون الإنسان وهو أقوى قوة إيجابيه فعالة على الأرض قوة مثالية خيرة رحيمة سعيدة خالدة.

٤٧ ــ تطور القوى الرأسي وتطورها الأفقي

وتطور القوى الرأسي يكون بتدرجها إلى الكمال والرفعة والعظمة، ففي دائرة العلم مثلاً نجده يرقى سلم الأبحاث العميقة الدقيقة مكتشفاً المجهول مخترقاً الآفاق خالقاً الأعاجيب منتصراً مسيطراً، وتطوره الأفقي هو انتشاره في ربوع المجتمع الإنساني إلى درجة كاملة شاملة فيصبح الناس كلهم على دراية

تامة بالثقافة الواعية العامة، فالثقافة العامة تأخذ مجراها الأفقي منتشرة بين أوساط الإنسانية وهذا ما يرفع من شأن ومستوى الأمم، والعبادة مثلاً نجد أن التصوف يمثل التطور الرأسي للتعبد لله إذ يصل الصوفي إلى مقام رفيع عند الله، ولكن اعتناق كافة الناس للدين يمثل التطور الديني الأفقي وهو الانتشار... وفي دائرة الأبحاث الخاصة بتطوير بعض الأنواع نجد أن هذه الأبحاث قد أنتجت سلالات جديدة وهذا هو التطور الرأسي، كما انتشار السلالات الجديدة يمثل التطور الأفقي وهكذا نجد أن عبقرية التطور في القوى المتطورة فسبحان من علم الإنسان.

٤٨ ــ القوى العقلية والقوى اليدوية

القوى العقلية هي التفكير والذاكرة والمخيلة.

والتفكير هو أقوى قوة عقلية وهو الذي جعل الإنسان إنساناً وميزه وفضله على سائر الحيوانات، ويقول بعض الكتاب إن الذاكرة قد وجدت لدى الإنسان حديثاً وهي التي تمده بأسباب التفكير وهكذا صار في مكنته وفي مقدوره أن يفكر فتكون عقله، والتفكير هو الأداة التي جعلت الإنسان سيد الوجود وسلطان الدنيا وحاكم الموجودات على الأرض ولذلك فإنه هو تاج الفخار والشرف والسمو والرقي للإنسانية. فلو لم يكن الإنسان مفكر لكان شبيهاً بالجماد الذي لا يفكر ولا يدرس ولا يدري من أمر الدنيا ولا من أمر وجوده شيئاً. والآثار الفكرية آثار ضخمة رائعة متنوعة متعددة ونحن نجد التفكير الإنساني قد أجدى وأنتج في كافة العصور ومنها عصور ما قبل التاريخ المحدد وفي هذه الفترات المجهولة كان الإنسان يفكر وينتج فنراه قد استعمل الأحجار والأخشاب والجلود في شتى نواحي حياته.. وقد صار الإنسان يتدرج متقدماً في الإنتاج كلما تقدم فكره، وبمقارنة العصور السحيقة بالعصور الحديثة التي ارتقى فيها

الفكر نجد أن الحضارة التي وجدت في العصور الحديثة كانت ثمرة رائعة للفكر الرائع.. والذاكرة هي القوة التي تحفظ الأمور العقلية المعنوية ويسميها البعض الحافظة، وهي مصدر خير للإنسان لأنها هي التي تجعله يرتبط بماضيه وحاضره فتكون شخصية الفرد ولولا هذا لتفككت شخصيته وكان الفرد الواحد في حاضره منفصلاً عن ماضيه ولا يرتبط به وينسى الماضي تماماً فيكون ابن يومه وليس له ارتباط بذاته الممتدة أو الماضي وهكذا لا يستفيد من ماضيه ولا من تجاربه وممارساته في الحياة فيسقط كل هذا ويصير كأنه لم يكن وهذه خسارة كبيرة وطامة عظمى فتصور أن الفرد الإنساني لا يعرف الأمس أو ما قبل الأمس ولا نفسه في هذا الماضي إنها تكون مثلاً محيرة وضربة قاصمة موجهة إلى شخصية الإنسان فتتفتت ولا تتكون أبداً.. والذاكرة هي التي تحفظ المعاني الكلية لكل الأمور وهي الخامات التي تتشكل منها كافة الينابيع الفكرية ولولا هذه الذاكرة لما كانت للإنسان عبقرية أبداً لأن الخامات إذا ما انتفت فإن الأفكار كيف تصدر عن عقل يكون شبيهاً بالواحة الجرداء؟..

والقوة المخيلة هي من أسس الملكات الفطرية من شعر ورسم وموسيقى ونحت وسائر الفنون والعلوم، وهذه القوة هي قوة عبقرية جبارة مدهشة، فالخيال الخصيب تصدر عنه الأفكار والإبتكارات العظمى الرائعة التي تملأ جوانب الدنيا حضارة ومجداً وتقدماً ورقياً، وكثيراً ما كان الخيال أساس الابتكارات الضخمة التي بنيت عليها الحضارات التي هي مبعث الإنسانية الراقية ومثالياتها وأمجادها وفخارها بل يمكن القول بأن الإنسانية من غير حضارة تكون غير إنسانية أي أن الإنسان يكون في مرتبة التوحش ولا يكون لديه من صلة بالإنسانية المثالية أي سبب، وهكذا نجد الخيال وحياً رائعاً للإنسانية في كافة أمورها وفي كل ما يهمها.

٤٩ ـ القوة اليدوية

والقوة اليدوية هي من النعم الأولى التي أسبغها الله على الإنسانية، وهي القوة الفاعلة المحركة المنفذة المدبرة التدبير التنفيذي. ولولا التنفيذ ما كان للفكر الرائع والخيال الخصيب والذاكرة الحادة من آثار مجيدة وأفعال وفخار وإنتاج وانتصار فالعامل في مصنعه يمثل عظمة الإنسان على الأرض، إن العامل في مصنعه قديس عبقري يجب أن يوضع على رأسه إكليل الصدق والإنسانية المثالية والتضحية الفذّة ولولا العامل لما كانت الدنيا عظيمة ولما وصلت إلى مجدها وسؤددها وتقدمها وازدهارها، والعامل يعمل للوطن وللإنسانية ولله إذ أن خدمة الوطن والإنسانية هي العبادة الأولى لدى السماء، والعامل هو مجد الدنيا وفخارها وقوتها ومنارها وازدهارها وشرفها وشمسها المنيرة التي تبعث فيها الحياة والنور والحركة والقوة والجبروت وهكذا فالعامل هو الدنيا هو سلطانها هو خيرها وثمرها وكفاحها وجلدها وبركتها وهو قبل كل شيء محركها رافعها إلى الحياة بعد أن كانت مواتاً وإلى الحركة بعد أن كانت ثباتاً وكل ما تراه في الدنيا من خير وفير وثمر كثير ومتاع فهو من فيض راحة يد العامل فالعامل عمل وبناء وتضحية وفداء لوطنه وللإنسانية ولذلك فالعالم أصبح اليوم ينظر إلى العامل نظرة التقدير والإكبار.

٥٠ ـ مشاكل القوة

مشاكل القوى هي الإفراط أحياناً والتفريط أخرى فهناك قوة حب الوطن إذا فرط المواطن فيها فإنه يكون رعديداً جباناً نذلاً لا يستحق أن يعيش في وطنه الذي نشأ وتربى وترعرع في ظلاله الوارفة وإنه من غير شك يكون جباناً خائناً وأمثال هذا الإنسان هم في الواقع مصيبة على الوطن، وهؤلاء يمكن أن يوصفوا

بالشذوذ الروحي وهم خونة بدون جدل. فالوطن يستحق الفداء والتضحية والفناء في سبيله في سبيل مجده ورقيه وتقدمه، والإنسان لا يكون إنساناً مكرماً إلا بوطنه فوطنه هو الذي يحميه ويجعل له مقاماً في الدنيا ويجعل له احتراماً وحقوقاً ويجعل له ركناً في الدنيا يعيش فيه عيشة الهناء والسعادة والرفاهية... والخونة لأوطانهم تنبذهم الأخلاق والأديان وهم شر على أنفهسم وأوطانهم وعلى الإنسانية.

والقائد في المعركة الذي يفرط في الدفاع عن حقوق وطنه يستحق الإعدام لأن العسكرية شرف ورفعة ومقام وفداء وتضحية ورجولة شامخة ونفس وثابة وروح مركبة من عناصر الفداء وإنكار الذات... والزعيم الوطني الذي يعمل لصالح وطنه يستحق أن يسجل اسمه في أرفع سجلات المجد في ثنايا التاريخ ويستحق كل تكريم وكل تعظيم وكل محبة من بني وطنه ومن العالم ذي الضمير الحر...

والمدرس الذي يؤدي أمانة التدريس في نطاق من العلم الصحيح والأخلاق الفاضلة المثالية وبروح هي إنكار الذات متفانياً في نشر العلم بين ربوع وطنه هذا المدرس يستحق أن يسمى قديساً ويكون له المقام الأسمى في الوجود لأنه بالعلم تكون الأمم، وبالعلم تتلاشى معالم الشقاء من الوطن وتنتشر فيه الفضيلة والمعرفة والحكمة ويسوده الرخاء والتقدم والحضارة الكاملة.

ومن أمثلة الإفراط في القوى هو ما يسود الجهلة من التعصب الديني الذي يفتت الأمم، والملاحظ أن الدول والأمم ذات القوة والعظمة والسلطان لا نجد فيها تعصباً دينياً أبداً بل يسري الحكمة والمثالية والإخاء والمحبة إذ أن الدين لله والوطن لبني الوطن جميعاً.

وكذلك نجد المجتمعات الإنسانية التي يسودها البذخ والإسراف المالي فإنها تضار أضراراً بالغة من النواحي الإقتصادية وقد تفلس هذه المجتمعات وهنا الطامة الكبرى إذ أن المعيشة والجيش ومعاهد العلم وكافة مرافق الدولة تصبح

في عوز إلى المال الذي هو ساعدها الأيمن وقد تضطر هذه المجتمعات إلى الاستدانة فيتدخل الأجنبي في شؤون السياسة أو الإقتصاد الوطني وهذا أمر فيه دمار المجتمعات الإنسانية وإذلالها وشقاؤها وكذلك نجد أن الشجاعة هي الإقدام الحكيم إذ أن التهوين جنون وخطر يؤديان إلى الويلات التي تصيب الفرد أو المجتمع فإذا كان هذا الفرد زعيماً يسوس شؤون بلده فقد يأتي بأعمال جنونية يترتب عليها الضرر الضخم وهذا ما نراه في زعماء الدولة الاستعمارية وحكامها فكثيراً ما نرى ساستها يجازفون فيشعلون نيران الحروب ودائماً تدور الدوائر على بلادهم فتصاب اقتصادياتها وشعوبها بالأضرار العظمى من إفلاس وهزيمة وشقاء وذلة وهذه الخطوب سببها التصرفات التي مبعثها الطمع في مصالح البلاد الآمنة وكذلك الحقد الدفين والنفوس القذرة المتوحشة.

٥١ ـ خطوط بارزة في القوى الدينية والعلمية والفلسفية

الملاحظ أن كثيراً من الديانات غير السماوية كديانات الإغريق والرومان والفراعنة والفرس كانت تعدد الآلهة فهذا إله للخير وهذا للشر وهذا إله للحرب وهذا إله للسلام وهكذا.

وهذا التعدّد كان له تأثير في خلق نزعات متطرفة فمثلاً اعتناق فكرة وجود إله للحرب فإن هذا كثيراً ما كان يدعو الأقوام لتقديس الحروب لذاتها ولهذا فكثيراً ما كانت تحل الويلات بالشعوب وكانت مبادىء السلام مزعزعة فمثلاً الحروب التي كانت بين أسبارطة وأثينا بصفة تكاد تكون مستمرة أدت إلى ويلات مالية وإفناء للشباب.

كما أن فكرة وجود آلهة للخير وآلهة للشر قد أوجد في الثقافات الدينية آثاراً عظمى جعلت ديانات الأمم بدائية في تلك المراحل لا تنظر بفكر صائب إلى اللاهوت ولهذا نجد أن هذه الديانات القديمة ملأى بالخرافات تدور حول

آلهتهم الخرافية وهذا مما تسبب في تأخر الثقافات الصحيحة الصادقة.

والملاحظ أن الديانة الموسوية كانت لا تنشر السلام إلا بين اتباعها وكانت تعتبر غير الموسويين أعداء تماماً ولذلك فلا سلام ولا مهادنة بين الموسويين وبين غيرهم بل العداوة والحرب والقتال والتدمير إن أمكن كل ذلك.

ولكننا نرى الشريعة المسيحية وقد خففت كثيراً جداً من غلواء هذا التفكير الديني فجاءت هذه الشريعة تنشر المحبة والسلام والإخاء بين الناس فكانت هذه الشريعة رحمة بالإنسانية ودفعة لمستواها الأخلاقي، ولكنا نجد أن الشريعة المسيحية قد اقتصر نطاقها على دائرة العبادة فقد قررت بأن يعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر وهكذا نراها لم تهتم اهتماماً كاملاً بأمور الدين والملاحظ أن الشريعة الإسلامية قد نظمت للفرد وللمجتمع نظام الدين والدنيا فكانت رحمة للناس وهم يتعاملون مع السماء ورحمة لهم وهم يتعاملون فيما بينهم، فنجد شريعة الإسلام قد نظمت العبادات والمعاملات بحزم ورفق وكياسة وصحة واعتدال وهدى وتوفيق ومثالية رائعة خالدة، ولذلك نجد أن كافة فروض القانون قد عالجتها هذه الشريعة ولذلك فهي مصدر تشريعي جليل لكافة شؤون الإنسانية وهي فيض متصل مستمر لا ينتهي أبداً كلما نهلت منه الإنسانية ارتوت وصحت كياناتها وتقدمت والعالم كله يشهد بأن شريعة الإسلام قد أحاطت بأمور الدين والدنيا.

والملاحظ أن العلم الصحيح يساند الدين والفلسفة فنجد الدين ينشط ويتقدم في المجتمعات العلمية ويخلو من الخرافات بمعنى أنه من المستحيل أن يدس أعداء الدين أو الجهلة عليه أشياء غريبة، ولهذا يظل الدين قوياً شامخاً مجدياً في نطاق عمله وهكذا تظل العلاقة بين الإنسان وربه وبينه وبين الناس في دائرة الدين علاقة صادقة كاملة مهذبة روحية بمعنى الكلمة.. فلا تعصب ولا خرافات ولا شقاق بين الناس ولا ضغائن بسبب الدين بل يسود العالم جو من السلام والمحبة والإخاء والمساواة وهذه هي الإنسانية المثالية التي توحي بها

الأديان السماوية الصادقة...

والعلم في ذاته قوة فاحصة بمعداتها وأدواتها ووسائلها الخاصة وهو يصل إلى ما يصل إليه ولا يمس كيان الدين بل يقدسه ويقدّس نفسه فيسير في عمله مستلهماً الله أن يكشف الأمور أمامه والله يهدي دائماً العلماء الصادقين المخلصين إلى ما كل ما ينفع الإنسانية.

والملاحظ أن الفلسفة تبحث أبحاثها الحرة وتصل إلى ما تصل إليه من روائع الفكر ولكنها تراجع نفسها إذا ما وصلت الإنسانية إلى حقائق الدين والعلم ولهذا نجدها مرنة كشافة تكشف للعمل وتحاول ألاّ تهدم الأديان الصحيحة التي يؤيدها العقل السليم والمنطق السليم القوي والإلهام الإنساني العام السليم الذي هو نور من السماء ينبعث منها لهدي الناس إلى حقائق الدين التي هي حقائق تصل من السماء مباشرة إلى قلوب المؤمنين وبالاختصار فالأديان حقائق سماوية مقدسة يحميها العلم من الخرافات الغريبة أما العلم فهو بحث في نطاق الدنيا، أما الفلسفة فهي كشافة للعلم والملاحظ أن الفلسفة السليمة لا تهدم الأديان السماوية الصادقة وكثيراً ما تدافع عنها دفاعاً حاراً مجيداً عبقرياً.

والفلسفة تراجع نفسها كثيراً لتستفيد من الدين والعلم كما أفادت بتهيئة الجو للعلم والدين والتمهيد لهما.

وأقول أخيراً إن الدين حب لله والعلم حب لحقائق الوجود والفلسفة خليط من الفكر الرائع والخيال الممهد الخصيب.

٥٢ ـ الحب المتبادل بين الإنسان والقوى

ـ الحب المتبادل بين الإنسان والله:

الله يحب الإنسان فهو الذي خلقه وصوره فهو يحبه ويمده بالعون والخير وقد جهزه بأجهزة تساعده أن يحيا حياة كاملة عبقرية لا نقص فيها فكيف لا يحبه؟ تصور أن فناناً أبدع صورة فكيف لا يحب هذا الفنان هذه الصورة؟

إنه يحبها قطعاً ولا يمكن إلا أن يعتز بها بكامل إرادته ووجدانه. والله الذي خلق الإنسان وصوره وأبدعه ورعاه رعاية حكيمة وعلمه، كيف لا يحبه؟

إنه يحبه كل الحب ويمده بكامل الخير وبأسباب السعادة والنعيم والرفعة ولكن بعض الناس نظراً لعدم استخدامهم طاقة التفكير استخداماً صحيحاً كاملاً قوياً نافذاً فإنهم يضلون فيأتون أعمالاً كثيرة من الشر فما الذي يدعوهم لهذا؟

إن هؤلاء الناس الذين لا يفكرون تفكيراً سوياً تكون نتائج أفكارهم مخالفة للضمير الإنساني العام ويخرجون عن نطاق الكمال ولا أستطيع أن أتصور أن إنساناً إذا أراد أن يفكر في نطاق الخير يستعصي عليه الخير وكماله وجماله وعبقريته، إن الإنسان إذا ركب إلى جهة ما واستعمل كامل الحكمة فإنه يصل وهكذا يبدو واضحاً أن الإنسان لو أراد الخير وصل إليه ولو أراد الشر وصل إليه، ولهذا يكون جلياً أن الله وهو خير أنه لا يرضى عن الشر الذي يصبغه الأشرار، فهل مع هذا الموقف من جانبهم يكون مستساغاً عقلاً أن يحبهم الله؟ محال فلو أحبهم فيكون قد مجد الشر وأحبه وهذا مستحيل... فالله إذ يكره الشر والأشرار فهذه هي العدالة الكاملة.

والإنسان إذا ما رجع عن غيه وتاب إلى الله فإن باب الغفران مفتوح وهذه عظمة إلهية. فالله يعطي الإنسان الفرص فواجب ألا يضيعها.. وعقاب الأشرار هو حزم من الله والحزم لا غنى للوجود عنه فهو الحكمة التي توقف الشر فلا

يستفحل وتمنع البلاء عن الوجود فلا ينتشر والإنسان العاقل كثيراً بل دائماً ما يكره نفسه إذا استعصت على الطاعة في نطاق الخير، فكيف لا يكره الله الشر والأشرار.

وهكذا يكون واضحاً أن الله يحب الناس ويسامحهم ويغفر لهم ويتوب عليهم ويهيء لهم أسباب الخير والسعادة الفاضلة المثالية...

والإنسان واجب عليه أن يحب الله فحب الله هو مصدر التنظيم الجميل العبقري للدنيا، فهذا الحب يجعل الإنسان كاملاً مثالياً ينفع نفسه بالخير الذي يصنعه وينفع الناس بأعمال الخير من بر وتقوى ورحمة وحنان ومساعدة وتكاتف وبذل وأناة ورعاية وتسامح وإرشاد.

وأعمال الخير عديدة وقد دلّ تاريخ الإنسانية على أن المجتمعات التي يسودها حب الناس لله تكون مجتمعات راقية يعمها المجد والرخاء، والسعادة المثالية...

أما المجتمعات التي لا تحب الله فإنها تتحطم وتشقى ويسودها البؤس إذ ينتشر فيها الإجرام ويعمها الشح ويقل فيها تبادل العون... ومجتمع هذا دينه مصيره الفشل والانهيار. ولذلك كان حب الناس لله واجباً عليهم ديناً وأخلاقاً وذوقاً عالياً مثالياً وهكذا يكون الخير التام في حب الناس لله، وبهذا ترتفع طاقة الإنسانية فتنتج الخير الذي يعم الدنيا فترضى السماء عن الأرض فينزّل الله بركات وسعادة على الدنيا.

ـ الحب المتبادل بين الناس:

هذا الحب هو الدعامة التي تقوم عليها المجتمعات الإنسانية من دول وأمم وقبائل وجماعات، فلولا الحب الفاضل الصادق ما كان هناك مجتمع صغيراً كان أم كبيراً.. فتصور مثلاً أن الرجل لا يحب زوجه فكيف تنشأ الأسرة النشوء المثالي والأسرة هي خلية المجتمع الأولى، وإذا كان سكان الأمة أو الدولة لا يتبادلون شعور المحبة فكيف تشكل الأمة أو الدولة؟

محال أن يتم هذا التشكيل، فالكراهية عزلة نفسية والانعزال لا يكون الجماعات والمجتمعات.

وإذا انتشر الحب الفاضل الصادق المثالي بين الناس فإنهم يتكاتفون في كافة شؤونهم فيصلون إلى ما ينفعهم كما أن الخير والسعادة المثالية العبقرية والمجد تصل إلى ساحتهم.

وإذا تحابت الدول فإن السلام يسودها والخير يرفرف عليها إذ تتبادل المعونات والأبحاث ولا تقوم الحروب المهلكة التي لا تبقي ولا تذر والتي تدمر الحضارة والاقتصاديات وهكذا يكون الخير في تبادل الحب المثالي بين الشعوب والأمم والدول وسائر المجتمعات والجماعات.

٥٣ ـ الحب المتبادل بين الإنسان والكائنات

ـ الحب بين الإنسان والحيوان:

وأقصد بهذا عطف الإنسان على الحيوان فلا إيذاء ولا إضرار للحيوان، فالإنسان سيد الحيوان ومن واجبات السيد أن يكون رؤوفاً رحيماً باراً والحيوان نعمة كبرى للإنسان فيجب أن يرعاها ويسوسها ويدربها على طاعته وخدمته.

إلا أن هناك حيوانات مفترسة كاسرة فهذه الحيوانات واجب على الإنسان ألاّ يتعرّض لأخطارها ومضارها وأن يتخذ الحيطة في معاملتها فإن كان ولابد من رد اعتدائها فبالقدر الكافي الذي يمنع الضرر قبل وقوعه وبالحكمة التي تحمي الإنسان من أذاها فلا يصح الخروج من دائرة الدفاع إلى دائرة الاعتداء غير اللازم على الحيوان وإلا كان الإنسان آثماً.

والحيوانات الكاسرة المتوحشة لها فوائد وكل الناس يعرفون ذلك ولهذا فإبادة هذه الحيوانات خسارة كبرى ومضرة عظمى تصيب مصالح الإنسان.

والإنسان إذا ما درب الحيوانات المتوحشة فقد تطيعه وتكون تحت أمرته وتصرفه ولهذا فالسياسة للحيوان واجبة على الإنسان والحيوان المستأنس يؤدي للإنسان خدمات كثيرة وفيرة فواجب عليه أن يرعاها أحسن رعاية، فهذه الحيوانات قوة اقتصادية ضخمة يجب ألا يفرط الإنسان فيها فعليه أن يحافظ عليها تمام المحافظة، والملاحظ أن بعض الحيوانات يألف الإنسان ويلوذ به فالكلب مثلاً حيوان أمين جداً بل هو مثل صحيح على الأمانة مع سيده، وخلاصة الرأي أن سياسة الحيوان بالحسنى قد تجعل الحيوان حبيب الإنسان فيستفيد الإنسان منه ويستخدمه في نواحٍ شتى من الإنتاج.

ـ الحب المتبادل بين الإنسان وباقي الكائنات

واجب على الإنسان أن يرعى النبات ويهذبه وينسقه ويخدمه فهذا يؤدي إلى وفرة الإنتاج الذي هو قوت الإنسانية، فإذا قال قائل إن الزراعة علامة التأخر فهذا خطأ محض لأنه لا حياة للناس بدون الزرع، وكذلك الأشجار الباسقة ذات الأخشاب والأشجار المثمرة والزرع المختلف الأشكال والأنواع والحدائق الغناء والبساتين كل هذه ثروة لا غنى للإنسانية عنها، فلهذا يجب أن يرعى الإنسان هذه الثروة بفنه وعلمه ورعايته العبقرية التامة.

أما عن هذه الكائنات النباتية فإنها نظراً لما تقدمه للإنسانية من خدمات ومنافع من دوائر الطب والقوت والصناعة والعلم والفن فإنه في المقدور أن يقال مجازاً إن هوايتها المبثوثة فيها بمقتضى نواميس الطبيعة وبقدرة الله إنها هواية فطرية لأداء الخدمات للإنسان أي أنها مسخرة له ولمنافعه ولذلك فهي هواية تنظيمية بحكم طبيعتها، والملاحظ أن الإنسان إذا مارس النشاط في دائرة هذه الكائنات فإنها لا تستعصي عليه ولهذا فهي بحكم طبيعتها ذات هواية فطرية للتجاوب مع الإنسان في أداء دورها الذي خصصت له... ولهذا فواجب أن يرعى الإنسان هذه الكائنات النباتية على اختلاف أنواعها حق الرعاية العبقرية المثالية وذلك من أجل مصالح الإنسانية.

وفي الختام أقول إنه واجب على الإنسان أن يرعى بحكمة كل ما وضعه الله في حوزته من كافة الكائنات وذلك لصالح الإنسان نفسه وأداء كاملاً لعبقرية العلم والتصرف الكيس السليم المثالي.

٥٤ ــ فلسفة الحياة

هناك مفكرون يقولون إن الحياة الإنسانية محيرة ولا حكمة لها، وهم بهذا يقصدون التعبير عن أنهم لا يعرفون مفهوم رسالة الحياة الإنسانية، وبعض هؤلاء يظهر الضيق والملل من وجود الحياة الإنسانية... والطابع الغالب على عقول هؤلاء المفكرين هو طابع عدم الرضاء بالحياة من حيث يرون فيها متاعب كثيرة وهم يقررون بأن الحياة غير ذات موضوع إلا الشقاء والحزن والبلاء... والحقيقة أن الحياة الإنسانية لها مدلولها الواضح فهي الوجود الحي الشاعر المفكر ذو الخطة الكاملة، فالإنسان وهو حي يؤثر في كيان الوجود ويتأثر بهذا الكيان أي أن مفهوم الحياة هو الشعور الإنساني المترتب على هذا التبادل في التأثير ولما كانت الحياة بطبيعتها تدفع الإنسان للعمل والكفاح فإن البعض يصادفهم في الحياة ما يرضيهم ويحقق رغباتهم والبعض الآخر لا يصل إلى إشباع رغباته، فالبعض تصيبه الصدمات النفسية فلا يكون مسروراً بل يثقل ذاته الأسى والهموم والشعور بالشقاء وأما من تحققت رغباتهم فيكونون مسرورين سعداء راضين بالحياة.. والحياة الإنسانية معقدة التكييف والتشكيل ولذلك فلكي يكون الإنسان سعيداً فلا بد له من التكيف النفساني والعقلي مع هذا النمط الذي وجدت عليه فيحاول جهد طاقته ألا يصطدم بتشكيلها وبهذا لا تكون هناك الفرص المبررة لإيذائه وهكذا ينقص مصدر الشقاء فيكون سعيداً.

وواجب على الإنسان أن يحكم عقله دائماً في فهم الأمور فكثير من الناس يظنون أنهم غير سعداء مع أنهم قد توفرت لديهم عناصر السعادة، فكثيراً ما

يتشائم إنسان من أمر وهو في الواقع مصدر سعادة له، وكثيراً ما يكون الإنسان في غير عناء ولكنه يتوهم أنه في عناء، ولذلك يجب تحكيم العقل في كافة الأمور حتى يرى الفرد عناصر السعادة التي تحيط به وبعض الناس إذا أصابتهم متاعب في حياتهم فإنهم يجسمون هذه المتاعب وهذا راجع إلى عدم تحكيم العقل تحكيماً سليماً عبقرياً.

والبعض يدفع بنفسه إلى مصادر الشقاء وهم يعلمون أنهم مقدمون على شقاء محقق ولكنهم لا ينصتون لصوت العقل السليم الذي يحذرهم.

وهكذا نرى أن تحكيم العقل ومراعاة أوامره السليمة هما صمام الأمان في الحياة النفسية، وهذا العقل لكي يكون بصيراً تلزم له ثقافة دينية سليمة فالإيمان بالله وبقضائه وقدره يجعل المؤمن متقبلاً صدمات الحياة بنفس راضية مطمئنة ولهذا نجد الإنسان المؤمن تحيطه صعاب الدنيا ولكنه يطرح عنه عناء الهموم فيكون سعيداً ويلزم للعقل أن يكون مسيطراً على العواطف التي قد تكون سبباً في الشقاء، فالعقل يجب أن يكون صاحب السلطان على هذه العواطف فكثيراً ما تجنح العواطف بالفرد فيأتي أعمالاً تكون سبباً في شقائه، ولكن إذا كان عقله مسيطراً على عواطفه كان بمنجى من مواطن الشقاء ولكي يكون العقل مصدراً لما يسعد الإنسان فواجب أن تكون ثقافة هذا العقل في نطاق من الأخلاق الكريمة والأخلاق الكريمة هي الحصن الحصين الذي يحتمي فيه الفرد من شرور الشقاء ومصادره فالفضيلة تدفع إلى السعادة والرذيلة تدفع إلى الشقاء.

وهكذا يبدو واضحاً أن العقل الذي اكتملت لديه كافة عناصر القوة السامية من علم صحيح ودين سليم وأخلاق سامية مثالية، هذا العقل هو الباب الموصل إلى السعادة الحقيقية، كما يبدو واضحاً أن الحياة الإنسانية لها رسالة وهي سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

٥٥ ـ البطولة

البطولة ما أروعها ما أبدعها فكرة وما أعظمها قوة، إنها الخيال الذي يتحقق ويتدفق إلى ساحة التنفيذ، البطولة همة فائقة وقدرة خارقة وفلسفة عبقرية جبارة تهزّ كيان صاحبها وتدفعه إلى ساحة لا يقدم عليها إلا كل جبار ذو عزيمة هائلة، والأبطال كثيرون منهم العلماء الذين ذللوا الأرض وارتفعوا إلى الآفاق، هؤلاء العلماء الكبار ضحوا حياتهم من أجل مجد الإنسانية وعظمتها وراحتها وسعادتها، فهذا عالم يبتكر وسائل الطيران التي قربت المسافات بعد أن كان قطعها نوعاً من الويلات، وهذا عالم يكتشف الدواء الذي يقضي على المرض العضال الذي كان يدوخ الإنسانية ويشقيها ويبكيها ويفنيها فهذا بطل همام له في سجل التاريخ أعلى مقام، وهذا قائد يدافع عن وطنه ضد المستعمر الغاشم فيحمي ذماره ويذود عن دياره ويستميت حتى النصر أو يموت في الميدان وهو في كلا الحالين بطل خالد جبار لا يشق له غبار وهو قديس بل أرفع وهو مناعة للإنسانية ورحمة وكل حياته فداء لوطنه ونعمه، وهذا أستاذ في فنه يحكي جمال الوجود في نحته أو تصويره أو رسمه أو موسيقاه فيلهب عاطفة الإنسان المثالية العالية فتتجه الإنسانية قدماً إلى مشاعر الرحمة والحنان والإخاء والمساواة وتبادل المساعدة والغوث في كل إطار من إطارات الحياة فهو بطل مغوار يضحي حياته لينعم الناس ولتسعد الإنسانية ويرفرف عليها الجمال والكمال والفضيلة والمثالية، فالموسيقي مثلاً الذي يترجم جمال الوجود إلى نغمات مسموعة فتتفاعل مشاعر الإنسان مع مشاعر الإنسانية فتثرى الرحمة ويثرى الذوق الرفيع والكيان النفساني الخالد للإنسانية ويرتفع مستوى الذوق ويعمل الكل من أجل رفعة الوجود ومثاليته. والإنسان إذا ما ضبط مشاعره وتحكم في غرائزه وقادها قيادة سليمة علمية خلقية وكان مسيطر الإرادة على مقومات نفسه من روح وعقل ونفس فإنه لا شك بطل من الأبطال لأن هذا النمط لو انتشر في

المجتمع الإنساني لصارت الإنسانية مثالية من غير شك.

والغني الذي يخلق أجواء الرحمة والحنان لمن حوله فقام يسدي إليهم الخير بأن ينشيء الصناعات التي يعملون فيها من أجل رزقهم ولكي يصير الإنتاج الوطني وفيراً فهذا بطل بطولته لا تنكر وتظل مرفوعة الهامة شامخة الرأس بل هي مفخرة من مفاخر الإنسانية الخالدة، ورجل الهلال الأحمر أو الصليب الأحمر الذي يقتحم ميدان القتال مثلاً ليخفف من ويلات الحروب وينقذ الأرواح ويضمد الجراح وهو في عمله قاب قوسين أو أدنى من الهلاك فهو مثل رائع للإنسانية وهو بطل وهو ملاك رحيم. وميادين البطولة عديدة وهي مفتوحة لأصحاب الهمم العالية والأنفس المثالية والأرواح الفدائية والضمائر الحية القوية والعقول الفذّة الجبارة العبقرية.

والأبطال المثاليون تنعدم لديهم الأنانية فهم أرواح شجاعة فدائية من أجل خلود الإنسانية وعظمتها واستمرارها وتقدمها وارتقائها درجات الشرف والكمال والعبقرية والسعادة التامة وإذا ما استغلّ أصحاب المواهب والعقول العبقرية هذه الطاقات في ميادين تخصصهم لانهالت على الإنسانية موجات تترى من البطولات وفتوحات الرحمة والإخاء وتبادل العون والفوز الإنساني في معترك الدنيا فتصل الإنسانية إلى هدفها وهو المثالية والسعادة الفاضلة التي تجمع بين السماء والأرض في نطاق من جمال المحبة وكمال الانسجام، والبطولة بابها مفتوح على مصراعيه للجميع فليحاول كل فرد أن يكون بطلاً في ميدان من ميادينها فالبطولة شيء عبقري ساحر وجمال لوجود الفرد ولوجود الإنسانية وخلود لهما وعزة ووسام الشرف الرفيع، وعلى طارق باب البطولة أن يبذل الجهد الجبار وبعد ذلك فالمجد الذي يتوخاه للإنسانية سوف يتحقق ولو على مدى الزمن، فالبطولة طاقة مدهشة وعبقرية عليا وكفاح وأهداف محددة مرسومة في نطاق من حب الله وللإنسانية والعمل تحت راية الأخلاق المثالية وحب الإنسانية وطاعة المجتمع وخدمته والفناء في سبيله ودفعه إلى الأمام بالحكمة والعلوم والفنون والفلسفة العبقرية الصائبة والتوجيه السليم، وهكذا يبدو أن

قطاعات البطولة إنما هي رونق الحياة وجمال الوجود وبلسم الجراح وطريق الفلاح للإنسانية المثالية الخالدة.

٥٦ ـ الضمير الإنساني المثالي

الضمير الإنساني المثالي هو الطاقة التي تهدف إلى أداء الواجب واحترام الحق لذات الواجب ولذات الحق في نطاق من الإيمان بالله والأخلاق الفاضلة المثالية، وهذه الطاقة مقدسة وهي مبثوثة لدى الإنسانية بشكل قوي متين.. والإنسان الذي لا يسمع نداء الضمير لا شك أنه وحش وهو آفة الإنسانية ويلزم علاجه حتى يخضع لحكم الضمير الإنساني ليعود إلى نطاق الإنسانية المثالية.. والضمير الفردي السليم إنما هو محكمة عليا لدى صاحبه تحكم بالعدل والخير والرحمة والفضيلة، وضمير الإنسانية العام هو محكمة الإنسانية العليا، حكمها عام نافذ له قداسته واحترامه ومشيئته وجبروته وسلطانه وإرادته القوية العليا، وواجب أن يسير الضمير الفردي في نطاق الضمير الإنساني العام حتى تنجلي أمامه معالم الخير والفضيلة والسعادة فيسلكها ويدفع صاحبه إليها بكل قوة وسيطرة وسلطان، وبهذا نجد الإنسان المثالي الذي هو خامة الإنسانية المثالية، فالضمير الإنساني العام يزيد الضمير الفردي بكل طاقات الخير.

والضمير الإنساني العام يؤثر فيه مفهوم الحياة الإنسانية وهو سعادتها ونبلها وإيمانها بالإنسانية وبالله وبالعلم وبالاختصار يؤثر فيه هذا المفهوم الذي هو المثالية الكاملة العليا... والشعوب التي يضعف فيها الضمير الإنساني نجدها تتخبط في مسلكها في الحياة ويعتريها جنون العمل غير الصائب فتصيبها النكبات والويلات، والدول التي يكون الضمير الإنساني فيها قوياً فذاً نجدها تعمل لخيرها ولخير الإنسانية وسعادتها ولا تلقى بالاً إلى الاختلافات الدينية أو الطائفية أو اختلاف الأجناس فتكون مؤدية وظيفتها ورسالتها في نطاق من حقوق

الإنسان والإنسانية طاقة واحدة فلماذا تتجزأ؟

إن دعاة الفرقة بين بني الإنسان لا شك أنهم من ناحية النظر الفلسفي والعلمي والأخلاقي وحوش كاسرة وهم أعداء الإنسانية ومخربوها ومحطموها ومزلزلوها وشياطينها وهم مصدر شقائها وهم دافعوها إلى البلاء والتأخر والفناء، وهكذا نرى أن الضمير الإنساني إذا كان عبقرياً فإنه لا بدّ وأن يسمو بالإنسانية.

٥٧ ـ الشخصية الإنسانية المثالية

الشخصية الفردية هي الوحدة المعبرة عن مقومات الفرد وهي التمثيل الكامل له المعبر عن قطاعاته الفكرية والنفسية واتجاهاته العملية.. والإنسان إما أن تكون شخصيته إيجابية تماماً وإما أن تكون شخصيته غير كاملة الإيجابية.

والشخصية الإيجابية هي التي تخلق وتطور ولا تهدم وتقدم المآثر والخدمات ولا تتلقاها إلاّ بقدر الحاجة إليها حتى تستطيع أن تؤدي دور الإيجابية الكامل في حياة الإنسانية لإسعادها فهدف الشخصية الفردية الإيجابية هو إسعاد الإنسانية جمعاء. والشخصية الإيجابية لا تتطرق إليها أبداً روح الأنانية الفردية، فصاحبها يعمل جاهداً من أجل المجتمعات الإنسانية ومن أجل تحقيق مصالحها وتوفير كل ما يحقق منافعها ورقيها ورفاهيتها وكمالها واحترامها وسموها وخلودها، فالشخصية الإيجابية بطولة عالية شامخة رفيعة المقام متينة البنيان وهذه هي الشخصية الإيجابية المثالية.

والشخصية التي لا تتوفر فيها هذه الأمور إنما هي شخصية لا يمكن أن يقال فيها إنها إيجابيه أو كاملة الإيجابية، وقد يكون هذا لأسباب نفسية أو عقلية أو جسدية أو نتيجة ظروف اجتماعية فقد توجد أسباب عدم اكتمال الشخصية أو انعدامها فيصير الإنسان غير متوفرة لديه الشخصية الإيجابية المثالية فالمجنون والمعتوه والمعقد والذي تربى في ظلال من الظروف الاجتماعية غير المناسبة

وكذلك الذي تلقى ثقافات علمية أو دينية أو فلسفية أو أخلاقية غير سلمية هؤلاء لا يمكن أن تتوفر لديهم أسباب اكتمال الشخصية الإيجابية المثالية.

والمجتمع الذي تكثر فيه الشخصيات الإيجابية المثالية فإنه يتقدم نحو المجد سريعاً ويرقى أخلاقاً وثقافة وديناً وعلماً وفلسفة وفناً وحكمة، وقد تتهيأ الظروف التي تجعل الطابع العام لهذا المجتمع هو الإيجابية المثالية فكلما كثر فيه ذوو الشخصيات الإيجابية المثالية كلما اقترب من هذا الطابع العام، وهذا المجتمع يكون قوياً عظيماً راقياً سعيداً عبقرياً.

أما المجتمع الذي تقل فيه الشخصيات الإيجابية المثالية فإنه يكون متخلفاً غير مقدام نحو الرقي والثقافات العليا والعلوم والفنون الفذّة والإيمان الكامل السليم بالله ونحو الفلسفات الصادقة والحكمة التامّة والأخلاق السامية المثالية ولهذا فقد يفقد مثل هذا المجتمع كيانه فينهار ويصير نهبا للأطماع الاستعمارية وللشقاء والجهل وانحطاط مستوى المعيشة ويكون مجتمعاً بائسا ذليلاً.

والثقافات العالية الأخلاقية والدينية والفلسفية والعلمية والفنية من العوامل التي تساعد على انتشار الشخصيّات الإيجابيّة المثاليّة.. وهكذا نرى أن الشخصيّة الإيجابية المثالية هي التي تخلق وتطور وتقدم المنافع ولا تتلقى من الخدمات إلاّ ما يجعلها تقوم على قدميها لتنطلق في طريق الإنشاء من أجل سعادة الإنسانية فهذه السعادة هي الهدف الأساسي لهذه الشخصية.

٥٨ ــ واجب الوجود وممكن الوجود

واجب الوجود هو الذي يكون وجوده حتماً ولزوماً وممكن الوجود هو الذي تكون له مكنة الوجود، وقد قرّر الفلاسفة المؤمنون بالله بأن واجب الوجود هو الله إذ أن عدم وجوده محال وأما باقي الموجودات فيصفونها بأنها ينطبق عليها التعبير بأنها ممكنة.

ويترتب على هذا أن واجب الوجود يكون موجوداً أزلاً إذ أنه لو كان حديث الوجود لكان قد سبق وجوده مكنة وجوده فيكون ممكن الوجود وغير واجب الوجود، ويقول هؤلاء الفلاسفة إن الله هو الذي هيأ لممكن الوجود وجوده الفعلي بعد أن كان موجوداً بالقوّة أي بالمكنة.

ونحن المؤمنون بالله إيماناً كاملاً لا نشك في صحة كون الله هو الموجد للكون بما فيه ومن فيه، ولا في صحة كونه جل شأنه هو الأزلي القادر الخالق لكل شيء..

والمعنى الكامل الذي يقصده الفلاسفة بتعبير كون الله واجب الوجود هو أنه موجود أزلي وليس له موجد.

ومن ناحية عدم وجود موجد لله فالله حقاً ليس له موجد لأنه لو كان موجد فإن موجده المفترض يلزم له موجد وهذا الأخير يلزم له موجد وهكذا نرى تسلسلاً ليس له نهاية، وهذا مستحيل لأن المنطق السليم يقتضي النهاية في التسلسل أي أنه يقتضي الوقوف أمام قوة ليس لها موجود وتكون واجبة الوجود، وهكذا يكون القول إن الله واجب الوجود قولاً صادقاً حكيماً سليماً صائباً.

وإني أرى أن الكون من صنع الله واجب الوجود لأن الكون لو كان من صنع نفسه لكان هذا دليلاً قاطعاً على توفر قدرة الخلق غير المحدودة لدى هذا الكون وهذا ما لم يلاحظ فيه من حيث إنه طاقة عظمى غير مفكرة وانتفاء التفكير لدى هذه الطاقة معناه انتفاء الاتجاهات الفكرية الأساسية وفي مقدمتها فكرة

الخلق الجسيم الخطير.

والملاحظ أيضاً أن هذه الطاقة هي مصدر لاتخاذ الأشكال المختلفة فالخلق الذي يصدر عن هذه الطاقة هو عملية ظهور تشكيل بدل تشكيل آخر ليس إلا كتحول الذرة إلى طاقة ومع هذا فالملاحظ أن هذا التحول هو من صنع الفكر الإنساني فعنصر العقل ضروري لهذا التحول الذي وقع على شيء كان موجوداً، فمن باب أولى يلزم عنصر العقل، عند الإيجاد الأساسي وهو خلق المتحولات والمتشكلات.

ولما كنا قد نوهنا بأن الوجود ليس به عنصر التفكير فلهذا يكون مستحيلاً أن يخلق الكون ذاته ولهذا يكون الكون كان ممكن الوجود فأوجده الله ويكون لا جدل أنه غير واجب الوجود ويكون الله سبحانه وتعالى هو واجب الوجود دون غيره.

ويترتب على كون الله أنه واجب الوجود أنه له كل الصفات العليا من عظمة وسلطان وقدرة وحلم وعلم وكمال وخير وبالاختصار له كل الصفات المجيدة دون غيرها وإلا كانت ذاته غير كاملة والذات غير الكاملة مستحيل أن تتوفر لها الحكمة الكاملة، فلو كان الله ليست له الحكمة لكان ذا نقص في ذاته من حيث إن صفاته من ذاته وليست منفصلة عنها، ولا كانت ذات الله قابلة للتطور نحو الكمال لأن الملاحظ أن غير الكمال يتطور إلى الكمال وهذه قاعدة الوجود ولكان كمال ذات الله موجوداً بالمكنة، وهذا غير حق.

ولما كانت ذات الله واجبة الوجود لهذا يكون المؤكد والمنطقي أن صفات الله كلها كمال وعظمة وخير.

ثبت المصادر

١ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي

٢ - مجلة العربي العدد ٤١٢ مارس ١٩٩٣

٣ - مجلة الفيصل العدد ١٩٧ مارس ١٩٩٣

٤ - مجلة الشبان المسلمين القاهرية

٥ - تاريخ الفلسفة اليونانية عبد الرحمن بدوي

٦ - كتاب بال جبريل

٧ - أطروحة سمير المصري معيد الأردية.

٨ - كتاب أرمغات حجاز الأردية.

٩ - كتاب جناح جبريل بالأردية.

١٠ - مجلة الوعي.

١١ - من محاسن الدين الإسلامي للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان.

١٢ - قصة الفلسفة جون ديوي.

تمّ فهرس المراجع بحمد الله
والصلاة والسلام على
رسول الله وعلى آله وصحبه وسلّم

الفهرس